
Bibliotheca Alexandrina
0183383

صالح علي عيسى السوداني

الأسرار السياسية

لأبطال الثورة المصرية

وآراء الدكتور محجوب ثابت

تاريخ • سياسة • أدب • وطنية • صراحة • كرامة

شركة فنون للطباعة
صندوق بوستة ٤ شبرا مصر - تليفون ٥٨١٤٩

الإهداء

إلى الأجنّة فى بطون الأمهات . . .

إلى الأجيال المقبلة . . .

إلى أرواح الضحايا والشهداء الأبرار الذين سبقونا إلى ضيافة الرحمن فى عليين .

إلى الضحايا والشهداء (الأحياء) من جنود الوطن المنسيين المنكورين .

إلى الأعفّاء ، الذين كانوا — وما فَتِئُوا — وقود الحركة الوطنية ، وأنوارها ، ونيرانها .

إلى إخوان محجوب فى الوطنية ، فى ربوع النوبة والسودان .

إلى أبناء محجوب من شباب الجامعة وأبناء الأمة .

إلى أصدقاء محجوب وإخوانه فى البلاد العربية : فى الأقطار الحجازية المقدسة ، فى دمشق الفيحاء ، وحلب الشهباء ، وأعلام لبنان الغرّاء ، وبلاد الرافدين ، وفلسطين الجريحة المجاهدة .

إلى كل من طارده الغبن ونكر جميله .

إلى كل وطنى عيوف ، أنوف ، أبى ، غيور ، يدعو إلى المثل العليا .

إلى أرواح عبد الرحمن فهمى وأمين الرافعى وغيرهما من المجاهدين .

إلى هؤلاء جميعاً أهدى كتابى هذا .

المؤلف



حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم « فاروق الأول »

كالهندوانيّ لم تفلل مضاربه   وجهٌ نديٌّ وقلبٌ غيرُ وجّابِ

وكان العرش هامة كل قوم   وإن كانوا أجل الناس هاما

هو العلم الذى تفديه مصر   ونحن الجند فى العلم انتظاما

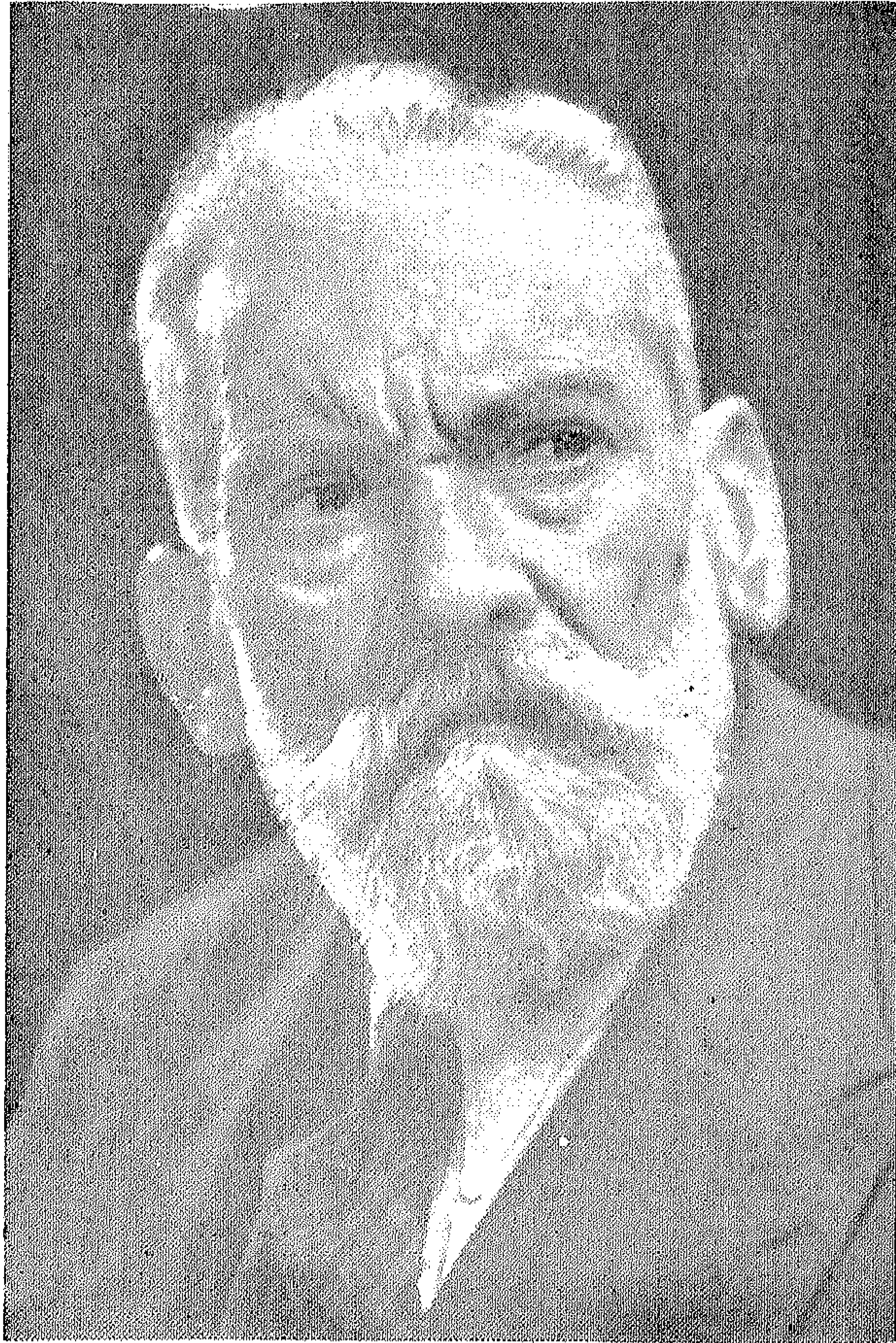


حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك « فؤاد الاول »

فكمْ شرٍّ حَسَمْتَ وكم بلاءٍ وكنا لا نرى لهما انحساما

(انظر ص ٢٥١)

ورفعنا فى الضحايا ذكره   وأذعنا يومه فى الآخرين



الدكتور محجوب ثابت

هذه صورة ناطقة ، كما رأيته وسمعته متحدثاً ، متحمساً ، غاضباً ، منتقداً ، متألماً ، مفكراً ، ثائراً ، كاتباً ، خطيباً .

« تصوير ستوديو فيكتور سليمان »   المؤلف



المؤلف

الجزء الأول

كلمة صديق :

تقديم



للأستاذ العلامة محمد كرد علي بك (1)

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق
ووزير معارف سوريا الأسبق
وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

◆◆◆◆

كان الدكتور « محجوب ثابت » صورة فريدة من صور الرجال بعلمه وبيانه وعمله ووطنيته ، فطر على صفات نادرة سيرته في مراحل عمره سيراً حفل معه بالطيبات ، واتجهت قواه منذ صباه لخدمة المصلحة العامة ، وعمل على هينته في تواضع خال من التمجد والتبجح . وما طلب

(1) عاش الأستاذ العلامة « محمد كرد علي بك » في مصر أعواماً طوالا بعد أن تعرضت حياته للخطر في سوريا لحرية رأيه ومقاومته ظلم الأتراك ، ومحاربتهم للغة العربية بواسطة الجهلاء من الحكام ، فوفد إلى مصر . ومارس فيها الصحافة ، فكتب في المؤيد ، وفي الظاهر ، وفي المقطم ، داعياً إلى الوطنية والكرامة .

ولما زال الحكم المطلق عن سوريا واعلن الدستور العثماني عاد إليها وخدمها أجل الخدمات علمياً وأدبياً وقد عرف له هذا المغفور له الملك « فؤاد الأول » فأمر وزير المعارف العلامة محمد حلمي عيسى باشا بأن يضمه إلى أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية وقال الملك فؤاد له : « إني أعتبرك سوري المولد ، مصري الوطنية . أكثر الله من أمثالك » . المؤلف

العوض والمكافأة عما أجهد نفسه فيه ، ذلك أنه كان متشبعاً بروح النهوض ، يعرف كيف يرضى ضميره بأداء فرض لا بد من قضائه. كان مثال العامل الصالح فى شيخوخته على نحو ما كان زمان كهولته وفتوته . وهذا مما يندر فى رجالنا ، ومن قانونهم أن ينتج أحدهم ما دام فى حاجة إلى الإنتاج ، ويخفت صوته ، وتبطل حركته ، بعد سن الخمسين ، إذا فاز بنصيب من العلم أو المال ، أو أحرز جاهاً وحظوة وشهرة . فهم يبقون على الأغلب حيث يتراءى لهم أن يبقوا ، لا حيث يجب عليهم أن ينتهوا ، وبخاصة إذا وهموا أن حياتهم آمنة من العوز فى الوظائف والاستخدام .

قلَّ أن رأيت من أهل صناعة هذا الفقيد العظيم من هضم علمه مثله ، أو جمع إلى علمه معارف تمثّلها ، وهى ليست بحسب الظاهر من اختصاصه ، أو شارك فى مسائل كثيرة مشاركة المستقصى الحصيف لا مشاركة المُتَنَفِّة . ولو قد كُتب له أن يُعنَى بالتدوين لكانت مدوناته من أجل الكتب العلمية ، يتعلم منها من يحب أن يتعلم ، ويتفكه بها من ينزع إلى أن يتفكه[1].

كنتَ تراه إذا جد الجد نسى كل مصلحة خاصة ، فتمثل لك شخصاً لا يحسن غير فنه ، وإذا هزل ظننته رجلا شغل حياته فى الضحك والإضحاك ، لا يحفل مصطلحات الناس واعتباراتهم ، ولا يبالى بالوقت يصرفه فى غير فائدة .

---

(1) لو جمع أحمد ما دبجه يراع الدكتور محجوب فى الوطنية لكان مجلداً ضخما . المؤلف

كان على حظ عظيم من عزة النفس ، وعلى جانب من جمال العهد ، وفياً إلى أقصى حدود الوفاء . وفياً لوطنه يسهل عليه بذل كل نفيس ليحقق له بعض سعادته ، وفياً لعلمه ، يزيد أبداً فى معلوماته وتجاربه ، ظل على ذلك إلى آخر أيامه . وفياً لمرضاه يُعنَى بصحتهم وتخفيف آلامهم عنايته بكل مطلب من مطالب أمته . وفياً لأصحابه لا يدخر جهداً فى مرضاتهم ، وإدخال السرور على قلوبهم ، ولو قدر له أن يبذل فى خصوصياته بعض ما بذل فى خدمة الجماعة لَعُدَّ فى الموسرين ، ولو كان يُسف إلى استثمار كل شيء لحسابه لكان من السمو والبسوق فى الذروة العليا بين رجال الدولة . ولكنه ما خلق إلا ليخدم المجموع على ما توحى إليه به قريحته ، ولم يخلق ليخدم مصلحته ويتفانى فى جلب المنافع لها . فهو رجل القوم لا رجل فى القوم . هو لقومه حساً ومعنى.

يُرَد تاريخ صلتى به إلى أزيد من عشرين سنة . وكانت علاقتنا فى غضونها أوثق من علاقة صديق بصديقه ، تمازجت روحانا ، وقضينا فى القاهرة أياماً وليالى كانت حلوة لذيذة ، زانها ثلة من الأصحاب هم حلية الزمان ، وبلابل مجالس الإخوان . ثم فرق الدهر بيننا وبين بعضهم ، ومنهم الأحمدان العظيمان : أحمد زكى باشا ، وأحمد شوقى بك ، عليهما الرحمة .

وصرفت مع صديق فى دمشق أشهراً أيضاً وكان قد اعتصم بها فى محنة سياسية (١) وقع فيها ، فشاهدته واحداً فى نعمته وفى محنته ، يتجلد

(١) كان الدكتور محجوب قد ضاق ذرعاً من تفكك الكلمة بعد التضامن ، ومن العيون المبثوثة حوله فرحل إلى الشام فى أواخر سنة ١٩٢٤ . المؤلف

ولا يتضعضع ، قوى الثقة بالله ، لا يشك بحسن عاقبة المخلص الصادق .

وكان من الرعيل الذى لا يتكل على غير نفسه ، ولا يطلب معونة حتى ممن يوالونه ويعجبون به ، يستعذب كل عناء إذا عاد ولو بفائدة ضئيلة على بلده ومواطنيه .

دعا إلى السودان ، وحببه إلى كل مصرى ، وعرّف أهل القاصية والدانية مكانة السودان من وادى النيل ، حتى لقد كان يظن من لايعرف ترجمته أنه كان من صميم السودانيين ، مأخوذاً بسودانيته ، متيماً بحب أرضها وساكنيها .

والجميل فى حياته أنه كان بعيداً عن التصنع ، يرسل النفس على سجيتها . وقد رزق بديهة مؤاتية ، ولساناً مطواعاً ، وما أُحَيْلاَهُ إذا خطب باللغتين ، وما أطرب حديثه ، راضياً كان أو غاضبا .

رأيته مع ناخبيه من عامة « مينا البصل » يعلمهم كما يعلم الأب أولاده ، ويرشدهم إلى معان جميلة فى الحياة لو هُدوا إلى تحقيقها لارتفع مستواهم . وشاهدته مع النوبيين يدربهم ويلقنهم ما يفيدهم فى بيئتهم . وحضرته فى مجالس العظماء والأدباء يفيض من حكمته ويلعب بالعقول فى محاوراته ومسامراته .

وكان عقله أوسع من أن يحصره فى حدود مصر ، فقام فى ذهنه أن من المروءة أن يصرف جانباً من جهوده فى أهل الإسلام والعرب والترك منهم خاصة . ويقول أبداً : « من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » .

كان أديباً بكل معانى الأدب من منازع شريفة ، ما سمعته يطعن

على أحد وقد آذوْه غير قلائل . أما هو فقد علمه نبل شيمته أن يصفح الصفح الجميل ، ويقيم من نفسه الأعذار لأرباب الشذوذ والنشوز ، لا يبادر إلى تخطئة المخطىء إلا إذا نفد صبره ورآه قد عبث بمصلحة عامة . وكل ذلك من دون إقذاع وتحامل . يُقدِّر الجرم بقدره ، فهو طبيب شرعى حقاً وصدقاً .

وكان إلى التفاؤل أميل منه إلى التشاؤم ، يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور ، ويصمد للحوادث فى أحرج ساعاته . لا يتأفف ولا يسخط مهما ألحت عليه الأوجاع . ويحمد الله على ما ابتلاه وأنقذه مما تُجنّه الطبيعة من آلام هى أشد مما وقع فيه .

وكأن نفسه كانت مؤلفة من عدة شخصيات ، ومن كثير من الاختصاصات . تفوّق فى صناعته إلى أسمى درجة . وطبه طب العالِم لا طب المتطبب . وكذلك هو فى الأدب ، وكذلك هو فى الخطابة والسياسة . وما أحصى عليه أنه اتجر بشىء مما علم وفهم . وما اتخذ من علمه سلماً إلى الظهور . وما جوّد فى طبه وغير طبه إلا لأن طبيعته تحب التوسع فى بحث الأشياء والوصول إلى غوامض ما عالجها كثير مثله . وهو إلى ذلك يعلو عن المادة خلافاً لأكثر معاصريه .

وعطفه على الفقير ، وعطفه على الأعِلّة وأصحاب العاهات ، وعطفه على الناشئة وعنايته بمستقبلهم واستقلالهم ، وعطفه على وطنه وتصديه لتهيئته له بعض ما يحفظ عليه صحته ، كل أولئك كان فيه لايجارى ولا يمارى .

نعم هو مثال نابغة ، لا يلهيه عن تحقيق أمانيه عائق ، ولا يدهشه تعقد المشاكل ، ولا يهنـأه العيش إلا إذا تم له الممكن لإنجاز ما شغل قلبه .

سار فى ناحية عيّنها لنفسه، ولم يجر فى خططها على مثال سابق، فامتاز بلون خاص من ألوان الحكمة والأدب وحب الخير. وكان رضى النفس قوى الإيمان. وإذا لم يوافق بعضهم على حركته ففى العادة ألا يُعرف الحق عن المصلحين إلا يوم رحيلهم من هذه الفانية إلى غير رجعة. ولو جاء أخى محجوب فى أمة تقدر الرجال أكثر مما نقدرهم لكان له فينا شأن غير شأنه، ولانتفع ببعض ما أسداه من جميل إلى أمته، ولعظمت الفائدة العامة منه إلى أقصى حدود الانتفاع. رحمه الله.

* * *

هذا ما عرفته من سيرة الحبيب محجوب ثابت. وقد اغتبطت أن رأيت صديقه وصديقى الوفى الأستاذ «صالح على عيسى السودانى» يتصدى للترجمة له، فيأتى بمعلومات طريفة عنه. وفى إيراده مثل هذه الأخبار عن رجل كبير أداء واجب لا يُحسن القيام به إلا من اختلطوا بالراحل الغالى الكريم عن كثب، وعرفوه معرفة ثاقبة.

أفرغ سيرته فى قالب قصة أبدع حبكها، وما فاتته الدلالة على مواضع العبرة فيها. وهل الحياة إلا قصة عجيبة فيها ضحك وبكاء وسعادة وشقاء؟ توسع فى تحليل روح صاحبه توسعاً جميلا، قاصداً ألا يغفل عن تدوين ما يفيد فى تاريخ الحركة الوطنية. فجلى حقيقته للأعين بما أفاض فى الذى أهمه من صفاته.

جرت عادة المتأخرين أن يكتفوا ـ إذا حاولوا الترجمة ـ بالمشهورين بذكر حسناتهم، أما المؤلف فقد دوّن من ترجمة صاحبه ما لمس منه

مواضع العجب ، واستطرد لأمور ذكرها عن قصد ، وكان أميناً فيما ذكره عنه على إجلاله له وحبه . وعسى أن يكون ما كتب درس مفيد لناشئتنا ولكل من يهمه الاطلاع على سياسة هذه الحقبة القصيرة فى مصر .

ليست عظمة الرجال بما يخلفون من مال وبنين ، بل هى تتوقف على أمور أخرى ، كان قسط محجوب المحبوب جزيلا منها ، ومن أهمها خلقه الطيب ، وتفانيه فى تحقيق أمانىّ قومه .

لا جرم أن مصر فقدت فيه ابناً باراً ، وخادماً أميناً ، وعلماً من أعلام الوطنية ، وعالماً من النمط العالى ؟

« غوطة دمشق — جسرين » محمد كرد على



مؤرخ الثورة ومعاصرها وقاموسها

بقلم المحامي المعروف

الأستاذ نبيل النجار

... ولعلى — فى حيرة كحيرتك أيها القارىء الكريم فلست أدرى أيهما أحق بهذا اللقب ، أهو محجوب ثابت ، الصارخ فى قلوب الشباب ، الضارب على أوتار الحس . . . أم هو صالح السودانى ، المشتعل بالثورة ، المؤجج لنيرانها ، المؤرخ لرجالها . . . غير أن فيهما وحدة جمعتهما ردحاً من الزمن وما كان لهذا أن يفصل بين روحين تماثلتا لولا الردى مفرق الأحياء ...

ويلوح لى أن تلك الوحدة هى الرجولة الجامحة لمسناها فى فقيد الوطن الدكتور محجوب ثابت ، يوم كنا طلاباً فى الجامعة ، وكان يزورنا هذا الشيخ الوقور فيتناسى وقاره وينزل إلى شبابنا الغض ليقوده سريعاً إلى مراتب الرجولة . . . ولكم أحببناه إذ ذاك ، وتمثلناه بعد ذاك . أما صالح السودانى ذلك الصديق العزيز ، فقد عرفناه فى ظروف تدعو إلى التشاحن والبغضاء . . . ولكننا تحابينا وخرجنا بصداقة تسمو على الزمن وتعلو على الحزبية وتتمشى مع الوطنية الحقيقية لا الوطنية المزيفة المتاجرة ! . .

* * *

كان ذلك فى عام ١٩٤٢ فى دار بغيضة ذات سور وقضبان ، وحراس بالحديد والنار . . . بقعة سوداء أريد لها أن تـكون سجناً للأحرار فاذا بها معمل لتفريخ الرجولة وبوتقة لصهر أرواح الأبطال . . . كان هذا فى معتقل الزيتون . . .

الوقت مساء . . . وقد سرى خبر عجيب أن صحفياً كبيراً سينزل ضيفاً علينا . . وبدأنا نستعد فان أى نزيل جديد يزيد شعورنا أن البطولة لم تمت فى الخارج بعد . فقد جاء يدلف إلى معتقلنا زميل أحمد ماهر والنقراشى وابراهيم عبد الهادى فى سجن مصر — ونزيل التخشيبة ومحال البوليس فى فجر الحركة الوطنية .

دخل صالح السودانى مريضاً ومحطما . . . وقبل أن يستقر استطاع أن يلمح مخازٍ ، كان الـكل يغض الطرف عنها . . . كانت أدوية المعتقل يستولى عليها نفر محظوظ من نازليه ، ثم يبيعونها بالثمن لباقى النزلاء ، وفى الخارج . . ولم يكن أحد يستطيع أن يقف فى وجه السارقين الغاصبين فقد كانوا كثرة جمة . . وكانوا سفلة من القوم أتت بهم أيدى الظالمين ليـكونوا جواسيس حتى فى داخل أسوارنا علينا . . .

وكان بعض الشباب منا يثورون ولـكن سرعان ما تخمد العسكر ثورتنا إطاعة لأوامر عصابة اللصوص . . . وأخيراً ، وما كان أشد عجبنا حين بدأ الأستاذ صالح السودانى ثورته العنيفة ضدهم . . .

كانت مخاطرة كبرى منه ، فقد أضحت حياته معرضة للخطر . ولن ننسى هذا المنظر ماحيينا حين خرج لهم يوماً بسكين تحت إبطه وحين صرخ فى وجه مفتش المعتقلات قائلا : « إذا كنت لاتستطيع أو

لاتريد أن تمنع المجرمين عن إجرامهم ، فسأعرف أنا كيف أمنعهم » . .

كانت رجولة جامحة ، لم نستطع حيالها أن نمنع أنفسنا عن الإعجاب به والانضمام إليه . مما حمل كثيراً من الشباب المعتقلين على السير خلفه كما يسير الجند خلف القائد المقدام والربان الماهر القاهر . .

وسار النضال مسراه . . شخصان أو ثلاثةقبالة ثلاثة وعشرين بلطجياً ومن ورائهم عشرون من انصاف الرجال يتبعونهم عن خوف وتماق . . كان العالم فى الخارج فى حرب ، ونحن أيضاً فى حرب . . ولكن العجب العجاب أن تنتهى حربنا باندحار خصومنا ، وينتصر صالح السودانى انتصاراً ساحقاً ماحقاً . . .

وهكذا انتصرت رجولة صالح فى أول معركة من معاركه الكثيرة ! وضد مَنْ ؟ ضد مَنْ اعتقلوا بيد الظلم اعتقالا صوريا . ليكون رهط منهم أداة لإذلال النبلاء ، وشرذمة منهم لكتابة التقارير السرية . فاذا بصالحنا يكشفهم ، ثم يفضحهم ، وإذا به يقف أمامهم كالطود الشامخ .

وهكذا كان أول انعكاس لانتصار صالح بل لمجيئه أننا بدأنا نحترم أنفسنا فقد كنا بدأنا نحس بتفاهتنا حين رأينا سفلة القوم الذين دُسوا بيننا ، فلما جاء صالح آمنا أن المعتقل رغم مافيه ، هوسجن الرجولة الحقة . . ولا أخفى أننا كنا بدأنا نرضى بظلمة السجن ، فقد كان صالح قبساً من النور جاء يضيء جنباته الموحشة .

ثم تأتى المعركة الثانية والأهم حين يستطيع صالح أن يحمل الابن على الثورة على أبيه إذا أجرم . . .

كان كالأديب العبقرى حين تقرأ له فتحس دافعاً يدفعك أن تنشىء أدباً . . .

كان جل رجال حزب ناشىء سجناء المعتقل إذ ذاك ، وكنت أحدهم . . . كنت قد دخلته مختاراً لإيمانى الجارف بما كان يدعو إليه رئيسه العظيم من مبادىء النزاهة والشرف ، فكان لا بد من أن يكون ذلك شعارنا فى داخل المعتقل . . .

وكان هنالك شخص من بيننا ، كان إذ ذاك عضو مجلس نواب مشاوح ، كنا ننظر إليه على أنه ممثل لزعيمنا العظيم وكنا نقتضيه التمثل بمبادئه . . . ولكننا عجبنا إذ رأينا العجب . . كان هذا الشخص وهو فى التاسعة والعشرين من عمره لا تزال فيه طبيعة الطفل . . بل طبيعة العانس فى هذا السن الذى تريد فيه أن تتبرج لتجذب رجلا . . . ينزل إلينا فى سروال قصير أقصر القصر ، وقميص نصف كم ، ويمشى يختال فى ميوعة مرذولة يلقى البسمات فى حركات مخزية . . . ولكن كل هذا كان يجوز أن يمر لولا تصرفاته المشينة . . . كان حزب اللصوص يتابع لصوصيته التى بلغت إلى حد فتح حقائبنا وسرقة ما فيها فإذا ما ضبطنا أحدهم أنكر السرقة وادعى أنه كان يبحث عن مستندات تؤيد أو تنفى إخلاصنا لزعامتهم الفتية ! . فكنا ننتظر من هذا الشاب الذى أرادت له الظروف أن يمثل رجلا مجاهداً يحترمه الجميع ويتمثله الجميع ، كنا ننتظر منه أن يساعد المعتقلين للانتصار لأمنهم ضد اللصوص . . . ولكنه بالعكس كان يتملقهم ثم يناصرهم . . يريد أن ينزل فى وسطهم يحفون به كالغادة تسير وسط صف من

مريديها فاذا به يشجعهم ويأمرنا أن نناصرهم أو نسكت . . .

ولهذا حوادث كثيرة لاداعى لذكرها . وإنما تكفى هذه الحادثة حين أردنا أن نحتفل بعيد جلوس جلالة الملك ودفعنا تكاليف الاحتفال من جيوبنا الشبه خاوية ، ولكن رئيس العصابة يرفع علمها فوق الاحتفال . . وثرت وقلت أنه لا بد من رفع علم الدولة فوق رؤوسنا . . وهنا وياللعجب ! انتصر ذلك المائع لعلم اللصوص على علم الدولة . . إذا بصالح المريض يجىء ثائراً يحرضنا على الثورة ناسياً مرضه . . ناسياً آلامه من أجل كرامة مصريته . .

وهكذا كان لا بد أن أخرج على إرشادات هذا الشخص بتشجيع صالح . . وقلت : إنه إذا كان زعيمه يناصره علىّ ، فليذهب هو وزعيمه ، ولتبق مبادئى . .

وفعلا حاربته مع صالح ، وانتصرنا عليه ، وحين ضيقوا الخناق لم أجد مناصاً من التضحية بحزبى بل بتضحيتى ، فقدمت استقالتى وفضلت الخروج إلى الحياة رجلا حراً لا أحمل أوزار غيرى ! . .

وأعترف أن كل هذا كان انعكاساً مباشراً من مواقف صالح وهو انعكاس إن أفقدنى كل المغانم فقد أكسبنى كل المفاخر وأكسبنى شعورى برجولتى وحب إخوانى لى وهذا غاية ما يطمع فيه الرجل الكريم . لقد كان صالح داخلا المعتقل داعية الحق والخلق ، كما قيل إنه نودى بهذا اللقب يوماً على لسان المجاهد الكبير مكرم عبيد باشا .

* * *

ولكن كل ما مضى لا شىء إلا ما سيأتى .

صالح السوداني ووحدة الأمة . . : « الدين لله ، والوطن للجميع . . . الأقباط لا يقلون وطنية عن المسلمين إذا كنا نرجع فى الأصل إلى العرب ، فالأقباط إخوال لنا ، وإن افتخرنا بانتسابنا إلى الفراعنة فهم أبناء الفراعنة ، تلك كانت صرخات صالح السوداني ودعوته » .

بهذا كان يجبه صالح السوداني أفراد العصابة حين نزلت لمهاجمة الأقباط فى المعتقل . . . كانت تتمشدق بالدين بينما الخمور الغالية يشربونها كالماء فى معسكرهم . . . .

وكان هذا أسمى مواقف صالح السوداني بلا شك ، فليس ثمة شيء أحقر من أن نحكم على قيمة شخص من خلال دين آبائه . . وليس ثمة شيء أدى إلى تأخر الشرق من انسياقه وراء المهرجين باسم الدين .

* * *

كانت تلك حياة صالح معنا فى أيام الاعتقال ، بطولة منقطعة النظير . فلا غرو إذا ما حيا الأبطال بعد مماتهم ، والدكتور محجوب فى مقدمتهم .

وبعد ، فلست أدرى عما فى الكتاب ، وإنما قرأت منه فصولا غير أنى قلت لنفسى أن لصالح ديْناً كبيراً فى أعناقنا نحن عشاق الحرية . . فقد كان بطلها بيننا ، والمدافع عن المضطهدين وهو معتقل . أما بعد خروجه من المعتقل فقد أحرج الحكومة فىسبيل الدفاع عنا وقد انتصر .

ولعلى قد نقلت إلى القارىء بعض ما لمست ورأيت ، إنما قيمة صالح لن يعرفها غير من عاشره كما عاشرناه ، لأنه سيحسها فى دمائه وتصرفات حياته . . رجولة توحى بالرجولة ؟

نبيل النجار
المحامى

محجوب ثابت

بقلم الاستاذ صالح البهنساوى

ظل هذا الاسم طيلة الثلاثين سنة الأخيرة يملأ الصحف ويملأ المجالس ، وقبل ذلك كان يعمل الجهاد ، فالتحق بخدمة الهلال الأحمر فى حرب البلقان وعمل كأستاذ مساعد فى جامعة بروكسل ، وكان وطنياً مخلصاً ومجاهداً فى الصفوف الأولى بخطبه ومقالاته ، فشرد ونفى من قصر النيل إلى المحاريق .

كان الكل يسعى إلى مجلسه ويبحثون عن مكانه ، لأنه كان دائب المرح ، حلو الحديث ، فياضاً فى معلوماته . كان أول من نادى بوحدة وادى النيل . اصطفاه سعد زغلول وقربه إليه ، وكان محبباً عنده لأنه أخلص فى العمل معه .

ثم أراد أن يخدم بلده عن طريق نيابته عن الأمة فى البرلمان ولم يكتف بخدمته لها بطبه وعلمه فكان مبرزاً بين نواب الأمة .

ثم فكر أخيراً فى التدريب العسكرى للطلبة فنجح فى بث الروح العسكرية بينهم .

ولكن صحته لم تعد تحتمل ، فأصيب بمرض ، وكان يعوده صديقه الدكتور سليمان عزمى باشا ، وفى اليوم الذى لفظ فيه النفس الأخير كان يناقشه ، ولكن عزمى باشا قال له : « يامحجوب أنت الآن مريضاً ولست طبيبا » .

وقال قبل وفاته بساعتين : « أعتقد أنني سأنتهي » فانتهى ، لأنه كان مؤمناً بالله إيماناً شديداً .

شيعناه إلى مقره الأخير وكان حوله أوفياؤه وخلصاؤه وعلى رأسهم محمود فهمي النقراشي باشا الذي عمل كثيراً لتكريم محجوب في مماته كما كرمه في حياته بأن وافق على أن تقرر له مكافأة عدا المعاش تبلغان مائة جنيه ولم يقبض هذا المرتب الجديد لأن أجله قد جاء .

ثم يوفد النقراشي باشا أحمد النشوقاتي بك والأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي إلى دار الفقيد لإبلاغ شقيقته العجوز أن تعتبر أن محجوباً لم يمت وأن النقراشي حل محله ويبغي بذلك أن يجعل دار محجوب مفتوحة لا محجوبة .

ثم يصدر النقراشي أمراً بالمحافظة على مكتبته التي حوت نفائس التأليف وقرائح المؤلفين من أجانب ومصريين لكي ينتفع بها تلاميذه من بعده . إن في مصر أوفياء . وها هو النقراشي باشا يضرب المثل الأعلى في الوفاء لصديقه الحبيب محجوب الذي عرفه منذ أربعين سنة وأخلص كلاهما لصديقه .

رحم الله محجوباً وأعز مصر بأبنائها الأوفياء .

* * *

فإلى صديقي الأستاذ صالح السوداني تهنئتي الخالصة ، وتقديري لمجهوده على وضعه هذا الكتاب .

صالح البهنساوي

مقدمة المؤلف

إن كتاب « الأسرار السياسية لأبطال الثورة المصرية ، وآراء الدكتور محجوب ثابت » لهو فى الحقيقة تاريخ حافل لثورة سنة ١٩١٩ ، ولجهاد محجوب دروساً وطنية . وإنه فى الواقع قليل من كثير ، وقطرات من بحر خضم ، من سيرة ومبادىء وجهاد ذلك الرجل العظيم الذى ملأ ساحة الجهاد الوطنى دوياً لايزال صداه يطن فى الآذان ، بل هو سجل لمفاخر أبطال الحركة الوطنية . أردته إنصافاً لمن ساهم معهم محجوب وساهموا معه ، جاءت لكل منهم ذكراه وأعماله فى مناسباته الزمنية تمشياً مع سياق الحديث والحوادث .

ولما كان محجوب متعدد النواحى ، متنوع الشخصيات ، كنت أراه النطاسى الطبيب ، والكاتب الأديب ، والخطيب الأريب ، والسياسى البعيد النظر ، الثاقب الفكر ، والعالم العبقرىّ . فقد حرصت على أن أدوّن كل ما سمعت منه عن أمم ، وكل ما شاهدت عن كثب . وإنه لعصارة الذهن ، ثم إنه الوفاء ، وضعته كتاباً مسطوراً وحديثاً منشوراً وقدوة ونبراساً .

وإنى إذ أذكر بعض ما أعرفه من جهاد « محجوب والأسرار السياسية » أجدنى مغشىّ البصر ، موجع القلب ، منفطر الفؤاد ، محزون النفس . . ومع أننى كنت بين عزة النفس والترفع بها عن ذل

الحاجة ، فى أثناء وضع هذا الكتاب كنت مستريح الضمير ومن ثم ألفيتنى أحس كأنى قد فصدت عرق الوتين ، واتخذت من دمه مداداً لليراع .

* * *

وإنى لموقن بأنى قد صورت محجوباً المحبوب ، المجاهد ، المصلح ، تصويراً واضحاً صادقاً ، ثم حللت شخصيته تحليلا قد جاء موفقا .

ولقد جعلت جلال التاريخ فيه رائدى ، وجمال الحق مرشدى ، ونور الإنصاف خطتى وقائدى ، ووضعت روعة الصدق نصب عينى . . على أنى قد جافيت كل دعابة نُسبت إلى محجوب ظلماً واختلاقا ، وجانبت كل نادرة أو تندر ألصقت به إفكا وزوراً .

* * *

وكتاب « الأسرار السياسية لأبطال الثورة المصرية ، وآراء الدكتور محجوب ثابت » هو تاريخ رجل جاهد فى سبيل أمته ، وفادى من أجلها فى جميع مراحل حياته ، فى شَبابه ، وزمن فتوته ، وإبّان رجولته ، وفى عهد كهولته . وظل يجاهد فى الداخل وفى الخارج ، حتى فى شيخوخته . وظلم فى حياته ، فكان شهيداً يمشى على قدميه قبل وفاته ، فأمسى شهيداً من الشهداء الأبرار بعد مماته .

* * *

فمحجوب ثابت قمين بأن يكون تاريخه للمصرى قدوة به يقتدى ، وسيرته جديرة بها أن يهتدى ، وجهاده الطويل حرىّ بأن يُنسجَ على منواله ، ثم هو تاريخ حقبة مرت على مصر .

على أنى غير مبالغ إذا قلت : إنى أرخت الدكتور محجوب ثابت

مبيناً مزاياه ، موضحاً إياه . وكذلك أبطال الثورة المصرية . وفى الكتاب تصوير للوعى القومى وإلى اليقظة الوطنية ، وإرهاف الشعور ، ونكران الذات في سبيل المصلحة العامة ، وتغليب كل ذلك على الغرض الشخصى ، والهوى النفسى ، كما كان يرى محجوب والبطل عبد الرحمن فهمى والمجاهد أمين الرافعى وبقية الأبطال .

ولقد دوّنت ما أعتقد أننى أزلت به الغبار عن ذكرى محجوب ، وتاريخه ، وتاريخ الجهاد الوطنى الذى رافق حياته وأيامه معا .

* * *

اللهم قد بلغت . . .

اللهم قد أديت الأمانة . . .

اللهم فاشهد . . .

صالح على عيسى السودانى



جاءنا من بعض أصدقائنا الأوفياء كلمات خاصة تقريظاً لهذا الكتاب ، بعد ما انتهينا من طبع الفهرس الخاص به ، فنشرنا منها القدر الضئيل . لذلك نلفت نظر حضرات القراء

المؤلف

الدكتور محجوب ثابت
المجاهد الوطني

مبيناً مزاياه ، موضحاً إياه . وكذلك أبطال الثورة المصرية . وفى الكتاب تصوير للوعى القومى وإلى اليقظة الوطنية ، وإرهاف الشعور ، ونكران الذات فى سبيل المصلحة العامة ، وتغليب كل ذلك على الغرض الشخصى ، والهوى النفسى ، كما كان يرى محجوب والبطل عبد الرحمن فهمى والمجاهد أمين الرافعى وبقية الأبطال .

ولقد دوّنت ما أعتقد أننى أزلت به الغبار عن ذكرى محجوب ، وتاريخه ، وتاريخ الجهاد الوطنى الذى رافق حياته وأيامه معا .

* * *

اللهم قد بلغت . . .

اللهم قد أديت الأمانة . . .

اللهم فاشهد . . .

صالح على عيسى السودانى



جاءنا من بعض أصدقائنا الأوفياء كلمات خاصة تقريظاً لهذا الكتاب ، بعد ما انتهينا من طبع الفهرس الخاص به ، فنشرنا منها القدر الضئيل . لذلك نلفت نظر حضرات القراء

المؤلف

الدكتور محجوب ثابت

المجاهد الوطني

تمهيد

محجوب ثابت

المجاهد الوطني

كان العلامة الدكتور « محجوب ثابت » فقيد الوطن والعلم ، كوكباً في سماء الوطنية ثم هوى ، ونجماً أضاء في الوجود ثم خبا ، وشمساً أشرقت في آفاق النيل ثم غربت .

كان في عالم الطب نطاسياً ، بل بحراً خضما . وفي علم النفس قطباً . وفي السياسة من أساطينها . وفي علم التاريخ حبراً وعميداً . ويمتاز فوق هذا كله ، بأنه في تاريخ مصر وسودانها كان عالماً ومرجعاً ، ثم كان حجة في اللغة والأدب العربي .

ولقد كان الأستاذ الدكتور « محجوب » الفيلسوف في الأطباء ، والعالم في الأدباء ، والمِدْرَه في الخطباء ، المالك لقياد الكلام ، والحافظ الباقعة بين الحفاظ .

وكان البعيد النظر ، الثاقب الفكر ، الحكيم الرأى ، الواسع الدراية ، الوافر الرواية في كل فنٍّ وعلم ، وفي كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية .

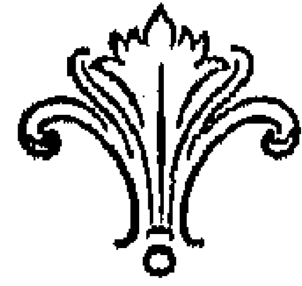
على أن اشتغاله بالسياسة لم يكن إلا لوجه الله والوطن لم يبغ من وراء ذلك جزاء من منصب أو جاه . ولا مغنما من مال أو ثراء . عفة كان محسوداً عليها محسوبة له في الفضائل عند المنصفين . ولطالما كان يتمثل بقول المتنبي :

ماذا لقيت من الدنيـا ، وأعجبه إنى بمـا أنا شاك منه محسود

كان الدكتور « محجوب » سلطان المجالس فى مجال السمر . كان سمره علماً وتوجيهاً ، وتندره تعليما وتنبيهاً ، وأحاديثه محاضرات ومعلومات قيمة ، وكلامه فقهاً ، ومنطقه سليما قوياً ، وبيانه سحراً حلالا . . . كان « نسيج وحده » .

ولا جدال فى أن « محجوباً » كان من الشخصيات البارزة الواضحة ، مستقيم الضمير ، عف اليد ، سليم النية ، جميل الطوية ، شريف القصد ، بأجلى وأجمل ما فى هذه السجايا والشمائل من معان ومدلولات .

كان له طابعه الخاص . وكان فريد مصره ، ووحيد جيله وعصره . فهو شخصية فذة قد لا تتكرر ، وقد لا تعوض . وقد يضن الزمن بمثله .



الدكتور محجوب ثابت

صور من أخلاقه

كان يجمع بين سعة الصدر وسرعة الغضب . يغضب إذا مست كرامته . ولكنه كان سريع الرضى فيما عدا الكرامة ، وأقل اعتذار ممن أساء إليه يرضيه ويزيل ما كدر نفسه وأثار غضبته . كان فريداً فى تسامحه وتناسيه للإساءة ، بل فى التماس شتى الأعذار لمسيئيه — ولا سيما الكتّاب وأصحاب الصحف والمجلات ، الذين كانوا يحملون عليه بإيحاء من بعض رجال السياسة — فقد كان من هذه الناحية فى القليل ناراً ، أما إذا تمادى الكتّاب فى الحملة عليه متجنين ، فسرعان ما كان يستحيل إلى عاصفة هوجاء . فاذا ما اعتذروا إليه « بأنهم إذا لم يتناولوه فى صحفهم فإن الزعماء يقطعون معاونتهم المادية عنهم ، وهذا يؤثر فى دخلهم ، وأنهم يحملون عليه بحكم الاضطرار ، يقدمون على المكروه منهم والأسف يحز فى نفوسهم ، وأنهم يعلمون مدى وطنيته الصادقة ومبلغ إخلاصه وتضحياته وغيرته التى لا يرقى الشك إليها[1] » غفر وصفح .

(١) أوحى أحد الساسة ـ من قبيل الدعابة ـ إلى محرر بمجلة « الاثنين » برواية مختلقة ملخصها أن الدكتور محجوب ثابت ـ على إثر مقتل السردار سنة ١٩٢٤ ـ فى نوفمبر ـ خاف القبض عليه ، فسارع بالهرب إلى الشام « لينفذ بجلده » وأنه لم يرجع إلى مصر إلا بعد أن انتهت القضية واطمأن على نفسه ... فنشرت مجلة « الاثنين » هذه الرواية . وما أن اطلع عليها الدكتور

كان محجوب الرجل فى هذه الناحية من أخلاقه فى الغالب الأعم نوراً ، وفى الكثير ابتسامة مضيئة على ثغر مصر . وظل كذلك حتى آن يوم رحيله إلى لقاء ربه راضياً مرضياً عنه .

كانت تغلب على شخصية الدكتور محجوب أخلاق الصوفيين آنا ، وتتجلى فيه نفسية الزهاد آنات ، وكذلك كان يجمع بين العلم والحلم والتواضع : تواضع العلماء ، وحلم الفلاسفة .

محجوب حتى ثارت ثائرته لما احتوت من كذب واختلاق وتحريف للوقائع والحقائق . وفى الحال كتب إلى الأستاذ « شكرى زيدان » أحد صاحبي الاثنين بما يرد به على هذا الاختلاق ... لأنه عندما وقعت حادثة السردار فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ كان الدكتور محجوب من قبلها ببضعة أشهر متغيباً فى الشام غيبة طبيعية ، ولم تكن الحادثة قد وقعت . فيكون ادعاء سفره بعد مقتل السردار إنما هو محض افتراء وقع فيه كاتب المقال ونشرته « الاثنين » تحت مسئولية ذلك المحرر الدخيل على الصحافة .

فلما تلقى الأستاذ شكرى زيدان رد الدكتور محجوب كان عليه أن ينشره بنصه الكامل . وكان رداً شديداً مفحماً . ولكن الأستاذ شكرى وقف محرر المقال موقفاً حرجاً إذ خيره بين أمرين : إما نشر « مقال الرد كاملا » ويقابله فصل المحرر من العمل ، وإما الحصول على عفو الدكتور وصفحه عنه . وحينئذ يكتفى بنشر تصحيح الوقائع .

وما كان أكرم نفس الدكتور محجوب حين لجأ إليه ذلك المحرر مستعطفاً ، مستشفعاً بصديق أوضح للدكتور محجوب كيف أصبح عمل هذا الشاب وعيشه معلقين رهن صفح الدكتور وتسامحه . فنزل الدكتور محجوب عند رجاء الصديق وصفح وهو يقول : « إننا نصفح لنبقى لهم على القوت ، ولكننا نحتقر هذا الأسلوب من الانحطاط الخلقى » .

صورة من تسامحه

كان رحمه الله . إذا ضاق صدراً بتجنى الأصدقاء وأحرج «بمقالب» الأحباء ، من أمثال المغفور لهم : أحمد شوقى ، وعبد العزيز البشرى ، وعبد الحميد البنان ، ومحمد ابراهيم هلال ، ويوسف المويلحى ، وحبيبه وصديقه داود بركات ، ومحمد محمود ، وجورج طنوس الصحفى الخفيف الروح ، وحافظ ابراهيم (شاعر النيل) : من الراحلين . ومن الأحياء : أحمد النشوقاتى ، والسيد على راتب ، وابراهيم الطاهرى ، ومحمود فهمى النقراشى . . فكنت ترى الدكتور محجوب إذا عيل صبره ونفد تحمله ، يجنح إلى الانقباض عنهم إلى حين . فإذا اتصل به أحدهم أو جميعهم ، وطالبوه بترك العزلة والعدول عن الانقباض عنهم ، ورجوه أن يستأنف الاتصال بهم وقضاء السهرة معهم ، قال لهم بأسلوب الراجى المتسامح المتغاضى المتغابى : «صومعة الرجل داره ، وسميره كتابه» . . .

فإذا ألحوا عليه بالاعتذار إليه عما بدر منهم نحوه بحسن نية ، وبقصد الدعابة ، سرعان ما كان يرضى ويتلاشى كل ما كان قد علق بنفسه ، ويعود إليهم راضياً متناسياً ، مترنماً بقول معن بن أوس :

وحقك لا أدرى ـ وإنى لأوجل ـ
على أينا تعدو المنية أولُ
وإن سؤتنى يوماً صفحت إلى غد
ليعقب يوماً منك آخر مقبل

الدكتور محجوب ثابت

صورة من جهاده

عقب تشكيل الوفد المصرى سنة ١٩١٩ ، للسفر إلى مؤتمر الصلح فى « ڤرساى »(١) ، كان بطبيعة الحال فى حاجة إلى المال للإنفاق منه على نشر الدعاية لمصر ومقاومة الدعاية الإنجليزية ضد المصريين ، تلك الدعاية التى جعلت الصحفيات الأمريكيات وبعض الصحفيين يفغرون أفواههم دهشة وتعجبا حينما رأوا المصريين يرتدون الملابس كما يرتدون هم ، ويأكلون كما يأكلون ، ويمشون على أرجلهم كما يمشون .

ذلك لأن الدعاية الإنجليزية القوية ، كانت قد أثرت فيهم إلى حد الاعتقاد بأن المصريين يمشون على أرجلهم وأيديهم . وأن المصرى يقتنى فى كوخه عشرات النساء . وأن المصريين يأكلون لحوم الآدميين والهوام . وأنهم لا يستسيغون لحم الحيوان ولا خبز الحبوب ، وأن هذا كان قبل الاحتلال الإنجليزى كما كانوا يدّعون .

---

(١) بعد فك اعتقال سعد وصحبه من « مالطه » والسماح لهم بالسفر إلى أوربا ، استطاع الانجليز حمل أعضاء مؤتمر « فرساى » على إيصاد أبواب المؤتمر فى وجوههم .

قال شوقى ـ رحمه الله ـ فى هذه المناسبة :

ولو كنا نجر هناك سيفاً ... وجدنا عندهم عطفاً ولينا
سيقضى « كرزون » بالأمر عنا ... وحاجات الكنانة ما قُضينا

والعجيب المؤلم أن « السواح » الأمريكيين الذين يجيئون إلى مصر ـ وهم من الأغنياء المثقفين ـ لم يكتبوا فى صحفهم ما يدفع عنا هذا الكذب وهذه الدعاية الظالمة ، بعد أن رأوا بأعينهم شعب مصر الحديثة . كما رأوا أو شاهدوا آثار مصر القديمة وما تنطق به من عظمة وحضارة ، يوم لم تكن فى الدنيا حضارة . وما كان عند المصريين القدماء من ديانات حين لم يكن فى الدنيا دين . . .

والأعجب من ذلك . أن ماسح الأحذية المصرى والحوذى المصرى وقائد السيارة المصرى ـ ممن لا يقرأون ولا يكتبون ـ كانوا وقتئذ يعرفون عن كل بلد أروبى أو أمريكى جانباً كبيراً من حقائق تلك البلاد . ومع ذلك فإن صحافيات أمريكا وصحافييها صدقوا ما نقل إليهم بالباطل عن المصريين من أنهم لا يأكلون ولا يلبسون كما يأكل أهل أوربا وأمريكا ويلبسون . وصدقوا ما أذاعته الدعاية الأجنبية فى صور فوتوغرافية لجماعات النسوة اللواتى يركبن العربات « الكارو » خلف جنازات الموتى ، وكانت الدعاية الأجنبية تقول إنهن نسوة سائق العربة وزوجاته ، ولو بلغن العشرين ، وقالت إن سائق العربة ـ وهو الزوج فى زعمهم ـ هو مثال لأعيان مصر وأغنيائها الذين يطالبون بالاستقلال(١).

(١) مصدر هذه الرواية هو المرحوم حمد الباسل باشا ـ وقد اهتمت الصحف المصرية فى ذلك الحين بالتعليق على هذه المزاعم وتلك المفتريات . فكان لها أثرها فى نفوس المصريين من دعاية الانجليز ضدهم فى البلاد الأمريكية
وحدث فى جو هذه الموجة ـ وكان مؤلف هذا الكتاب من الثائرين لكرامة قومه وبلاده على إثر ما نشر عنها ـ أن شاهد أحد الأجانب فى شرفة فندق

كان الوفد إذن فى حاجة إلى المال ينفقه فى الدعاية للقضية المصرية وفى نفس الوقت للدفاع عن سمعة المصريين بمقاومة مزاعم الانجليز، وهدم دعايتهم الكاذبة .

ونودى فى مصر بما يرمى به المصريون فى الخارج ، وما تتطلبه قضية الوطن من بذل وتضحيات . وسرت هذه الدعوة فى البلاد مسرى الكهرباء، وانسابت انسياب النار فى الهشيم .

كانت هذه دعاية « عبد الرحمن فهمى بك » ، وكانت هذه هى رسالته . وقد كان سكرتير لجنة الوفد المركزية فى القاهرة ، وكان مصدر الوحى بل الوعى أو الانتباه القومى ، ومبعث الوجدان الوطنى والشعور الفدائى فى سبيل الوطن ، والمحرك لخاصة المصريين وعامتهم . . . عبد الرحمن فهمى الذى عاش بين الأحياء شهيداً مظلوماً . عبد الرحمن فهمى المجاهد المنكور فى الوطنيين . عبد الرحمن فهمى الذى جوزى آخر التضحية السخية جزاء سنمار[1].

«السكنتنتال» يصوب عدسة آلة التصوير إلى عربة تحمل جماعة من النسوة خلف إحدى الجنازات . فهجم المؤلف على ذلك الأجنبى وحطم آلته ، وانتهى بهما الأمر الى بوليس « عابدين » ، لأن هذا المصور كان يصوب عدسة آلته إلى العربة التى تحمل نساء العامة التى لا تخلو من أمثالهن أمه ، بينما تغاضى عن أخذ صورة مظاهرة رائعة قوامها طلبة مدرسة الحقوق يومئذ .

(١) أرانى أسرفت فى الاستطراد . ولكنها وجيعة الذكرى والأسى لنكران تضحيات المجاهدين الأطهار ... وأرجو أن أجعل لهذا الوطنى المنكور « عبد الرحمن فهمى بك » فصلا خاصا فياضاً بالمعلومات والحقائق فى كتابى الذى أشتغل بوضعه عن « أحداث مصر السياسية » .

وفى سبيل الحصول على المال . كان الوفد فى حاجة إلى من يضطلع بهذا الواجب المحفوف بالمتاعب . من الأمناء الأعفاء ... فإذا بالدكتور محجوب ثابت ينصرف عن عيادته - مصدر رزقه ومورد عيشه - ليجوب البلاد من أجل جمع الاكتتابات لتمويل الوفد المصرى ... وكان فى هذا الميدان من أوائل البارزين ، يدعو بصوته المدوّى الذى كان ينفذ إلى قلوب أبناء الوطن يحفزهم ويستثيرهم إلى بذل المال للإنفاق منه فى الدعاية من أجل القضية الوطنية وفى سبيل استقلال وادى النيل ...

أخذ الدكتور محجوب ثابت يجوس خلال الديار داعيا : الشباب ، والكهول ، والشيوخ ، والنساء ، إلى التبرع لتزويد الوفد بالمال . وبطريقته الخطابية التى كان يتأثر بها المتعلم وغير المتعلم ، جمع للوفد أموالا طائلة بلغت الألوف ، سلمها إلى لجنة الوفد سليمة سالمة .

وقد كنت تراه - وهو مأخوذ بروعة الثوران الوطنى - يجوب المدائن والدساكر والقرى لجمع الاكتتابات ، بعد أن آلى على نفسه أن تكون نفقات رحلاته على حسابه الخاص ومن خالص ماله المدخر[1] . على حين كان غيره من مرافقيه فى تطوافه قد أثرى ، يستقطع نفقات الرحلات مما كان يجمع . ومنهم من كان يُثرى من هذا العمل الوطنى !

ويجمل بى أن أذكر فى هذه المناسبة أن القرويات الفقيرات كن

---

(١) كان رصيد الدكتور محجوب فى البنك الشرقى الألمانى « بنك حسن سعيد باشا الأول » ستة آلاف من الجنيهات أفناها جميعاً فى سبيل الحركة الوطنية .

يتبرعن بحليهن عن طيب خاطر ، وكن يزغردن وهن يجُدن بهذا العطاء . وهى صورة من الفوران الوطنى الذى غمر جميع طبقات الأمة فى مستهل الحركة الوطنية « حركة سنة ١٩١٩ »(١).

وكم كان شوقى ـ رحمه الله ـ بارعاً فى تصويره هذا الشعور فى قصيدته الخالدة ، عقب عودته من المنفى ـ فى سياق تعريضه بدعاة الشقاق بين المصريين الذين كانوا كتلة واحدة وحزباً واحداً ـ يقول :

شببتم بينكم فى القطر ناراً على محتله (٢) كانت سلاما
إذا ما راضها بالعقل قوم أجدّ لها هوَى قوم ضراما
إذا كان الرماة رماة سوء أحلوا غير مرماها السهاما
أبعد العروة الوثقى (٣) وصفٌّ كأنياب الغضنفر لن يراما

---

(١) كان المرحوم أمين الرافعى بك قد غضب مما كانت تردده الجرائد وماكان يجيء على ألسنة الخطباء من اعتبارحركة سنة ١٩١٩ هى فجر الحركة الوطنية فى مصر . فأرسل إلى المغفور له سعد زغلول باشا يلفت نظره إلى ذلك طالباً منه تعديل هذا الرأى وذلك التعبير ، قائلا له : « إن هذا غمط للسابقين فى الجهاد الوطنى وإن أرواحهم لتحلق فوق رؤوسنا محتجة آسفة . لذلك أرجو بما آمله فيك من جنوح إلى الحق أن تنصف السابقين فى الجهاد »

وقد كان . إذ جاءت ذكرى يوم ١٣ نوفمبر . وخطب سعد بصوته المتهدج فقال : « لست خالق هذه النهضة كما قال خطباؤكم وشعراؤكم . إنما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد محمد على مؤسس الأسرة المالكة ، وللاستاذ جمال الدين الأفغانى فضل عظيم فيها ، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها ، وللمرحوم محمد فريد بك أيضاً . ونحن لا ننكر لذى الفضل فضله » .

(٢) محتله هم الانجليز .

(٣) يصور حالة التضامن بين أبناء الأمة حيث لا أحزاب ولاحزبية . كانت الحركة فى مصر بقيادة عبدالرحمن فهمى بك والمرحوم محمود سليمان باشا . المؤلف

تباغيتم كأنكم خلايا من السرطان لا تجد الضماما
أرى طيارهم [1] أوفى علينا وحلق فوق أرؤسنا وحاما
وانظر جيشهم من نصف قرن على أبصارنا ضرب الخياما
فلا أمناؤنا نقصوه رمحاً ولا خُوّاننا زادوا حساما

لقد كانت الحركة الوطنية فى بداية سنواتها قوية حارة ، وكان الشعور الوطنى مرهفاً ، والغيرة القومية فى أشد مظاهرها . وكنت ترى كل مصرى ومصرية ـ لا فرق بين غنى وفقير ، أو متعلم وجاهل ـ يعتبر نفسه الحارس على الاستقلال ، المتحفز للمفاداة فى سبيل هذا الاستقلال بالنفيسين : النفس ، والمال .

الدكتور محجوب رسول السلام

لم ينحصر عمل الدكتور فى جمع الاكتتابات والتبشير الوطنى ، وإلقاء الخطب الحماسية ، بل كان ينتهز الفرصة ويجعل من نفسه رسول سلام ووسيط صلح بين العائلات المتخاصمة ، والقضاء على أسباب التنافر ، يخاطبهم باسم الوطنية ، ويؤثر فى نفوسهم بجميل حديثه وظريف أسلوبه وطريف أمثاله .

قومى همو قتلوا أميم أخى فإذا رميت أصابنى سهمى

لما وصل الدكتور محجوب فى طوافه إلى مديرية جرجا ـ وقبيل وصوله إلى مديرية قنا ـ سمع القوم يتحدثون بحدة الخصومة الناشبة بين عائلتين كريمتين هما « الأشراف والحميدات » فقال للمتحدثين : « أنا قمين بإزالة هذا الخلاف وقلب هذا الحقد إلى حب وصفاء .

(١) طيارهم ، أى طائرات الانجليز .

ولا شك أن الأشراف سيتأثرون بى وأنا الشريف الحسنى » .

وأقسم الدكتور محجوب أنه لن يغادر مدينة قنا ـ بعد وصوله إليها ـ إلا إذا أصلح بين العائلتين . فلما قيل له : « أنت يادكتور ستحاول رابع المستحيلات » أجابهم : « سترون الآن قبل أن تقوموا من مجلسكم هذا ، كيف أنى بعون الله سأرفع كلمة المستحيل من القاموس » .

وكان الدكتور محجوب على موعد مع شيخ العرب « ابرهيم أبو رحاب باشا » عميد آل أبى رحاب ، فلما أقبل الرجل ابتدره الدكتور محجوب : « ياأبا رحاب . . إنى أقسمت لهؤلاء القوم بالله وبالوطنية وبمجد الآباء والأجداد ، وشهامة العرب ، بأنى لن أتقاضى منك قرشاً ولا دانقاً ، قبل قيامك معى إلى قنا لنصلح بين الحميدات والأشراف ، فإذا لم تقم معى الآن . لتجدَنّى الطاعن فى نفوذك ومروءتك ، المجرح لشهامتك ، الممتنع عن قبول أريحيتك وتبرعك أنت وعائلتك » .

وكان التسابق فى التبرع على أشده بين العائلات الكبيرة ، وبين المصريين جميعا . وفى الحال أخذت « أبو رحاب باشا » النخوة العربية ، فنهض لمرافقة الدكتور محجوب إلى « قنا » . وهناك ، جمع زعماء العائلتين . وروى « أبو رحاب باشا » لهم كلام الدكتور محجوب . وأقسم أنه سيكون الخصم الأول لمن يتخلف عن الصلح . . وعندئذ تصالحت العائلتان . وأزيل ما كان بينهما من لدد مستحكم وعداء قديم .

هذا هو الرجل العظيم الذى كان فى حياته حركة دائمة العمل دائمة الإنتاج ، لم يضيع من وقته فرصة دون أن يؤدى فيها أجمل الأداء . وهكذا كان محجوب مجاهداً ، وطنياً ، أميناً ، ورسول سلام بين الناس ، مخلصاً لوجه الله والوطن . التماساً لإشاعة روح الوفاق والفضائل الكريمة بين مواطنيه من جميع العناصر والطبقات .



الدكتور محجوب ثابت
ولجنة ملنر

البطل عبد الرحمن فهمى بك، وأمين الرافعى بك والدكتور محجوب ثابت، ولجنة ملنر

فى إبان الحركة الوطنية، وفى ذروة قوتها، واشتعال نارها وخلوها من الشوائب. فى ذلك الوقت الجميل، والشعور الحى القوى المطرب. يوم كان الغرض الشخصى لا يجد سبيلا إلى القلب المصرى، وهوى النفسِّ لا يجد منفذاً إلى ضمير الوطنى.. فى ذلك الوقت الذى كان الوزير يتملق فيه الوطنيين، ويعمل جهده على إبعاد كل شبهة توجه إليه (آهٍ، آهٍ!.. ماأروع هذه الذكريات الحلوة!!!).

فى إبان تلك الحركة الرائعة كان الوزراء يخشون عدم الظهور بمظهر الوطنية، كانوا يخافون ويحذرون المصرى الثائر المطالب بالاستقلال التام.. المصرى الذى قالوا عنه إنه لن يثور، ولن ينتبه، ولن يستيقظ، ولن يعى، وزعموا أن أصحاب الجلابيب الزرقاء (الفلاحين) قد تأدبوا بعد جريمة «كرومر» الوحشية فى (دنشواى).

وبعد أن كانوا يقولون إن هذه الأمة التى تحملت الكوارث ولم تغضب لن تثور، وإذا ثارت فثورتها ثورة صغار التلاميذ!!! إذا بهذا التصريح يزيد الحركة الوطنية شدة على شدتها. وإذا بالحكومة البريطانية، بعد أن رأت الثورة المصرية ثورة جادة، تقرر إرسال لجنة برياسة «اللورد ملنر» أحد دهاتها لاجراء التحقيق فى أسباب الثورة. وإذا بالمصريين يعتبرون إيفاد هذه اللجنة إهانة لهم، فيجمعون على مقاطعتها،

ويجهرون فى صراحة بأن كل من يتصل بها خائن يرتكب جريمة الخيانة الوطنية . ثم أخذوا ينادون بسقوطها ، ويعلنون أن مجيء اللجنة الملنرية مقصود به تجاهل الوفد المصرى الموكل من قبل الأمة ، وكان الوفد يمثل المصريين أجمعين وفى الوقت نفسه هو سعى ما كرسىء بين الموكل والوكيل .

وهنا تطل علينا ذكرى الموقف الباسل الذى وقفه «أمين الرافعى بك» صاحب جريدة «الأخبار» فى استقبال لجنة ملنر ، فقد حمل على مناورتها ، وكافحها كفاحا شديداً ، وحارب مشروعها فيما بعد ، حين رأى فيه انتقاصاً لحق مصر الكامل الذى نادى به فى برنامجه الوطنى «تعديل الأساس» . وكان فيما كتب من مقالات نظيفة بريئة ، البعيد النظر ، الثاقب الفكر (١) .

وهنا نستعيد ذكرى الموقف الوطنى البارز الذى وقفه « عبد الرحمن فهمى بك » حيال لجنة ملنر ، فقد كان يرسل رسله من الشباب إلى القرى والدساكر ليطالبوا جميع المصريين بمقاطعة لجنة ملنر ، ويناشدوهم باسم الوطنية ألاّ يكلفوا أنفسهم مؤونة الرد على أعضاء اللجنة ، وأن يشيروا عليهم ـ إذا ألح أحد أعضائها بالسؤال عما يزرعونه ـ بأن يجيبوه بالقول : « اسألوا سعداً فى باريس وهو يجيبكم » .

وهنا كنت ترى الدكتور محجوب ثابت قد تفرغ للدعاية فى جميع الأوساط ، وكانت مهمته الأساسية هى الاتصال بالوزراء ومن إليهم

---

(١) حققت الأيام نظرية أمين الرافعى بك ، وجاءت الحوادث تنطق بصواب رأيه وصحة تفكيره الوطنى .

والمؤلف يعتقد أن أمين الرافعى هو سيد من حمل اليراع وامتشقه من حيث النزاهة وأداء أمانة الواجب الوطنى والصحفى .

محذراً إياهم من عاقبة إبداء آرائهم للجنة ملنر .

وإذا بالوزراء — خوفاً من الوطنيين — يصارحون ملنر وزملاءه بأن وزارتهم « وزارة إدارية » لاشأن لها بالسياسة ، وأن عليهم — أى أعضاء اللجنة — أن يكوّنوا آراءهم من تلقاء أنفسهم ، وأن يجمعوا معلوماتهم حسب اجتهادهم .

ومعنى هذا أن الوزراء خافوا مغبة إبداء الرأى خشية بأس الوطنيين .

وتقرير ملنر أكبر شاهد على ما كان يقول به الدكتور محجوب ، ذلك التقرير الذى مليء مغالطة . وقد كانت الأمة على حق ، وكانت مرهفة الحس حينما بيّتت أمرها على مقاطعة لجنة ملنر ، من قبل أن تطأ أرض مصر أقدام أعضائها .

* * *

ومما يجدر بنا أن نتحدث عنه أنه لما تشرف أعضاء لجنة ملنر بمقابلة عظمة السلطان (جلالة الملك فؤاد الأول) نصح عظمته للجنة « بالتأنى فى استنتاج النتائج والاحتراس من الفضوليين » ، ولم يشر برأى ، ولم يعط نصيحة .

ومعنى هذا أن عظمة السلطان (الملك فؤاد) أشعر لجنة ملنر بأنه متضامن مع أمته . وهذا ما كان يعبر عنه الدكتور محجوب فى تصويره لموقف عظمة السلطان وقتئذ بأنه من المواقف الوطنية التاريخية الرائعة المجيدة .

نعم إن للتاريخ حقيقته وجلاله ، وللصدق روعته ، ولذكرى الوطنية الحارة حرمتها . فقد استقال محمد سعيد باشا احتجاجاً على إيفاد لجنة ملنر إلى مصر ، وتجاهُلِ وكلاء الأمة . وكان هذا العمل الوطنى من

محمد سعيد باشا بتأثير كل من عبد الرحمن فهمى بك والدكتور محجوب ثابت وغيرهما من الوطنيين .

وكذلك فعلت الوزارة التى جاءت بعد وزارة محمد سعيد باشا ، فقد أعلنت أنها وزارة إدارية ، خوفاً من الوطنيين ، وخشية تيار الحركة الوطنية أن يجرفهم ويغرقهم ، ورهبة حيتان الوعى القومى أن تبتلعهم ونيران الإخلاص الوطنى أن تحرقهم ، وأنوار الشعور الوطنى الساطعة أن تغشّى أبصارهم .

قال لى الدكتور محجوب ذات مرة :

— لا تنس يابنى أن صاحب النصيب الأكبر فى إدارة الحركة الوطنية ، وتنظيمها تنظيما معدوم النظير ، مصحوباً بالحزم والعزم ، مقروناً باليقظة والحذر ، هو « عبد الرحمن فهمى بك » فقد كان يتصل بكل إقليم من أقاليم القطر ، وبكل قرية وعزبة ودسكرة ومحلة [1] مهما كانت نائية . كان له فى كل جهة من جهات القطر عيون مبثوثة ، وفى كل ناحية رجال يبلغونه كل ما حدث وكل ما يحدث ، ويُفضون إليه بكل ما يجب أن يقع ويشيرون بكل ما يصح أن يُمتنع عنه ويُحتاط له ... عبد الرحمن فهمى ، رجل الوطنية ، والكرامة القومية ، والصرامة .. عبد الرحمن فهمى المحبوب ، المرهوب ..

— وما كان دورك يا دكتور ؟

ابتسم ، وعبث بلحيته ، وهز رأسه ، واستغرق فى وجيعة الذكرى

(١) كان المؤلف من جنود عبد الرحمن فهمى بك . وكان لم يزل صبياً يافعاً وقد بعثه فى مهمة خطيرة إلى مديرية سوهاج ، وظل بها مدة طويلة .

الحلوة المرة[1]. ثم أخذ يذرع حجرة مكتبه جيئة وذهوباً، ثم جلس وهو مأخوذ بروعة الماضى، وأغمض عينيه وفتحهما، ثم نادى الخادم قائلا: «شاى أخضر»... وإذ هو يشرب الشاى قلت له:

— يا دكتور، إنى أعرف تواضعك فلا تتحرج من أن تذكر لى حصتك ودورك[2] تجاه لجنة ملنر. إنى إذ أسألك إنما أرجو أن تذكر جهادك والمنسىّ من أعمالك.

وهنا دخل أمير الشعراء المغفور له شوقى بك. فذكرت له ما كان من حديثى مع الدكتور محجوب، وكان شوقى قريب عهد بالعودة من منفاه، ولم يحضر لجنة ملنر، فانضم إلىّ وأبدى رغبته فى معرفة دور الدكتور محجوب.

وقلت: «إذا كتبت لى الحياة بعدك يا دكتور، فعلىّ عهد أن أخرج مفاخرك كتاباً مسطوراً وحديثاً منشوراً».

واستصوب أمير الشعراء ما دعوت إليه الدكتور محجوب، فرضى. قال، وكأنما يقرأ فى كتاب مسطور، وهأنذا قد فعلت ووفيت:

كان عبد الرحمن فهمى بك هو الحركة الدائمة المنظِّمة، الملهمة المجاهدة. كان يتلقى التقارير من أنحاء القطر شفاها وكتابة، ويدرسها، ثم يبتّ فيها دون أن يترك شيئاً منها إلى الغد. وكنت تراه كقائد الجيش يقظة وحذرا، فبينا هو يضع خطة جديدة تبلّغ فى الحال

---

(١) أقصد بها الألم الذى انتاب كل وطنى بسبب تفرق الكلمة

(٢) كان المؤلف يعرف دور الدكتور حق المعرفة ولكنه أراد أن يستوثق، وأن يأخذ التاريخ من فم صاحبه.

إلى الذين نيط بهم تنفيذها . إذا به يهذب الثورة ليجعلها جادة ، لا وسيلة للعيش ، ولا طريقة للتكسب والكسب . وإذا به يكلف من يثق بهم مراقبة من يشتبه فى أمرهم ، فيرسل الطلاب والشباب فى كل مكان يُظن أن أحد أعضاء لجنة ملنر سيتصل بأحد فيه ، ويحذر هؤلاء من نتيجة اتصالهم بهذه اللجنة . . . ثم لا يكتفى بالتحذير ، بل يصدر الأمر إليهم بأن يقولوا لكل مَنْ يُشك فى موقفه إنه مأمور إذا سئل من أحد أعضاء لجنة ملنر أن يكون جوابه : « اذهبوا إلى باريس واسألوا سعداً » وإلا . . . أما أنا يا بنى فإن حصتى التى كنت أتطوع لأدائها كدينْ فى ذمتى للوطن ، كانت هى الاتصال بالوزراء وحملهم على ألا يبدوا رأيهم ، وأن يعتبروا أنفسهم وزراء إدارة لا شأن لهم بالسياسة ، وأن يقولوا للجنة : « إن الجهة السياسية فى باريس . اذهبوا إلى باريس واسألوا سعداً وزملاءه » . . وكان علىّ أن أحمل محمد سعيد باشا على الاستقالة قبل وصول ملنر ولجنته ، وألا يخرج وزير على إرادة الأمة . . . هذه كانت مهمتى الأولى . . .

* * *

وهنا اغرورقت عينا شوقى بالدموع ونظر إلىّ ، واستنشدنى قصيدته الخالدة التى قالها عقب العودة إلى وطنه ، والتى يقول فى مطلعها :

أنادى الرسم لو ملك الجوابا   وأجزيه بدمعىَ لو أثابا

فلما وصلت إلى قوله :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس   كأنى قد لقيت بك الشبابا

ولو أنى دعيت لكنت دينى عليه أقابل الحتم المجابا

اهتزا معاً وطربا . وأخذت منهما الحماسة مأخذاً شديداً . . .

* * *

بينما كان الدكتور محجوب فى ابتهاج بذكريات الماضى القوى المجيد ، كانت تطغى على مشاعره آلام مرة مؤلمة ، من المقارنة بين الزعماء فى ذلك الوقت وبين موقف رؤساء الأحزاب سنة ١٩٣٥ ، ونقول مستطردين إن الدكتور كان يتألم من المقارنة بين وطنية سنة ١٩١٩ وبين وطنية سنة ١٩٣٥ حينما أوفدت انجلترا موظفاً إسرائيلياً بوزارة الخارجية البريطانية ، اسمه مستر «بترسون» كنائب لمندوبها السامى فى مصر «السير برسى لورين» الذى كان قد اختلف مع حكومته فى تنفيذ تعليمات صدرت إليه . جاء مستر بترسون ـ بعد تكليف برسى لورين بالقيام بإجازة ـ وتدخل فى شؤون مصر الداخلية البحتة بموجب تبليغ شفوى يقضى بوجوب إقالة عبد الفتاح يحيى باشا الذى خلف صدقى باشا فى رياسة الوزارة ورياسة حزب الشعب . وقد استقال عبد الفتاح يحيى باشا فعلا ، ولكن استقالة مشرفة تشبه استقالة شريف باشا المعروفة ، فقد أثبت فى وثيقة استقالته أن سببها هو تدخل الإنجليز فى شؤوننا الداخلية البحتة . وكذلك فعل على ماهر باشا فيما بعد ، فكانت الثالثة (١) .

ومعروف أن الحكومة البريطانية كانت قد رأت فى تكليف جلالة

---

(١) نذكر هذا للحقيقة والتاريخ . ومعلوم أنه فى الوقت الذى حدثت فيه مأساة بترسون ، كان جلالة الملك فؤاد منحرف الصحة ، ومع ذلك لم يتورع مستر بترسون الاسرائيلى عن الإصرار على طلبه .

مليك النيل إسماعيل صدقى باشا بتأليف وزارته فى يونية سنة ١٩٣٠ - بعد إقالة وزارة النحاس باشا ، دون استشارة المندوب السامى البريطانى وهى إقالة انفرد بها جلالة الملك - خطراً على نفوذها فى مصر ، ولاسيما بعد أن أُخذَت الحكومة الإنجليزية من رد اسماعيل باشا على التبليغ وكان رداً مفحماً .

وقد سكت رؤساء الأحزاب على هذا التدخل الذى يتعارض مع تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذى ينص على أن مصر حرة فى أمورها الداخلية ، ولاسيما من حيث تأليف الوزارات وإسقاطها .

قال الدكتور محجوب : « إن رؤساء الأحزاب الذين أضلوا فريقاً من أبناء الأمة ، وضللوا فريقاً آخر ، إنما سكتوا على التدخل الأجنبى فى شؤوننا الداخلية البحتة ، لأن كلا منهم كان يخشى - إذا هو احتج على هذا التدخل - أن تفلت منه أمانىّ الحكم فى المستقبل . وكان كل من رؤساء الأحزاب — عدا الحزب الوطنى ورئيسه — يظن أنه قد يكلف بتأليف الوزارة . إذن فالاحتجاج والاعتراض سيحولان بين « الغادة اللعوب ، والمنصة الطروب : كرسى الحكم » . انظر يابنى إلى أى حد خمدت الحرارة الوطنية بفعل الزعماء ! . قارن بينهم وبين الذين كنا نسميهم — تهكماً — بوزراء الحماية يوم جاءت لجنة ملنر إلى مصر . . . ومع ذلك فأنا لست من اليائسين . . . سأغذى طلاب الجامعة بالدروس الوطنية . فإن كتبت لك الحياة بعدى ، فلا تنس يابنى أن محجوباً هو مدرس الحركة الوطنية . آه يابنى من الذكريات الحلوة المرة ، البهيجة المؤلمة ، المطربة المحزنة ! . . ولكنى

لست يائساً . . لا بد من أن تستعيد الأمة يقظتها فى يوم آت قريب . ستعود إلى النفوس الفاترة فى الأمة نظرية الحزب الوطنى ومبادئه . . . إنى أشعر بذلك بيقين المؤمن « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

وأخرج محجوب من درج مكتبه تقرير لجنة ملنر ، وأخذ يطالعه . . ثم قال : « اكتب ما أملى عليك ، وافهم ما أقول » . . .

وأغمض عينيه ، واستغرق فى خيال الذكريات المشجية الباكية ، ذكريات الروح الوطنية ، عند استقبال الأمة للجنة ملنر ، ذلك الاستقبال الذى أفزع الإنجليز وروعهم ، وأقض مضاجعهم ، وغصت به حلوقهم ، واضطربت له نفوسهم . . . ثم قال :

ـــ بعد أن حاولت لجنة ملنر فى تقريرها التقليل من شأن ما حدث من إجماع الأمة على مقاطعتها ، وتذكر أنها حركة صغار التلاميذ ، مدللة بتكسير مركبات الترام ، أخذت تقول (١) : (لم يقع ضرر يذكر فيما سوى ذلك . على أنه وقع بعض التعدى على جنود من البريطانيين . وحاول المعتدون اغتيال بعض الوزراء ثلاث مرات متوالية) .

ومما يدل على مغالطة اللجنة بله حنقها أنها كانت تريد أن يعمل الأمراء ما ينافى مصلحة وطنهم . فهل كانت هذه اللجنة يابنى تريد أن يكون الأمراء ـ وهم تيجان على رؤوس الأمة ـ أقل وطنية من صغار التلاميذ ، كما ادعت فى تقريرها ؟! .

هذه اللجنة التى أرادت التقليل من مكانة الحركة الوطنية ، ووصفتها بأنها «حركة صغار التلاميذ» كما وصفها «برونيات» بإيعاز اللورد «كرزون» (٢) ،

---

(١) العبارات الواردة بين الأقواس هى من نصوص تقرير لجنة ملنر.
(٢) سيجىء تفصيل ذلك فى فصل « مواقف وطنية ـ إضراب الموظفين »

ـ هذه اللجنة يا بنى حاولت التقرب من الرأى العام المصرى بمنشور أذاعته فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٩ تدعو فيه المصريين إلى الاتصال بها ، فلم يستمع المصريون إلى هذا الإغراء الماكر ـ وباءت هذه المحاولة بالفشل . إذ تراءى للشعب أن هذا لم يكن سوى « فخ » نصب لإحداث الشقاق بين الأمة وطبقاتها من جهة ، وبين الوفد الموكل عنها من جهة أخرى . وهو الوفد الذى ضم كل عناصر رجال السياسة ، وفيهم رجال الحزب الوطنى الذى أناب عنه كلا من الدكتور حافظ عفيفى ، ومحمد على علوبة ، ومصطفى النحاس . وذلك بناء على رغبة الأمير عمر طوسون الذى أقنع الحزب الوطنى بأن ينتدب من هم موضع اختياره وثقته ليكونوا حراساً على الوفد ، وحتى لا يتوجه المصريون إلى مؤتمر الصلح منقسمين . وكان تدخل الأمير عمر طوسون بناء على رجاء تقدم به إليه الدكتور محجوب والمرحوم داود بركات .

وإنك لترى لجنة ملنر فى تقريرها ـ وهى تحاول التقليل من أهمية الحركة الوطنية ـ تقول عن هذه الحركة فى موضع آخر : (إنها بلغت حداً تخشى عواقبه !) وتقول : (وكانت حركة وطنية تؤيدها ميول جميع الطبقات والمذاهب فى الأمة المصرية . وظهرت بين أشد عناصرها تعصباً بمظهر تخريب الأملاك والمواصلات ، تخريباً منظماً ، والاستهانة بالنفوس . ولا ريب أن الوفد هو المسئول ![1]) .

ولما قرأ الدكتور محجوب رأى الحكومة البريطانية فى مسألة السودان فى تقرير لجنة ملنر وفى محتويات الخطاب الموجه إلى عدلى

---

(١) تقصد اللجنة عبد الرحمن فهمى بك .

باشا (١) صاح قائلا : « محال أن نوافق على هذا وفى المصرى عرق ينبض للسودان وطنية وشرف وإباء وكرامة » .

وحين قرأ فى التقرير العبارة التى تقول : « يجب تعيين حاكم عام ملكى عند سنوح أول فرصة (٢) ثم حين قرأ عبارة (يجب أن يكون إخلاء جانب مصر من كل مسئولية مالية فى السودان ، وتقرير العلاقات بين البلدين فى المستقبل) صاح مرة أخرى غاضباً وهو يقول : « محال أن يقبل أحد ، سواء فى الخرطوم أو فى الإسكندرية أو القاهرة ، هذا الوضع وهذا المنطق الإجرامى » . . . ثم أخذ يترنم فى حماسة قائلا :

فلا نيل ما لم تحمه مصر حرة   وتخفق رايات لها وبنود (٣)

ثم استطرد فى حماسة فياضة : « وتالله لأنادين بخيانة كل من لا يثور فى مصر حينما يقرأ هذا . . أريدها ثورة الإباء والشمم ، لا تلك الثورة المخربة . أقصد يابنى ثورة «لا ، ونعم» هذا : لا ، فلا أقبله . وهذا : نعم ، أوافق عليه . . إن مصر لا تطلب ضمان الماء ، إنما تريد أن تعود الروح إلى الجسد ، وأن يظل الرأس فى الجسم لا ينفصل » .

ثم يقول : « ومع أنى كنت أحد رجال الوفد ، فإننى لا أتغاضى عن المفاخرة بالحزب الوطنى ، وإلا كنت مجرماً فى حق بلادى . . . إليك يابنى قيمة الحزب الوطنى فى نظر الإنجليز : إنهم يتظاهرون بنصيحة الوفد

---

(١) صفحة ٦٠١ من تقرير الحزب الوطنى المصادر .

(٢) صفحة ١١٢ من تقرير لجنة ملنر نشرة الحزب الوطنى .

(٣) هذا البيت من قصيدة للدكتور محجوب وقد نشر بيت هذه القصيدة ضمن مقال ضاف بجريدة الأهرام ، ولعل القليلين من أصحاب الفقيد قد عرفوا عنه أنه يقول الشعر ، ولكنه عزيز نادر .

ـ الذى كان يمثل الأمة بحق فى تلك الأيام ـ بطريقة لئيمة يراد بها القضاء على الحزب الوطنى ، والقضاء عليه بمثابة القضاء على الأمة المصرية ، والكرامة القومية ، والروح الوطنية الصحيحة . انظر ما جاء فى تقرير ملنر : (. . ومما يماثل ذلك فى الأهمية ، أن تنتج مساعيكم فى مصر نتيجة . . ونحن نعترف لكم شاكرين عظم مافعلتموه من هذا القبيل) . . قالوها بطريقة لوليبّية مقنّعة . ثم رفعوا جانباً من هذا القناع حين استرسلوا فى القول : (ولكن من البَيِّن أنه لا يزال هناك معارضة يجب التغلب عليها ، وأن فى مصر أناسا (يقصد الحزب الوطنى الذى يحمل لواء الجهاد الوطنى ، والداعى دائماً إلى الحذر من الإنجليز[1]) كثيرين لم يتشربوا روح الاتفاق ، بل لا يزالون معادين لحسن التفاهم بين بريطانيا العظمى ومصر لسبب من الأسباب ، فهم يرتابون فى نيات هذه البلاد (يقصد انجلترا) أو يدعون ذلك ، غير مدركين مقدار السخاء الذى تقابل به بريطانيا العظمى أمانى الشعب المصرى ، وإنكم بتهديدكم سوء التفاهم ، وغرسكم حسن الظن فى النفوس . .) . وهنا صاح الدكتور محجوب قائلا : « كذبوا ، فهم يدعوننا إلى الانتحار [2] ! . . وكان سعد فى رده على هذا قوياً » .

ومضى الدكتور محجوب فى حديثه يقول : « بمجرد أن قرأت نص التفويض الملنرى ـ الذى أُحطنا به علماً بطريقة سرية قبل مجىء اللجنة ـ قررنا مقاطعتها بكل قوة ، مع استنكار نص التفويض . فقد جاء هذا النص واضح الإذلال للكرامة المصرية ، والسخرية من عواطف المصريين ، واستنكار حقهم فى المطالبة بالاستقلال التام .

(١) ص ١١٩ من التقرير .

(٢) راجع هذا التقرير بإمعان أيها المصرى .

فهو يقول بالنص إنها جاءت لـ (تحقيق أسباب الاضطرابات التى حدثت أخيراً فى القطر المصرى ، وتقديم تقرير عن الحالة الحاضرة فى تلك البلاد (أى مصر) ، وعن شكل القانون النظامى الذى يعد تحت الحماية خير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء ، ولتوسيع نطاق الحكم الذاتى فيها توسيعاً دائم التقدم والترقى ، ولحماية المصالح الأجنبية . .)

ولنعطىَ فكرة صحيحة ، لابد لنا من أن نلخص هذا التقرير الطويل الملىء بالمغالطات الإنجليزية . هذا التقرير الذى يجب على كل مصرى يجرى فى عروقه الدم المصرى الشريف أن يطلع عليه ويتمعن فيه ، ويتدبر معانيه ، ومراميه ، والذى يجب على كل وطنى أن يشكر من أعماق قلبه الحزب الوطنى الذى نشره ، وأن يعترف له بالفضل والجميل الكريم (١) .

موجز عمل لجنة ملنر فى مصر

ومختصر لتقريرها

استهلت اللجنة تقريرها بقولها : (كانت حكومة جلالة الملك تفكر فى إرسال لجنة خصوصية إلى مصر منذ شهر أبريل سنة ١٩١٩ لما تفاقم الخطر فى تلك البلاد وحتى ظهر بمظهر العنف والتعدى والإخلال

(١) ظهر هذا التقرير فى يوم الأحد ٢٠ فبراير سنة ١٩٢١ وقد نشره الحزب الوطنى — مترجماً إلى العربية — على نفقته الخاصة ، ووزع فى القطر المصرى ليحذر الأمة . وقد صودر وانتزع من أيدى الذين يحملونه . — وأخذ المؤلف النسخة الوحيدة من الدكتور محجوب ثابت بعد إلحاح شديد ، لأمر ما كان يعلمه غير الله ...

بالنظام فى شهر مايو التالى ، أعلن أن لجنة كهذه ستسافر إلى بر مصر برياسة اللورد ملنر فى فصل الخريف ، فجاهر المصريون الوطنيون بعزمهم على مايلزم لمقاطعة تلك اللجنة . واشتد عزمهم كثيراً باحتجاج محمد سعيد باشا رئيس الوزراء حينئذ على مجىء اللجنة) .

وبعد أن تكلمت اللجنة عن الوزراء الذين كانوا مهددين فى حياتهم ... وأنهم اتخذوا الاحتياطات الشديدة للمحافظة على حياة أعضاء اللجنة - أيضاً - نظراً إلى روح العداء . . . وبعد أن تكلمت اللجنة عن مقابلتها لعظمة السلطان ، ثم عن المقابلة العدائية التى قوبلت بها ، وعن شدة الحركة الوطنية ، وبعد أن حاولت فى سياق حديثها ، أن تقلل من أهمية الثورة المصرية بزج كلمات « صبية المدارس» و « الرعاع » راحت تعترف مرغمة بأنها (تلقت تلغرافات الاحتجاج من الموظفين وأعضاء الهيئات النيابية ، والمظاهرات التى قوبلت بها ، والتى اشترك فيها السيدات اللاتى برزن من أخبيتهن ، والعداء الشديد الذى كان يقابل به كل عضو منها) . . . وبعد أن تخبطت فى التدليل واستنتاج « أسباب القلق والاضطراب » ، ثم بعد أن غالطت كثيراً فى عبارات لولبية ، اعترفت (بقوة الحركة الوطنية وسيلها الجارف) . ثم إذا بها تحاول الانتقاص من أهميتها بذكر « الرعاع » و« صغار التلاميذ » وإذا بها تعترف مرغمة بـ (ضروب العدوان التى قوبلت بها ، وأنواع المقاومات للغاية التى جاءت من أجلها اللجنة) . . . وإذا بها تعترف بجدية الحركة الوطنية ، فتقول : (فى الأسبوع التالى من وصولنا ، أرسل علماء الجامع

الأزهر ، الذى هو معهد التعليم للدين الإسلامى ، منشوراً إلى المعتمد السامى البريطانى ، أبانوا فيه حقوق مصر فى طلب استقلالها ، وطلبوا خروج البريطانيين من البلاد) .

قال الدكتور : « أرادت لجنة ملنر ـ متخبطة فى مزاعمها ومضللة ـ أن تدخل فى روع حكومتها ، بعد أن خدعت نفسها « أن العلماء الذين وقعوا على المنشور ، لم يكونوا يهوون ركوب ذلك المركب السياسى ، إنما ركبوه إذعاناً لضغط الأساتذة والتلاميذ » .

وكانت الثورة فى نظر لجنة ملنر هى ثورة صغار التلاميذ . لم تتورع اللجنة فى إعطاء الثورة هذا الوصف فى عديد الصفحات . فلما قام العلماء بواجبهم الوطنى راحت تزعم أنهم وقعوا تحت تأثير ضغط الأساتذة والتلاميذ ، ولم تبين لنا الفرق بين الأساتذة والعلماء ! والمعروف البديهى أن الأساتذة هم العلماء .

قال : « ولما فوجئت لجنة ملنر ببيانات أمراء البيت المالك سلالة « محمد على الكبير » مجدد مصر وقائد نهضتها الحديثة ، ورأت منهم احتجاجهم الوطنى الحماسى ، أخذت تغمز وطنيتهم ، حاملة عليهم مدعية أنه « لا يبعد أن يكون الأمراء قد فعلوا ذلك لأسباب مختلفة (كذا) ولكن لاريب فى أن السبب الأكبر منها هو رغبة الأمراء فى اكتساب حب الجماهير لهم ، بانحيازهم إلى حركة طغت على البلاد حينئذ كالسيل الجارف » .

اعترفت لجنة ملنر رغم أنفها بقوة الحركة الوطنية فيما تقدم من النصوص ، وأخذت تجرح العلماء والأمراء ، ثم راحت تتخبط فى

مزاعمها . فهل كانت تريد أن يمالىء الأمراء والعلماء والموظفون انجلترا ؟

إن كل من يراجع تقرير لجنة ملنر ، يرى أن هذه اللجنة قد ملأت تقريرها بالمغالطات والمتناقضات ، فبينا تعترف بقوة الحركة الوطنية في سطر ، وأن مركز اللجنة كان دائماً تحت مراقبة حرّاس خَفِيّين من المعارضين ـ تقصد الوطنيين ، أى الأمة كلها ـ فلم يك مصرى ذو شأن يزورها حتى يُبَلَّغ خبره إلى الصحف حالا ، فتحمل عليه بالإنذار ، وترسل إليه بالوعيد كأنه ارتكب جريمة . ثم يقصد ذلك المجرم جماعة من التلامذة إلى منزله يستفسرون عن سلوكه هذا ، فينتهى الأمر غالباً بأن يطنب فى صحة تمسكه بالعقيدة الوطنية وتبرِئته من الخروج بكلمة عن حدود هذه العقيدة فى حديثه مع اللجنة) .

وإلى هنا تخبطت اللجنة مغيظة محنقة ، فزعمت أنه (لم يشذ عن ذلك إلا واحد أو اثنان من ذوى الشجاعة الأدبية الذين أفهموا أولئك الفضوليين ألا يتعرضوا لشؤونهم ، ولا يسألوهم عما لا يعنيهم[1]) .

ها هى ذى لجنة ملنر بينا تصف قوة الوطنية المصرية واستحالة اتصالها بالرأى العام ، تنعت جنود الوطن بالفضوليين !! .

استمع أيها المصرى لقول اللجنة (فى صفحة ١٠ نفسها من التقرير)

---

(١) المؤلف : أؤكد تأكيداً قاطعاً أن لجنة ملنر لم تكن صادقة فى هذا الادعاء . ذلك أنه لم يكن أحد ليستطيع أن يواجه جنود عبد الرحمن فهمى بمثل ما زعمته اللجنة . وإنى أعلم أن كل من كان موضع الشبهة ومحل أقل ريبة كان يؤمر بعدم مغادرة منزله ، وتلك كانت خطة منفذة مدة وجود أعضاء اللجنة فى القطر المصرى . فما كان أروع ذكرى هذه الوطنية .

تقول : (كانوا يستقصون حركات أعضاء اللجنة بمزيد الحرص والدقة ، ولا سيما متى سافر واحد منا إلى الأرياف ، فيرسلون الرسل حالا من مصر ليقتفوا خطواتنا ، ويسعوا فى منعنا من الوصول إلى الأهالى) .

أبعد هذا دليل على قوة الروح الوطنى ؟

هنا يقول الدكتور محجوب متغنياً بالذكرى :

— إن ما قالته لجنة ملنر فى هذا التلخيص الذى ألخصه لك ، كان هو دعايتنا ، وقد نجحنا . . . وتلك كانت وطنيتنا ، وهذه هى نهايتنا . . . وستكون هى الابتداء ! ! ! ولعل بعض الناشئين ، بل أكثرهم لا يعرفون ما هى لجنة ملنر ، وهوية ملنر نفسه [1] .

(١) قال الدكتور وكان شوقى بك لم يزل حاضرا يستمع إلى إفاضته ويختزن فى جعبته : « عقب صدور لجنة تقرير ملنر بادرت بكتابة احتجاج شديد اللهجة ، وأرسلته إلى رئيس اللجنة وإلى وزارة خارجية إنجلترا . ثم أخذت أخطب فى المنتديات مفنداً ما جاء فى التقرير كما قلته لك »

مواقف وطنية

الدكتور محجوب وإضراب الموظفين

إنها لذكريات مرة باكية . ثم هى بهيجة ضاحكة ، تطل علينا أطيافها من الماضى البعيد ، فنقرأ فيها صفحة مجيدة من الوطنية الحارة ، والثوران الفدائىّ الملتهب ، يوم كانت الأمة المصرية تواجه خصما واحداً « هو الإنجليز » وتهتف وتترنم بمطلب واحد « هو الاستقلال » ، وتمشى إلى ساحة الجهاد صفاً واحداً ، ينشد الحرية ، ويبذل فيها غاليات الأرواح ، وكرائم النفوس ، ومدّخرات الأموال ، وفلذات الأكباد .

إنها كانت أعنف سنى الحركة الوطنية ، وأروع وقت تجلىّ فيه الوعى القومى ، وأمجد موقف مشرف اجتمعت فيه جميع طبقات الأمة كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، لا فرق بين كبير وصغير ، وغنى وفقير ، وأمير وخفير ، ومسلم ومسيحى .

فى ذلك الوقت الذى كان فيه كل مصرى ـ وكل مصرية ـ قد آلى على نفسه لينالَنَّ الاستقلال . . بل ليَأْخُذَنَّه أخذاً قوياً ، تهون فيه الدماء ، ويرخص الفداء ، وتبذل فيه النفوس الأبّيات ، والأرواح الغاليات . . .

فى ذلك الوقت الذى بهر المصريون فيه عيون العالم كله ، وقام أبناء النيل على بكرة أبيهم قومة الرجل الواحد . . .

فى ذلك الوقت الذى أخذت فيه الأمم الشرقية ، وبعض الأمم العربية ، من مصر قدوة صالحة فى الجهاد ، وعلى دربها شدت رحالها إلى طريق الحرية والكرامة .

فى ذلك الوقت الذى فزع فيه الإنجليز من الثورة المصرية . .

فى ذلك الوقت أراد فيه اللورد كرزون[1] ، أن يقلل من مكانة ثورتنا أمام العالم الأوربى عامة ، كما حاول العبث بهذه الثورة لدى

---

(١) فى قصيدة أمير الشعراء شوقى بك عن توت عنخ أمون التى يفاخر فيها بما لمصر من مجد تليد ، ويلفت أنظار المؤتمرين إلى عظمة مصر أم المدنيات ، وهى التى تعانى قسوة الاحتلال البريطانى ، وجه عتاباً مراً إلى الأمم الأوربية التى أشاح مندوبوها بوجوههم عن وفد مصر ... والتى يقول فيها مخاطباً توت عنخ آمون المبعوث من قبره :

خرجت من القبور خروج عيسى　　عليك جلالة فى العالمينا
يجوب البرق باسمك كل سهل　　ويخترق البخار به الحزونا
وأقسم كنت فى لوزان شغلا　　وكنت عجيبة المتفاوضينا
أتعلم أنهم صلفوا وتاهوا　　وصدوا الباب عنا موصدينا ! ؟
ولو كنا نجرّ هناك سيفاً　　وجدنا عندهم عطفاً ولينا

فى هذه القصيدة يندد شوقى بموقف كرزون فيقول :

سيقضى كرزن بالأمر عنا　　وحاجات الكنانة ما قضينا

ومما يحسن ذكره فى هذه المناسبة عن توت عنخ أمون قول أمير الشعراء فى أرجوزة كبيرة :

لحدك ودته النجوم لحدها　　أريتنا الدنيا به وجدها
سلطانها وعزها ورغدها　　وكيف يعطى المتقنون خلدها
مصر الفتاة بلغت أشدها　　وأثبت الدم الزكىّ رشدها

الرأى العام البريطانى خاصة . ثم جاهد فى ڤرسا‌ى ولوزان حتى حمل أعضاء مؤتمر الصلح على إيصاد أبوابه فى وجه الوفد المصرى الموكل من قِبل الأمة لعرض القضية فى مؤتمر ظُنّ أنه عقد لتنفيذ حرية الشعوب وفقاً لمبادىء ولسون التى طالما تغنوا بها إبان الحرب . وقد نجح كرزون فى حمل المؤتمرين على عدم الموافقة على دخول وفد مصر فيه .

ولكن نجاح كرزون فى هذا لم يدخل اليأس فى قلوب المصريين ، ولم يفتّ فى عضدهم . بل اشتدت الحركة الوطنية قوة ، وزادت الثورة اشتعالا ، واستمات الشعب فى الجهاد العنيف ، وبذل الأرواح قرباناً للوطن .

* * *

سُقط فى يد كروزن أمام هذا التيار الجارف والثورة الجامحة . ولكنه عاند الحق وكابر ، وصرح فى صلف بأن « الثورة المصرية

وفى مثل هذه المفاخر يترنم شوقى بقوله :

جدث حوى ما ضاق غمدان به ... من هالة الملك الجسيم وغابه
بنيان عمران وصرح حضارة ... فى القبر يلتقيان فى أطنابه
فترى الزمان هناك قبل مشيبه ... مثل الزمان اليوم بعد شبابه
وتُحِسّ ثَمّ العلم عند عبابه ... تحت الثرى والفن عند عجابه

ثم انتقل إلى مخاطبة كارنارفون :

نوهت فى الدنيا به ورفعته ... فوق الأديم بطاحه وهضابه
أخرجت من قبر كتاب حضارة ... الفن والإعجاز من أبوابه
فصلته فالبرق فى ابجازه ... يبنى البريد عليه فى إطنابه
طلعا على (لوزان) والدنيا بها ... وعلى (المحيط) وما وراء عبابه
جئت الشعوب المحسنين بشافع ... من مثل متقن فنهم ولبابه
فرفعت ركننا للقضية لم يكن ... (سحبان) يرفعه بسحر خطابه

ما هى إلا حركة صغار التلاميذ ، وهى شعلة سأطفئها ببصقة » ولا ننس أن برونيات هو الذى قال هذه الألفاظ النابية لرشدى باشا الذى ألقى عليه درساً قاسياً فى اللياقة وأدب الخطاب .ثم زعم أن الحركة الاستقلالية «ثورة غير جادة ، لأن الموظفين ـ وهم أرشد عنصر فى مصر ـ لم يساهموا فيها ، ولم يستجيبوا لدعاة الإضراب» ! و«أن الأقباط لم يشتركوا فيها» ! فكان رد الأقباط رائعاً وحاسماً ، ذلك أنهم أمعنوا فى البذل للوطن ، وخرج القسس والرهبان ينافسون المشايخ والعلماء فى الخطابة فى المساجد والكنائس (١) والمجتمعات والمنتديات العامة ، يحرضون على الثورة ، وينادون بالاستقلال التام لمصر والسودان ، وأن الوطن للجميع والدين للديّان ـ والله أكبر ـ المسيحىّ مسيحىّ فى كنيسته ، والمسلم مسلم فى مسجده ، وكلهم بعد ذلك أبناء لوطن واحد . . .

تلك صورة موجزة . .

وهنا يجىء دور الدكتور محجوب ووثبته القوية ، وحركته الدائمة وجهاده المثمر المتصل الحلقات ، واشتراكه البارز فى حركة إضراب الموظفين ، وهو الذنب الذى لم يغتفر له ، وحوسب عليه ـ فيما بعد ـ فى رزقه ومستقبله ، جناه ثمناً مراً من الإنجليز المحليين ، على أنه لم يندم ولم يسخط ، بل كان يذكر جهاده مستريح الضمير ، لأنه لم ين همة ، ولم يأل جهداً فى الجهاد .

لقد كان محجوب من أصحاب الدور الأول فى الدعوة إلى الجهاد ، وفى الرد على مزاعم اللورد كرزون ، رداً عملياً ناجزاً . هو أن يتخذ

---

(١) قال المرحوم الشيخ إبراهيم سليمان فى قصيدة له :

الشيخ والقسيس قسيسان وإن تشأ فقل هما شيخان

الموظفون يوماً يحددونه للإضراب العام الشامل عن العمل فى جميع أنحاء القطر . على أن تتناول حركة الإضراب جميع المصالح الحكومية ، لا يشذ عنها مستشار أو وزير أو قاض أو مهندس أو طبيب أو مدرس .

* * *

أقام محجوب نفسه محور ارتكاز ، ونقطة اتصال بين بعض كبار الموظفين فى القاهرة ، وبين موظفى الأقاليم ، وكان له عيونه ورسله . وقد رأيته وهو يغادر عيادته فى حى السيدة زينب ويجوب أنحاء العاصمة ، ويتصل بالموظفين على اختلاف مراكزهم ، فى منازلهم ، داعياً إلى الإضراب فى اليوم المحدد ، دائب الاتصال بسكرتير لجنة الوفد المركزية ، سيد الشهداء المجاهدين « عبد الرحمن فهمى بك » ، وخير من حمل القلم وأدى الأمانة الشهيد « أمين الرافعى بك » ، ومحمود سليمان باشا شيخ الحركة الوقور . وقد كان يعاونه فى هذه الاتصالات الوطنى « عبد الله سليمان أباظه بك » العامل الصامت الذى لم يعلن عن جهاده ، فلم يسترع الأنظار .

وكان أهم عمل قام به عبد الله بك هو الاتصال بموظفى الأقاليم ، غير أن العيون المبثوثة على المجاهدين لم تنتبه إليه .

* * *

كانت حركة محجوب كفيلة بالنجاح ، وإصابة الهدف فى صميم الدعاية المصرية المضادة للدعاية الإنجليزية ، فى الخارج والداخل ، وكان يراقب الحركة التى يبثها عن كثب ، فيعمل على تنفيذها ، ويوجهها عن أمم ، ويتطلع إلى انسياب تيارها ، قوى الثقة في مدى تغلغلها

فى أوساط الموظفين ...

وهنا لابد لنا من ذكر بعض الأحوال التى لابست دعاية محجوب، واقترنت بها - نثبتها للحقيقة والتاريخ - حتى لا يُنكر فضل أحد من المجاهدين غير محجوب، فنقول منصفين: إنه لما ترامت أنباء حركة الإضراب إلى المغفور له حسين رشدى باشا « ناظر النظار » (أى رئيس الحكومة وقتئذ) أوفد رسولا إلى الدكتور محجوب ينصحه بالتزام الهدوء والعدول عن الدعوة إلى الإضراب، لأن هذه الحركة ضارة، وستعرقل أعمال الحكومة وتعوقها عن السعى فى سبيل الاستقلال، فلم يقبل محجوب النصيحة ولم تُجْدِ معه المحاولة، بل ظل على نشاطه، متصلاً ببعض زعماء الحركة لتدعيم الإضراب.

ولما عاد إليه رسول رشدى باشا (١) مرة أخرى انتهره قائلا: « عد إلى سيدك وقل له افعل ما تشاء » .. ودأب على الاتصال بزعماء

(١) قال لى الدكتور فيما بعد: إن حسين رشدى باشا لم يكن جاداً فى محاولة حمل الموظفين على عدم الاضراب، إنما كانت أوامره صورية ذراً للرماد فى العيون المبثوثة فى مختلف المصالح من أمثال عبد الله صفير بك (باشا) وغيره من بعض المتمصرين. وكان من المعلوم أن العميد البريطانى قدم تبليغاً إلى الحكومة المصرية يطالب فيه بوجوب وقف إضراب الموظفين. لذلك كان رشدى يصدر أوامر علنية، ويوفد رسلا إلى كبار الموظفين يطالبهم بعدم السير فى طريق الإضراب، ويحذرهم من عاقبة النتائج التى ستترتب على الاضراب، ولكنه كان يغذى حركة الإضراب سراً.

ولا تنس يا بنى أن رشدى باشا انتهر المستر برونيات حينما أراد أن يقلل من مكانة الثورة المصرية فيصفها بإيحاء كرزون بأنها « حركة صغار

الحركة لتدعيم نظام الإضراب العام الشامل .

* * *

وقد كانت أمكنة الاتصال والاجتماع « فى الخفاء » ، موزعة بين طائفة من البيوتات الكريمة لتضليل الرقباء ، وكانت أهم معاقل هذه الاجتماعات السرية منازل كل من الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظه (باشا) (١) ومنزل عبد الهادى الجندى بك (باشا)(٢) ومنزل مراد الشريعى بك .

التلاميذ إلخ » ... ثم طرده من مكتبه (وكذلك روى لى محمد ابراهيم هلال بك) أن رشدى باشا كان يصدر الأوامر العلنية ، ويوفد رسله إلى كبار الموظفين من أناس ثانويين ليقلل من أهمية الأوامر التى كانت تصدر منه علناً ، ليسمعها الذين كانوا يتسمعون كل ما يقال ويعدون أنفاس المصريين فى المصالح الحكومية ويحصون حركاتهم . وهم من عنصر غير مصرى ، ولكنهم محسوبون على مصر ، يشغلون فيها مراكز حكومية . ومنهم المولود فى مصر ليس له وطن غيرها ، نبتوا فيها كما تنبت الحشائش الطفيلية ...

وقال محجوب : إنى عرفت وتحققت وتيقنت ووثقت أن رشدى باشا كان يؤدى مهمة وطنية ويقوم بدور فى الحركة الوطنية يجب أن يسجل ويعرف . وهذا واجب الأحياء نحو الراحلين .

(١) إبراهيم دسوقى أباظه (باشا) كان أول موظف قدم استقالته احتجاجاً على ضرب القرى المصرية بالمدافع . وحمل حمدى سيف النصر بك (باشا) على تقديم استقالته ـ وكان مديراً للجيزة ـ بعد ما نكل بأرمنى كان يعمل فى الجيش البريطانى كضابط ! وأساء إلى المصريين إساءات شتى ، وظل الأستاذ دسوقى يتربص به ، ويبث العيون حوله ، ويجمع الأدلة ضده ، إلى أن ضبطه متلبساً بتهم شائنة . وكانت استقالة الأستاذ دسوقى حديث الخاص والعام (قد تجد تفصيلها فى مذكرات الدكتور محجوب) .

(٢) كان عبد الهادى الجندى بك رئيساً لنيابة طنطا ؛ وهو الذى قام بالتحقيق فى قضية الاتفاق الجنائى . ثم اختاره المرحوم عبد الخالق ثروت باشا رئيساً

وهنا تهتف بنا أصوات مدوية من ذكريات الماضى المجيد، وتهيب بنا أن نذكر طائفة من أسماء أبطال الوطن، ومنهم المشكور فضلهم، ومنهم المجهول جهادهم، فى تلك المعركة الوطنية . فنجد فى أبرز مكان اسمى الصاحبين الحميمين « أحمد ماهر[1] ومحمود فهمى النقراشى » والطالب الخطيب المؤثر « شكرى كيرشاه » الذى كان يخيل إلينا وهو يخطب - داعياً إلى الإضراب لتفنيد مزاعم اللورد كرزون - أن النار

للجنة التحقيقات السياسية ، ثقة منه به ، وتقديراً لكفاءته . وتلك حسنة من حسنات ثروت باشا . وقد جنى ثمرها كثيرون من الوطنيين حيث رد عنهم كيد الكائدين الذين لفقوا ضدهم التهم الكاذبة ، وأثبت براءتهم . وكان فى عمله هذا لا يفرق بين شخص وآخر بل كان المثل الأعلى للقاضى العادل ، والمحقق المدقق النزيه والمستشار الذى لم يجعل لأحد عليه سلطانا غير سلطان القانون . وكان فوق نزاهته رحيما وكثيراً ما كان يدفع لخزانة المحكمة من جيبه الخاص الكفالة المالية التى يقررها ، وكان قبل أن يصدر قراره بحبس متهم يفكر طويلا . . . ولقد كان حقاً وطنياً شجاعاً ، وكان كريماً أريحياً .

(١) أحمد ماهر باشا والمؤلف ؟

نشرت جريدة الوادى بتاريخ ١٢ ابريل سنة ١٩٤٥ ما يلى :

« الزعيم أحمد ماهر »

« الأستاذ صالح عيسى السودانى من المجاهدين المبكرين فى الحركة الوطنية . والمؤرخ لحوادثها وأحداثها ، مطلع على دخائلها وأسرار زعمائها . وقد كانت فجيعة البلاد بموت الزعيم أحمد ماهر من العوامل التى أثارت وجدانه ، فكتب هذه الكلمة فى مذكراته عن الفقيد ، وهو لم يكن من حزبيته ولا من التابعين لمعسكره . ولكنه كتب عنه مخلصاً . فآثرنا أن ننشر هذه الكلمة ، لنعطى صورة عن مدى ما كان للفقيد « أحمد ماهر » من مكانة فى نفوس الذين لا ينتمون إلى حزبه السياسى »

« الجريدة »

والدخان يخرجان من فيه . والأستاذ الشاعر كامل الكيلانى ، والأستاذ لطفى المسلمى ، وقعيد كرسى الخطابة بالأزهر .

كلمة المؤلف :

« هل يريد الله لمصر أن تشقى بموت أحمد ماهر ؟

لو أن المفتون المجرم الأثيم صوب مسدسه إلى صدر خائن ما حمدنا له أن يكون خصما وحكما ومنفذا ، وما رضينا خيانته وغدره وجبنه ورعونته .

ولكن المجرم قتل الأمين القوى فى أمانته ، العظيم فى وطنيته ، الشريف فى تسامحه ، ومقصده ، وشرف قصده ، وبعد نظره ، وحبه لمصر : ملكا وشعباً .

فياللجد مصر العاثر ، ويا لسوء حظ مصر الثاكلة الحزينة على أبر أبنائها وأشرف زعمائها .

ولكن « لكل أجل كتاب » ... فاللهم لمصر صبرا .

اللهم « لكل أجل كتاب » .

مات أحمد ماهر رمز المجد ، عنوان الخلق ، مثال الشرف ، صنو العظمة الوطنية . مات فى ظرفنا الحرج ، وموقفنا المحرج . كان لمصر الربان الماهر ، والمتسامح القاهر .

أكان هذا يومه ليموت مقتولا ؟ فى وقت كان الوطن الحزين أحوج ما يكون فيه إلى وطنيته وإخلاصه ووافر تسامحه ! . ولكن « لكل أجل كتاب » .

تلك تعزيتنا إلى حد ما .

كانت العين جامدة ، فإذا بها تلين . وكان الدمع عصيًّا ، فإذا به يطيع ، ثم ينهمر ماء صافياً ، ثم دماً قانياً من صميم القلب حاراً ، ثم من الكبد ناراً وجمرا .

كنت أظننى كاتباً ، وفى القليل أديباً ، وعلى الأقل واصفاً . فلما فاجأنى نبأ الطامة الكبرى والمصيبة العظمى ، وجدتنى مذهولا ، ثم مصعوقا .

اللهم ارحم ماهراً ، وارحمنا .

لا حزن إلا دون ما أجد ... وهل كمن فقدت عيناى مفتقد ؟
لا يبعدنْ هالك كانت منيته ... كما هوى من غطاء الزبية الأسد

وغيرهم لم تع الذاكرة أسماءهم جميعاً ، أولئكم الأبطال الذين ملأوا ساحة الجهاد الوطنى بالجهاد العنيف ، وأروع الذكريات ، وأسخى

وأصبح الناس فوضى يعجبون له   ليثاً صريعاً تنزّى حوله النقد
إذا بكيت فإن الدمع منهمر   وإن ونيت فإن القول مطرد

عرفت الفقيد عقب الحركة الوطنية الثالثة سنة ١٩١٨ - سنة ١٩١٩ إلخ « باعتبار الحركة الوطنية الأولى : ثورة أحمد عرابى باشا . والثانية : هى نهضة المغفور له مصطفى كامل باشا مؤسس الحزب الوطنى . والثالثة : حركة سنة ١٩١٩. أذكر هذا من قبيل الانصاف المحض » .

وقابلته فى السجن ، فى حادث مقتل السير لى ستاك باشا . فكان رحمه الله يحيينى وأحييه . على أنى كنت ألمس فيه الشجاعة مصحوبة بالاطمئنان .

وعقب موقف معين لى مع كبير من المحققين (يعرفه جميع الذين اتهموا فى هذا الحادث) أرسل الفقيد إلىّ أحد المسجونين بتهنئة حارة ، لن أنسى معناها .

وإليكم ما يدل على ما جبل عليه الفقيد من التسامح واحترامه لرأى غيره ، مهما كان مخالفاً لرأيه .

قابلنى فى المرة الثانية صدفة ، وأنا أطالع مقالة كان قد دبجها يراعه حينما كان يشرف على تحرير « كوكب الشرق » ، فسألنى رأيى فيها ، فوقفت موقف المفند لما جاء فى مقاله من آراء . وإذا به يبتسم ابتسامة الرضا ، ويقول لى : « إنى أحترم نفسيتك الناقدة ، وآراءك الثائرة ، وإنه ليسرنى أن أجد من يجابهنى بحقيقة رأيه بلا مجاملة ولا رياء »

وهذه النزعة فيه على غير نفسيات غيره من الزعماء الذين تعودنا منهم الحقد على كل من لا يطاوعهم ولا يقف موقف المروّج لأقوالهم مهما كانت مجافية للحق .

والمرة الثالثة كان قد تلقى الفقيد منى معلومات لم يحن الأوان بعد لنشرها على الملأ ، فأرسل إلى من يستدعينى لمقابلته شخصياً . ولست أنسى أنه قبلنى فى جبينى قبلة الإخلاص والتقدير والوفاء الوطنى .

التضحيات ، وأشرف المواقف .

* * *

لقد بيّت الموظفون أمرهم ، وصمموا على الإضراب ، وحددوا يومهم ، وقالوا : « فليكن بعد ذلك ما يكون » . ومع أن رسول رشدى باشا فشل فى مأموريته ، فإن دولته أوفده إلى الشخصيات الكبيرة من الموظفين يستدعيهم لمقابلته ، وكان على رأسهم على ماهر بك (صاحب المقام الرفيع) ، وقد رفض رفضاً باتّاً أن يتوجه لمقابلة رئيس الحكومة ، ومحمد حلمى عيسى بك (باشا) ، وزكى العرابى أفندى (باشا) ، وعبد الحميد مصطفى بك (باشا) ، وصادق حنين (باشا) وأحمد شرف الدين أفندى (بك) ، وعاطف بركات (باشا) ، وغيرهم من رؤساء الإدارات وزعماء حركة الإضراب .

وكان سبب إضراب الموظفين ـ كما ذكرنا ـ تصريح اللورد كرزون الذى يتلخص فى : « أن شعور الموظفين مع الإنجليز ، ولذلك لم يشتركوا فى حركة الإضراب . وشعور الأقباط ضد الاستقلال » . وكانت النتيجة أن الموظفين أضربوا ، والأقباط ضاعفوا التضحية .

والمرة الرابعة فى « كلوب محمد على » قبيل اعتقالى بساعة فى عهد الوزارة النحاسية الأخيرة .

وكذلك لن أنسى ما دار بينى وبينه من حديث قوى لم يحن حين الافضاء به إلى الناس . .

رحم الله « أحمد ماهر » وأجزل له الجزاء لما أدى للوطن من شبابه وجهاده ودمه . . .

صالح على عيسى السودانى

فكانت مقالات سينوت حنا بك : « الوطنية ديننا ، والاستقلال حياتنا » .
ومذكرة الأستاذ مكرم عبيد (باشا) تلك المذكرة الرائعة القوية البليغة .
وخطب القمص سرجيوس ، والأب بولس غبريال والأب إلياس .
وإصرار الموظفين على إظهار شعورهم ، وأن يقيموا حجتهم قوية على أنهم وطنيون مصريون ، يشاركون أبناء وطنهم فى السراء والضراء ، وأنهم أول من يطالب بالاستقلال ، وأنهم حقًّا أرشد طبقات الأمة .

لذلك نجح الإضراب فى سائر المصالح الحكومية ، فى جميع أنحاء القطر ، ودام أكثر من أسبوعين .

فلما تلقى رشدى باشا التبليغ الشفوى من العميد البريطانى ، استدعى إليه زعماء الإضراب ، الذين ذكرنا أسماءهم ، فأجابوه ، إلا « على ماهر بك » فقد رفض رفضاً باتًّا إجابة الدعوة كما ذكرنا آنفاً .

وخاطبهم رشدى باشا بقوله : « إن الإضراب وخيم العاقبة ، ومعطل لمصالح الأمة ، وأنتم أبنائى ، (يشير إلى أنه كان وزيراً على أغلبهم فوق رياسته للوزارة) إنى أخشى أن يفلت زمام الأمر من أيديكم فتسوء العاقبة » . فأبى الزعماء فى أدب أن يصغوا إلى نصيحة رئيسهم ، ليتحقق القصد الذى هدفوا إليه ، وهو إعلان اللورد كرزون أن : « جميع الموظفين وطنيون محبون لوطنهم » . ولم يقفوا عند هذا الحد بل اشترطوا فى تصميم وعناد أن تعتزل النظارة (الوزارة) الحكم .

ويجب الاعتراف بالفضل فى هذا المقام لرجال الوزارة ، لأنهم قبلوا طلب الموظفين واشترطوا مقابل ذلك - من باب الرعاية لمصلحة الجمهور - أن يعود الموظفون لعملهم حتى لا تتعطل مصالح الناس ، وَقبل

الرؤساء ذلك منهم . وأطلعهم النظار على نص كتاب الاستقالة ، قبل ذهابهم إلى عظمة السلطان (الملك فؤاد) لتقديمها إلى عظمته . بعد أن أخبروهم أنهم مصرون على الاستقالة مهما تكن الظروف . وفعلاً تم قبولها . وعندئذ أوعز زعماء الحركة إلى الموظفين أن يعودوا إلى عملهم تحقيقاً لما تم عليه الاتفاق . وقد كان . . .

وبهذه المناسبة يجب أيضاً أن نذكر فضلا آخر لوزارة ذلك العهد التي كان رائدها الروح الوطني الخالص ، وهو أنه : لما طلب الإنجليز من الوزارة اعتقال زعماء الحركة ونفيهم بقصد إخماد فكرة الإضراب ، أبت الوزارة قائلة لهم : « إن رؤساء الإضراب هم زهرة الشبيبة المصرية ، فلا نقبل أن يهانوا ، ولا نستطيع تحمل مسئولية اعتقال زعماء الحركة ، وإذا عنّ لقوة أجنبية أن تعتقلهم ، فسنكون نحن في مقدمة الثائرين » .

تضامن وطني رائع

وحينما قررت الحكومة ، بإصرار اللورد أللنبي ، أن تقطع مرتبات الموظفين عن مدة إضرابهم كلها قبلوا ذلك في حماسة بالغة ، واشترطوا أن لا يعامل صغار الموظفين مثل معاملتهم ، فتأبى صغار الموظفين وأبوا أن يكونوا أقل وطنية من رؤسائهم . . . ولكن الرؤساء أقنعوهم أخيراً بقبول قطع المرتبات عن نصف المدة .

أرأيت أروع من هذا التنافس على المفاداة تقوم بين كبار الموظفين وصغارهم ، الكبار يشفقون على مرءوسيهم ، فلا يريدون لهم ظلماً ؛ والمرءوسون يصرون على أن تكون تضحيتهم مماثلة لتضحية الرؤساء ،

أربعة عشر يوماً كاملة ، لأنها تضحية مبذولة فى سبيل الوطن .

* * *

ظل رشدى باشا يواصل الاتصال بكبار الموظفين ورؤساء المصالح فى منازلهم . وكان الدكتور محجوب فى الوقت الذى كان يتصل فيه بهم رسول رشدى باشا ، ممعناً فى مطاردة ذلك الرسول ، فلما أتى هذا على آخر رحلته من الطواف ، انتهى إلى داره بمصر الجديدة ، إذا بالدكتور محجوب يطرق عليه بابه ، ويدعوه لمقابلته عاجلاً . وكان استدعاء الدكتور لمثل هذا الرسول فى تلك الأيام بمثابة أمر واجب التنفيذ وإلا . . .

فلما أن قابله ، قال له الدكتور محجوب ـ ولم يك عالماً بحقيقة نيات رشدى باشا الوطنية : « ماذا قال لك رشدى باشا لتبلغه إلى زعماء الحركة ؟ وماذا كان رد الذين اتصلت بهم ؟ » فأجابه الرسول : « كل الذين اتصلت بهم رفضوا العدول عن الإضراب ، وقالوا إنهم لا بد أن يردوا على « كرزون » و « برونيات » رداً فيه إظهار لكرامة الموظفين ومقدار وطنيتهم » . فانتشى الدكتور محجوب فرحاً بتغلغل روح الإضراب فى نفوس الموظفين .

لقد كان اضراب الموظفين من المواقف الحاسمة فى تاريخ الحركة الوطنيـة الكريمة ، وهى مقترنة بصفحة من جهـاد محجوب فى فجر تلك الأيام الثائرة ، نمر عليها كاشفين ، حتى لا تطمر فى مجاهل النسيان ، ولا تضيع فى جداول الإهمال ، نثبتها هنا للحقيقة والتاريخ ، فإنها ضرورة الذكريات المجيدة البهيجة .

ذكريات وطنية مطمورة

بين ثروت باشا والدكتور محجوب

كان المغفور له عبد الخالق ثروت باشا رئيساً للوزارة فى أثناء اشتغال « لجنة الثلاثين » بوضع الدستور . وفى ذلك الوقت أبلغ اللورد أللنبي المندوب السامى البريطانى ثروت باشا رغبة الحكومة البريطانية فى عدم ذكر « السودان » فى صلب الدستور وتمسكها بذلك .

وما أن أشيع هذا النبأ حتى كان الدكتور محجوب فى طليعة الغاضبين الثائرين . فسارع إلى الاتصال بثروت باشا وسأله عن حقيقة هذا النبأ ، فأجابه ثروت باشا بأن هذا الطلب قد تقدم به اللورد أللنبي حقيقة (١) . فقال له الدكتور محجوب : « وعلام عولت ياباشا ؟ » .

---

(١) روى لنا الدكتور محجوب نفسه هذه الرواية وقال : « إن المغفور له ثروت باشا اتصل وقتئذ بالمرحوم أحمد لطفى بك أحد أقطاب الحزب الوطنى والمحامى القانونى الضليع ؛ وكان المستر بوند والمستشارون الانجليز يلقبونه بصديق المحكمة لأنه كان يفتيهم فيما يشكل عليهم من أمر ، وكانوا يأخذون برأيه مسلماً . اتصل به ثروت باشا وأبلغه خلاصة ما دار بينه وبين اللورد أللنبي فيما يختص بمسألة إغفال السودان فى الدستور . ثم زاره فى مكتبه بميدان إبراهيم باشا (ميدان الأوبرا) وعرض عليه الرد . ولا تسل كيف كان اغتباط أحمد لطفى بك برد ثروت باشا .

وبعد ذلك توجه الدكتور محجوب إلى مكتب أحمد لطفى بك ..

فأجابه ثروت باشا قائلا : « اطمئن يادكتور ، فإنى لن أقبل أى مساس بالدستور ، ولا أى انتقاص من حق مصر فى السودان ولا حق السودان فى مصر باعتبارهما وطناً واحداً ، وإلا كنت خائناً لبلادى » .

عرف الدكتور محجوب ما اعتزمه « ثروت باشا » فى هذا الأمر الخطير . فقال له وهو مغتبط متحمس : « إن المصرى الذى يمس السودان فى مواد الدستور يجب أن تُقطع يده ، وسيكون هذا العمل وصمة فى جبينه وجبين أحفاده من بعده » . فأجاب ثروت باشا معقباً مؤيداً بقوله : « سيكون هذا ردى على المندوب السامى البريطانى . وأنا الآن أحضر الجواب ، وسأطلعك عليه فى القريب العاجل » .

وقد كان هذا رد ثروت باشا على المندوب السامى فعلا .

ولما كانت هذه المسألة من النقط الدقيقة فى تاريخ مصر السياسى ، وجب ألا نمر عليها مروراً عابراً ، بل لابد لنا من أن ننتهز هذه المناسبة لتسجيلها [1] ، لأنها اتخذت لها موضعاً بارزاً من جهاد الدكتور . فكان علينا أن نضيفها إلى تاريخه ، لأنها مسألة السودان الذى عاش محجوب ثابت وهو يدعو به رسالة وطنية حارة ، ومات ورجاؤه معاق بوحدة وادى النيل رجاء مصحوب بالايمان .

وصادف أن عاد ثروت باشا ومعه مظروف يحوى مذكرة برده على طلب اللورد ألنبي وقد أطلع الدكتور محجوب على الرد . وغادر الدكتور مكتب لطفى بك والدنيا لا تسعه من الغبطة والحبور .

(١) التزمنا الايجاز هنا بقدر ما تحتمل المناسبة . ولكننا إن شاء الله سنفرد لهذا الحادث فصلا فى كتابنا عن «أحداث مصر السياسية» نتناول فيه بالتفصيل والتحليل مسألة السودان فى الدستور المصرى وما اكتنفها من أحوال .

ولهذه المناسبة نقول : إن اللورد أللنبي كان قد طلب هذا الطلب من « عبد الخالق ثروت باشا » فى أثناء اشتغال « لجنة الثلاثين » بوضع الدستور وصياغة مواده . وكان رد ثروت باشا لبقاً فى نفس الوقت وبارعاً . فقد رد على اللورد قائلا له : « إنى لا أستطيع أن أطلب هذا ـ أى إغفال السودان فى الدستور ـ من أعضاء اللجنة ، ولاأشك فى أنهم سيتوقفون عن إتمام عملهم احتجاجاً على محاولة هذا التدخل . وقد نتحدث فى هذا بعد انتهاء اللجنة من وضع الدستور وهم خلاصة أبناء مصر ومنهم عبد العزيز فهمى بك (باشا) ، وعبد اللطيف المكباتى بك » .

وقد روى لنا الدكتور محجوب ثابت ما دار بعد ذلك من مناورات سياسية أظهرت وطنية ثروت باشا . فقال : « إن اللورد أللنبي أبلغ حكومته رد ثروت باشا وملاحظاته . فوافقت على ذلك الرأى ، خشية أن يمتنع أعضاء لجنة الثلاثين عن إتمام عملهم ، احتجاجاً على محاولة التدخل » . .

وقال : « أتمت لجنة الثلاثين عملها ووضعت الدستور كاملاً شاملاً ، مذكوراً فى صلبه « أن السودان جزء متمم لمصر ، وأن ملك مصر هو ملك السودان وحاكمه الشرعى » .

وفى اللحظات التى كان « عبد الخالق ثروت باشا » يتهيأ فيها لإعلان الدستور ، إذا باللورد أللنبي يستأنف طلبه أن يصدر الدستور غفلا من النص الخاص بالسودان ، مدعياً أن ثروت باشا كان قد وعده بهذا . فرد ثروت باشا على ذلك بأنه لم يعد ، ولم يكن ليستطيع أن يعد بهذا ، ولكنى كنت أوضح له أنه لايستطيع أن يتحدث فى هذا الشأن

مع أى عضو من أعضاء لجنة الدستور .

فأدرك اللورد أللنبى أن ثروت باشا قد خدعه ، وأنه أخذ منه لمصر ، ولم يعطه لبريطانيا . . وكانت النتيجة أن الحكومة البريطانية ـ وهى المغلوبة فى هذا الدور ـ لم تجد ما يشفى غليلها إلا الضغط على ثروت باشا وإحراجه . فقدم استقالته (وهى فى الحقيقة إقالة ، وقيل إن ثروت باشا قد استقال بموجب تبليغ) دون أن يجيب رغبة الإنجليز ، ولم يلوث يده ببتر المادة الخاصة بالسودان رحمه الله رحمة واسعة فقد أسىء إليه بقدر ما أحسن إلى أمته (١) .

وتسلم الحكم من بعده توفيق نسيم باشا . فبدأ عمله بأن استدعى إليه المرحوم « المصرى السعدى باشا » رئيس الوفد المصرى بالنيابة (٢) ، وأبلغه « أن الدستور سيصدر . وبطبيعة الحال سيفك اعتقال سعد وصحبه . وستجرى الانتخابات . وسيتسلم صاحب الأغلبية زمام الحكم ، وفقاً لقواعد الدستور . » تلك هى الرشوة التى قدمها نسيم باشا وقد نجح

ولكن نسيم باشا كان قد فعل فعلته ، وارتكب جريمته : إذ اجترأ على الدستور فحذف منه النص الخاص بالسودان . . .

ويتعين علينا هنا أن نذكر للحقيقة والتاريخ أنه عندما اجتمع مجلس الوزراء للنظر فى مسألة حذف المادة الخاصة بالسودان من الدستور ، وقف يوسف سليمان باشا يخطب معارضاً أمر الحذف ومما قاله : « إنى أعتبر نفسى مجرماً إذا أنا وافقت على حذف هذه

---

(١) سيجىء تفصيل الإساءة إلى ثروت فى كتاب (حوادث مصر السياسية)

(٢) كان المصرى السعدى باشا رئيساً للوفد بالنيابة ، لأن المغفور له سعد باشا كان منفياً .

المادة » . وكان يخطب وهو فى أشد حالات الانفعال النفسى ، ولمالم يؤخذ برأيه ، اعترته حالة من الغضب الشديد حتى لقد أغمى عليه ، وحمل إلى منزله .

وكان الدكتور محجوب حينما يسمع اسم يوسف باشا يقف إجلالا لاسمه ، وتقديراً لوطنيته الرائعة النادرة فى وطنية الرجال وليس هذا بالعجيب وهو الوطنى القبطى أى المصرى ...

بين محجوب ونسيم

روع الدكتور محجوب بما فعل نسيم باشا فلم يتوان فى كتابة خطاب شديد اللهجة إلى نسيم باشا رئيس الوزراء ، يتهمه اتهاماً صريحاً بالخيانة والتفريط فى حق الوطن . ومما جاء فى خطاب الدكتور هذه العبارة : « كنا قد اغتفرنا لك عدم التوقيع على عرائض «توكيل الأمة للوفد» أسوة بزملائك ، وقولك أثناء امتناعك : بأنك لم تصب بحمى الوطنية . ولكن جريمة اليوم ... لن نغفرها لك (١) » .

والعجيب أن نسيم باشا ـ بعد اجترائه هذا ـ قدم استقالته ، وغادر سلطان الحكم ومنصب الوزارة « الزائل » ، لاجئاً إلى داره ، وخلّف وراءه جسم الجريمة ممثلا فى « كتاب الدستور » المودع فى القصر مبتوراً منه السودان ! . فكأن مهمته كانت مقصورة على هذا العمل الشنيع ضد الوطن ، فلا هو بقى فى الحكم بعد هذه الفعلة ، ولا هو استقال دون ارتكاب الجريمة الوطنية الكبرى !

---

(١) لم يرفض التوقيع على التوكيل أحد سوى نسيم باشا وآخر . وسيجىء بيان تصرف نسيم باشا فى هذا الحادث فى كتابنا « أحداث مصر السياسية » .

حدثنا الدكتور محجوب وقتئذ ، عندما وقعت من نسيم باشا الواقعة . قال : « إن نسيم باشا حينما ارتكب هذا العمل إنما أدى مأمورية ينتظر عليها مكافأة آجلة . فهو يدفع للإنجليز الثمن مقدما »

بين محجوب ويحي إبراهيم

ظل الدكتور محجوب ثابت يردد اسم نسيم باشا موصوفاً بأشد النعوت طول حياته . وكان يحتدم غضباً كلما ذكر اسمه حتى بعد وفاته وذهابه من الدنيا غير مأسوف عليه .

ولما تولى الحكم الرجل الطيب حقاً وصدقاً المغفور له يحي إبراهيم باشا ، خلفاً لنسيم باشا ، وسأله الدكتور محجوب عن مصير السودان فى الدستور ، فأجابه بقوله : « يادكتور ، أقول لك والألم يحز فى نفسى : إنى تسلمت كرسى الوزارة ، وكذلك تسلمت الدستور فى السراى ، وبحثت عن السودان فيه ، فلم أجد له ذكراً . البقية فى حياتكم ، إبقوا ابحثوا عنه فى البرلمان [1] »

ولا تسل عما نزل بالدكتور محجوب من هَمٍّ ووجيعة فى ذلك الوقت العصيب . فقد أخذ يكتب المقالات الضافية عن السودان ووحدة وادى النيل . (انفردت بنشرها « جريدة الأهرام ») وكانت مقالات من نار ونور .

وظل الدكتور محجوب يصرخ فى كل مكان يغشاه ، وفى وجه

(١) يوم تولى يحي ابراهيم باشا الوزارة قال مثل هذا الكلام لأحد الصحافيين فى شرفة الكونتننتال ، ولعله مندوب جريدة المقطم .

كل زعيم يلقاه : « محال أن يقطع المخلوق ما وصله الله ... محال أن يُفصل السودان عن مصر ... ومحال أن يقبل ذلك المصرى السودانى ، أو السودانى المصرى... »

ولما أن التأم عقد مجلس النواب لأول مرة ، كان الدكتور محجوب يتغنى فى وجه كل من يقابلهم من الزعماء والنواب وسواهم ، بقول صديقه وخليله شوقى بك أمير الشعراء فى أرجوزته الرائعة الخالدة : « توت عنخ أمون والبرلمان ».

قم سابق الساعة واسبق وعدها   الأرض ضاقت عنك فاصدع غمدها
واملأ رماحاً غورها ونجدها   وافتح أصول النيل واستردها
شلّالها وعذبها وعِدّها   واصرف إلينا جزرها ومدها
تلك الوجوه لا شكونا فقدها   بيضت القربى لنا مسْودّها

وهنا كنت ترى « محجوباً » قد انتشى بخمر الوطنية ، فكنت تسمعه يزأر كلما ردد تلك الأرجوزة متحمساً مندفعاً : « أجل ، أجل . بيّضت القربى لنا مِسْودّها . إن سواد بشرة السودانى فى نظر شقيقه المصرى السودانى هو سواد العين وسويداء القلب ، ألا فليعلم من لا يعلم أن تجفيف النيل ، أو تحويله إلى القارة الأوربية ، أهون من فصل السودان « الابن » عن أمه « مصر » .

٭ ٭ ٭

وقد لا يعلم الكثيرون من أبناء هذا الوطن العوامل التى حدت بالقائمين على أمر الترشيحات البرلمانية لمجلس النواب الأول (سنة ١٩٢٤) ـ عقب صدور الدستور المبتور المجنى عليه وهو جنين ـ إلى

إغفال ترشيح الدكتور محجوب ! . ذلك أنه كان معلوماً أنه سيجعل من نفسه ممثلا للسودان فى البرلمان ، وفى نفس الوقت كان معروفاً ومستقراً فى الأذهان ، أنه سيطالب بترك مقاعد خالية بمجلس النواب (رمزية) على أن تملأ فى المستقبل بنواب من السودان . . . وكان معروفاً أن مصر مقبلة على مفاوضات يتولاها ممثلو الأمة الرسميون مع الحكومة البريطانية ... فخيف أن يكون لثورات الدكتور ونداته باسم السودان فى مجلس النواب - لو مكنوه من دخوله - ما يعكر جو التفاهم الذى كان مرغوباً فيه فى ذلك الحين .

ولرغبة سعد زغلول باشا فى هذه المهادنة - المؤقتة - من جانب الدكتور محجوب ، اختار لإقناعه الرجل الوطنى المجيد المرحوم عبد الله سليمان أباظه بك ، أحد أبطال الجهاد الوطنى ، فاستطاع أن يقنع الدكتور محجوب بالعدول عن ترشيح نفسه إلى ما بعد المفاوضات .

فلم تكد تخلو دائرة مينا البصل سنة ١٩٢٦ — ١٩٢٧ حتى بادر الدكتور محجوب بترشيح نفسه فيها ، وانتخابه نائباً عنها ، ولقد شرّفها كما شرّفته .



بين محجوب

وستاك باشا حاكم السودان الأسبق

فى إحدى زيارات « السير لى ستاك باشا » للقـــاهرة اتصل به الدكتور محجوب ثابت بدعوة منـه بواسطة شاعر النيـل المغفور له « حافظ إبراهيم بك »، وما أن دار الحديث بين « السير » وبين الدكتور « محجوب » حتى أفاض الدكتور فى الحديث عن السودان ، وعن القبـائل العربيـة الأشـاوس الضاربة فى ربوعه وقيعانه .

و « السير لى ستاك » مأخوذ ومعجب بسعة معلومات الدكتور محجوب ، الذى أخذ يذكر له أسماء القبائل العربية ، وبطونها ، وأفخاذها ، وأنسابها ، وتواريخ نزوحها إلى السودان ، وحوادثها ، وحروبها ، ومزايا كل منها . ثم أبناء عمومتها القاطنين فى مصر ، والشام ، والعراق ، ونجد ، والحجاز ، واليمن .

وانتقل الحديث إلى تاريخ النوبة ، وبنيها ، وأبناء عمومتهم فى الديار العربية عامة ، وفى السودان خاصة . فإذا بالسير لى ستاك يطلب ورقاً ويدوّن ما يقوله الدكتور محجوب .

النوبيون وتاريخ النوبة[1] .

ولما سأله السير لى ستاك باشا عن الأصل الذى ينحدر منه النوبيون ، ولماذا يلقبون فى مصر « بالبرابرة » ، أجابه محجوب قائلا :

« إن النوبيين من ثلاثة عناصر » . وهم :

أولا ـ أبناء النوبة الأصليون من أحفاد الشعوب الأثيوبية والبَجَة . ومن هؤلاء من تجرى فى عروقهم دماء الفراعنة الأقدمين . وكان هؤلاء يدينون بالمسيحية إلى ما قبل الفتح الإسلامى . فلما استقرت أقدام العرب فى مصر ، أرسل فاتحها « عمرو بن العاص » ـ القائد العام ـ « عبد الله بن أبى سرح » أحد قواده إلى النوبة يدعو أهلها إلى الإسلام . فلما لم يلبوا دعوته ـ بادىء ذى بدء ـ قاتلهم وقاتلوه قتالا شديداً ، فلما تغلب عليهم وكسر شوكتهم ، تظاهروا بانتحال الدين الإسلامى . وعندئذ ترك فى بلاد النوبة مَن يعلمهم أصول الإسلام وقواعده . ثم كرّ عائداً إلى « الفسطاط » . غير أنه فوجىء عقب عودته بنبأ ارتداد النوبيين عن الإسلام ، بعد أن قتلوا الذين خلّفهم لتلقينهم مبادىء الدين الجديد . فعاد ابن أبى سرح إلى النوبة ، وقتل من المرتدين خلقاً كثيراً . فلما أن ضعفت شوكتهم تظاهروا بالإسلام مرة أخرى . وبعد عودته إلى مقر القيادة بالفسطاط نكّلوا بمن تركهم ليعلمهم أمور الدين . وعادوا إلى النصرانية بعد أن قتلوا خلفاءه فيهم . فرجع إليهم

---

(١) الذى ترجم هذا الحديث للمؤلف هو المغفور له « حافظ إبراهيم بك » ثم وافق عليه الدكتور محجوب .

ابن أبي سرح مغيظاً محنقاً . وفي هذه المرة أشبعهم قتلا وتنكيلا ، ثم خيّرهم بين الإبادة على بكرة أبيهم ، وبين اعتناق ملة الإسلام ، وذلك بعد أن هدم معابدهم .

وقال الدكتور : « إن العرب لم يرغموا طائفة على انتحال الإسلام غير النوبيين في وادى النيل . ذلك لأنهم في سبيل تمسكهم بدياناتهم المسيحية كانوا يعذبون من يعلمهم أمور الدين الجديد عندما تجلو القوة عنهم ، ويعودون إلى دينهم الأصلي بعد هدم المساجد وإحراقها . فلما تكرر ذلك من بنى النوبة عاد إليهم ابن أبي سرح ، وتحت إمرته أشد القبائل مراساً . فأسكنهم بلاد النوبة ، حتى لاتتكرر الثورة .

ومن هنا كانت أغلبية أبناء النوبة من أحفاد العرب المجاهدين ، أضف إليهم قبائل العرب الذين نزحوا من الحجاز إلى الغرب . ومن الغرب إلى النوبة ، وانضموا إلى أبناء عمومتهم ، ثم حاربوهم ، فلما انتصر عليهم أبناء عمومتهم ، وهم السكان القدامى من العرب ، نزحوا إلى السودان واستوطنوا بلدة « سكُّوت » ، وهم يلقبون هناك « بالجابُرْكِّى » لرجوعهم في النسب إلى « جابر الأنصارى » . أما أبناء عمومتهم الذين لا يزالون في أرض النوبة ، ويلقبون « بالتُّنُكِّى » ، وهم «الغَرْبِيياب» ، فهؤلاء هم الذين جاءوا من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى ديار النوبة ، وهم باقون إلى وقتنا هذا ، ولهم مكانتهم في تلك الأرجاء . أضف إلى هؤلاء أبناء العرب من بنى أمية ، الذين نزحوا إلى النوبة تخلصاً من اضطهاد بنى العباس لهم ، ومطاردتهم إياهم ، فألقوا عصا الترحال في أرض النوبة .

ثانياً - ومن الذين يقطنون الديار النوبية « الكُشّاف » ، وهؤلاء هم أبناء الأتراك وأحفادهم ، نزحوا إلى النوبة فى عهد « السلطان سليم » .

ثالثاً - وفى النوبة أبناء الشراكسة ، والمماليك ، الذين تمكّنوا من الفرار من وجه محمد على الكبير الذى أباد أكثرهم . . .

كل هؤلاء تأقلموا ، فأصبح لون بشرتهم نحاسياً - بحكم الجو والبيئة - بعد أن كان أبيض ناصعاً . ومن هؤلاء كثيرون نزحوا إلى السودان فاتخذوه وطناً .

وأما سؤالك : لماذا يلقبون أبناء النوبة فى الخرطوم ، ودنقلة ، وسكوت ، وحلفا ، والتوفيقية ، ودبَرَوَسه ، واشكيت ، ودبيره ، وقسطل ، وَفَرَس ، وبلاّنه ، وتنقاله ، والدر ، وعافية ، وتوماس ، وفَرِّيق وأبو سنبل ، إلى آخر أسماء هذه البلاد حتى تصل إلى شلال أسوان . إن سبب تلقيب أبناء هذه الأصقاع « بالبرابرة » هو الجهل الذى لا يغتفر للمتعلمين من أبناء وادى النيل بهذه الحقائق .

ومعنى كلمة «النوبة» باللغة المصرية القديمة « بلاد الذهب » ، وهذا هو السبب الذى جعلهم يسمون الديار النوبية المتاخمة لشلال أسوان « بالكنوز » ، وأبناء عمومتهم بالبلاد الكنزية يقطنون « دنقله » ، ومنهم « محمد المهدى [1] » صاحب الثورة المهدية المعروفة . أما بنو عمومة أبناء النوبة النازلون بين « كرسكو وحلفا » فأكثرهم يسكنون فى « سكوت »

ولقد كانت الديار النوبية فى عهد الفراعنة إلى ما قبل الفتح

---

(١) محمد المهدى من بلدة كشتمنة بجوار أسوان .

الإسلامى من أهم أقاليم وادى النيل ، من حيث الحضارة ، والرقى ، والذكاء ، والمكانة الحربية[1] . وفى وادى النوبة من الآثار الخالدة معبد « أبى سنبل » التى تضارع الأهرام بقيمتها التاريخية ، ولا يقل معبد أبى سنبل شأناً عن آثار الأقصر ، من حيث التهاويل والتصاوير والمواقع الحربية الفرعونية المنقوشة على جدرانها . وهذه الصور الحربية مثبتة كتابة وتصويراً ، وكأن ريشة المصور قد رفعت عنها فى التو والساعة . وما أبرع ما يقول شوقى فى هذا المعنى :

صــور تريك تحركاً والأصل فى الصور السكونْ
ويمر رائــع صمتها بالحس كالنطق المبــين
صحب الزمان دهانهــا حيناً عهيداً بعد حـين
خـدع العيـون ولم يزل حتى تحــدّى اللاّمســين
غض على طول البلى حىّ على طول المنون

ما أفخم الآثار ، وما أبدع الشعر ، وما أروع الحديث !!!

لا برابرة على ضفاف النيل !

واستطرد الدكتور محجوب يحدث السير لى ستاك باشا ، الذى كان مأخوذاً بروعة حديثه وسعة معلوماته التاريخية وقال :

— ليس على ضفاف النيل من منبعه إلى مصبه من يصح أن يلقب بالبرابرة ، فأبناء النوبة هم الفريق الذى لا يصح أن يستهان به من

(١) جاء زمان كان للنوبيين فيه دولة شديدة المراس ، قوية الشكيمة ، حكمت مصر وسودانها ، وامتد سلطانها إلى بابل . والنوبيون هم الذين طردوا الهكسوس من مصر .

أبناء وادى النيل . وهم من أكثر أبناء هذه البلاد أمانة ووطنية وكرامة . أما قبائل البربر ، أو البرابرة ، فهم هنا على حدود مصر الغربية ، فيما يلى الأقاليم الساحلية لشمال أفريقية . أما سبب تلقيب أبناء النوبة ـ خطأ ـ بالبرابرة ، فذلك لأنهم يتحدثون بعضهم مع بعض بلهجة من لهجات اللغة المصرية القديمة فضلا عن لهجات أخرى كثيرة مختلفة . . . ولهم أسلوب اصطلاحى[1] يتعارفونه فيما بينهم ، لا يفهمه بقية أهل مصر .

لن تقطع أوصال وادى النيل

ثم قال الدكتور محجوب للسير لى ستاك باشا : « محال أن يستطيع مخلوق قطع أوصال النيل . وعلى الرغم من أنكم ألغيتم الجيش المصرى سنة ١٨٨٣ ، ثم أجبرتم مصر وأكرهتموها على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، ثم غذيتم الثورة فى السودان بأساليبكم وأموالكم ، وفى الوقت نفسه غللتم يد الحكومة المصرية عن إخماد الثورة المهدية ، وكنتم تلقون فى أتون الفتنة الملتهبة بالحطب والزيت والبترول ، كل ذلك كان بناء على خطة مرسومة لتبرير اشتراككم فى إخماد فتنة أشعلتموها لتتخذوا ذلك الاشتراك ذريعة لابتلاع السودان مضافاً إلى

---

(١) أما كتابتهم وعبادتهم فباللغة العربية ، وهذا الأسلوب الاصطلاحى الذى يتفاهمون به فيما بينهم خليط من الألفاظ الفرعونية والعربية وبعض كلمات بقايا الشعوب الأثيوبية والبجة ، فمثلا هم يسمون البقرة « تى » ومعنى هذا بالفرعونية واللغة المصرية القديمة « البقرة المقدسة » ويسمون الماء فى إحدى اللهجات النوبية « أمنجا » ومعناه « الماء المقدس » .

احتلالكم مصر . إنكم إذ تحاولون ابتلاع السودان ، تخشون أن تفلت مصر من أيديكم بحكم أحوال قاهرة ، لتقبضوا على عنقها باحتلالكم السودان وإلا فكيف نفسر غَلَّكم ليد مصر عن إخماد الفتنة المهدية ـ بادىء ذى بدء ـ ثم إرغام مصر على تجنيد بنيها لإخماد الفتنة المهدية ، فيما سميتموه « فتحاً » من جانبكم وجانب مصر . مع أنكم كنتم أنتم النار والحطب والمطر ، والوحى والإيحاء . فالمسألة كلها منكم وإليكم . والتبعة التاريخية إنما تقع على عاتقكم ، وسيكون لها تأثيرها فى المستقبل البعيد ، وسيجىء اليوم الذى لن يصدقكم فيه شعب ، ولن تثق بكم أمة ، فاحذروا ذلك اليوم » .

ولما سأله السير لى ستاك باشا : « كم من السنين تُعدُّ لذلك اليوم ؟ » . أجاب الدكتور محجوب : « قد تكون خمسين عاماً ، أو حرباً ، أو حربين ! ! وبعد ذلك لن تستطيعوا السير على هذا الدرب »

سياسة الإنجليز فى فصل السودان عن مصر وفصل شماله عن جنوبه

ثم قال الدكتور محجوب للسير لى ستاك باشا : « إنكم تعملون على فصل السودان عن مصره ، وفصل شمال السودان عن جنوبه ، تنفيذاً لخطة مرسومة ، هى خطة « مؤتمر المبشرين » الذى عقد فى لندن سنة ١٩٠٩ ، ونصح لكم رئيسه بتمكين المبشرين البروستانت من تسهيل مهمتهم . وهو الذى قال لكم ما معناه : « مادمتم تمكّنون تاجراً سودانياً من أهل الشمال من التوجه إلى أهل الجنوب . فإن ما يعمله هؤلاء المبشرون

فى خمس سنين يُضيِّع أثره التاجر الشمالى فى شهر واحد [1]، وإن ذهاب « أورطة » سودانية من أهل الشمال إلى الجنوب يقضى على مجهود المبشرين عشرين سنة فى بضعة أيام، وذلك لأن الوثنى من أهل الجنوب يستمع للقرآن كما نستمع نحن لآلات الطرب، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن لأهل الجنوب استعداداً طبيعياً لتقليد أهل الشمال بحكم جامعة اللون، ثم بحكم بساطة الديانة الإسلامية غير المعقَّدة. ولعل سبب ذلك كون الإسلام دين البداوة، دين الفطرة، طلع نوره من الصحراء »

إيحاء رئيس مؤتمر المبشرين

وقال الدكتور محجوب للسير لى ستاك باشا :

« إنكم تعملون بإيحاء رئيس مؤتمر المبشرين فى تؤدة. ولكنكم لن تستطيعوا أن تقطعوا ما وصله الله ».

ثم استرسل فى قوله : « وفى سبيل تنفيذ خطة المؤتمر التبشيرى والعمل بنصائحه، أخذتم تروجون فكرة أن هناك فارقاً بين مصر وجنوبها، أى السودان، لفصل مصر عن سودانها. وتعملون فى الوقت نفسه على فصل شمال السودان عن جنوبه. تزعمون أن أهل الشمال من أصل يجمع بين العنصر العربى والعنصر الفرعونى وبقايا أبناء الفراعنة الذين نزحوا إلى السودان قبل الإسلام، وأن أهل « جنوب السودان » من الوثنيين

(١) ما زال أهل الشمال ممنوعين حتى الآن من الاختلاط بأهل الجنوب عملا بهذه السياسة. وأخيراً قد أنشأوا مجلساً سموه بالمجلس الإستشارى لشمال السودان دون الجنوب فى عهد الوزارة النحاسية وقد احتج المؤلف على سكوت النحاس احتجاجاً شديداً ووزع صورته على جميع رؤساء الأحزاب.

الذين لا تجمعهم بأهل « شمال السودان » جامعة . وفعلا أخذتم تروّجون لهذه الأفكار .

« ما هذا ياسيدى ؟ تزعمون أن لا علاقة بين مصر وسودانها ،لتفرقوا بين الأخ وأخيه ، والوطن وشطره ، والروح وجسده !.. فإذا لم تكن هناك جامعة بين مصر والسودان ، فأية جامعة بين انجلترا ومصر ؟ وأية جامعة تجمع بين انجلترا وبين السودان ؟ أهى جامعة الدين ؟ أم جامعة اللون ؟ أم جامعة الجغرافيا ؟ هل حدود لندن متصلة بحلفا بدل مصر ؟ هل هناك بحر أو محيط بين مصر وسودانها ، أو السودان ومصره ، يجعلهما قارتين ، أو قطرين منفصلين ؟ أم أن روافد النيل تستمد مياهها من التاميز[1] ؟

تقول السياسة الانجليزية ـ بل قوتها المسلحة ـ وفضتها وعسجدها : إن مصر شيء والسودان شيء آخر ، وإن شمال السودان شيء والجنوب شيء آخر .

عجباً ، عجباً ! . ذلك ما ادعيتموه ، وستزعمونه يوماً ما ! . إنى أتنبأ بذلك .

الرد على المزاعم البريطانية

قال الدكتور محجوب وهو يحدث السير لى ستاك باشا :

ـــ تقولون إنكم اشتركتم فى فتح السودان ، وعملتم على تقدمه ، وتذكرون فى خلال كلامكم « الرأى العام البريطانى » ! كأن هذا الرأى العام نصبكم بأمر من الله خلفاء فى أرضه ! وفوضكم الله والرأى العام البريطانى فى تقديم التقارير بوجوب معرفة الفرق « بين مصر الدلتا ومصر

---

(١) لعل عدم إنشاء سكة حديد بين أسوان ووادى حلفا مرجعها إلى هذه الفكرة ، فكرة فصل السودان عن مصر . هذا من كلام الدكتور فى مناسبة أخرى

العليا » أي السودان ؟ فإذا كان الشعب البريطانى قد كلفكم هذا جدلا ، فلماذا لم يكلفكم تقديم التقارير عن الجامعة التى تجمع بينكم و بين مصر ، و بينكم و بين السودان ، ثم بينكم و بين الهند ؟ فما الذى تستطيعون أن تبرروا به احتلالكم لمصر واستعماركم للهند ؟ . وماذا أنتم قائلون لهذا الرأى العام البريطانى ؟ إذا سألكم الشعب البريطانى : ما هى الجامعة الجنسية أو اللغوية التى تجمعكم بمصر حتى تظلوا فيها فبماذا تردون ؟ وإذا سألكم : ما هى جامعة اللون أو اللغة التى تجمعكم بسودان مصر فبماذا تجيبون ؟ وإذا سألكم لماذا تظلون فى الهند ، أللتوفيق بين الهندوس والمسلمين ؟ عجباً هل الشعب الإنجليزى هو الذى يخدع الحكومة الإنجليزية ، أم الحكومة هى التى تخدع الشعب ، أم أن كلا منهما يخدع الآخر ؟ .

لماذا جئتم إلى مصر ؟ !

لماذا جئتم إلى مصر ؟ زعمتم أنكم جئتم لتحموا الخديو من الشعب وزعيمه عرابى الذى ظلمتموه ، وشوهتم تاريخه عمداً [1] وعاونكم فى ذلك بعض المصريين من صنائعكم الذين ليسوا من أصل مصرى . ولما توفى الخديو توفيق وتولى بعده « الخديو عباس حلمى الثانى » الذى أيده الشعب وأحبه ، وأحب الشعب وأيده . ولاشك أنكم تسلمون ـ على الأقل ـ بأنه لم يكن هناك خطر من الشعب عليه . إنما كان الخوف منكم عليه ، حينما تضامن الشعب معه وتضامن هو مع الشعب فى المطالبة بالجلاء ،

(١) فليعذرنى القارىء إذا وجد تقديماً أو تأخيراً فى سياق الحديث . إنما أنا أروى كلام الدكتور محجوب والمرحوم حافظ إبراهيم بك كما قيل لى ، رواية لا تصرف فيها ، إبقاء على الحقيقة والتاريخ أن يشوها « المؤلف »

أوَ لم تهددوه بمنعه من الوصول إلى عاصمة بلاده حينما أبدى ملاحظة عسكرية فى استعراض الجيش المصرى فى حلفا ـ أى جيشه ـ فاعتبرتم ذلك إهانة لحقت بالجيش البريطانى ، لأن سردار الجيش المصرى بريطانى [1] ، وهددتموه بالخلع إذا لم يعتذر ؟!!

كنتم تزعمون أنكم جئتم لتوطيد عرش والده ، فإذا بكم تهددون ابنه لأتفه الأسباب ، وأخيراً ظللتم تتربصون به الدوائر حتى انتهزتم فرصة حرب سنة ١٩١٤ فخلعتموه ، بإيعاز من رجلكم اللورد كتشنر ، عدوه اللدود ، الذى قيل إنكم أغرقتموه لأمر ما ولسر غامض ! » .

وهنا فغر السير لى ستاك فاه دهشة وعجباً من إلمام الدكتور بكل هذه المعلومات واستطرد الدكتور : « ومن قبل أجبرتم « الخديو توفيق » الذى احتللتم مصر بحجة حمايته ، واشترطتم أن يكون محامو عرابى من الإنجليز . فلما رفضت الحكومة المصرية هذا الطلب ، بشدة قائلة : إننا نفضل عن ذلك أن تأخذوا عرابى وتحاكموه بأنفسكم أرسلتم إنذاراً إلى من جئتم لحمايته ، فى زعمكم ، وهذا نصه[2] : « ليس هذا أوان ظهور الحكومة المصرية بمظهر المعارضة والممانعة ، وإن استمرارها على الإباء يعرضها للفشل والخطر . ولا تكون النتيجة مقتصرة على النظارة (أى الوزارة) وحدها ، بل تتناول مركز الخديو نفسه !!! وإذا لم تقبل الحكومة المصرية طلب الحكومة الإنجليزية ، فلا

---

(١) اللورد كتشنر .

(٢) هنا أخرج الدكتور محجوب من حافظة نقوده وريقة كانت مكتوبة باللغة الانجليزية فيها نص الانذار المذكور وتلاه على سمع السير لى ستاك باشا .

يسعها إلا أن تتحمل تبعة ما يترتب على رفضها من النتائج السيئة، بعد انقضاء ثمانية أيام على هذا الإنذار [1] ».

إنكم جئتم إلى مصر، لا لحماية عرش الخديو كما ادعيتم، بل لاحتلال مصر وسودانها، واحتلال السودان ومصره، فى آن واحد! ولم تدخلوا مصر لحماية الخديو كما ادعيتم، بل لإضعافه، واستغلاله، واتخاذه آلة فى أيديكم!! . والدليل على ذلك أنه لما قدم « رياض باشا » استقالته محتجاً غاضباً، لتمسككم بأن يكون محامو عرابى من الإنجليز وجهتم إنذاركم هذا .....

---

(١) المؤلف: ماأشبه الليلة بالبارحة - كما يقول طرفة بن العبد - فهذا نص التبليغ البريطانى إلى الخديو « توفيق »، وهو إنذار ليس بينه فرق وبين الإنذار البريطانى الذى وجهوه إلى جلالة « الملك فاروق » فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ - نقلا عن المغفور له أحمد ماهر باشا عقب تولى مصطفى النحاس باشا والوزارة، هذا نصه: « تود الحكومة البريطانية أن تؤلف وزارة يرضى عنها النحاس باشا، وإذا لم أعلم (أى السفير البريطانى) أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فى تمام الساعة السادسة من مساء اليوم، فان الملك « فاروق » وحده يتحمل تبعة ما يحدث ».

تراجع مذكرة محمد محمود خليل بك فى الدستور.

راجع فصل لمبسون فى هذا الكتاب.

انظر إلى الانذار البريطانى فى عهد سمو المغفور له الخديو « توفيق » الذى جاءوا لحمايته! وقارن بينه وبين الانذار البريطانى الموجه إلى حضرة صاحب الجلالة الملك « فاروق »، وقد كان موقفه وطنياً رائعاً. هل ترى - أيها المصرى - بينهما فارقاً؟! وهناك طائفة أخرى من الانذارات بعد إنذار ٤ فبراير، ساعدت الوزارة التى تولت الحكم بموجبه على البقاء فى مناصبها من سنة ١٩٤٢ إلى أواخر سنة ١٩٤٤ .

إنكم دائماً تظلمون إرادة الشعب البريطانى، وتنسبون إليه ما لم يفكر فيه. كلما أردتم أن تبرروا أمراً، أو تبتلعوا حقاً.

الله أقوى وأكبر

إن الجامعة بين مصر وسودانها، والجامعة بين السودان وشماله، هى من «صنع الله». أما الجامعة التى تودون أن تجمعوا بها بين انجلترا والسودان ـ الشطر المتمم لمصر ـ فيد الاستعمار هى التى تحاولها ـ ولكن يد الله فوق يد الاستعمار، وإرادته فوق إرادتكم، وقوته فوق قوتكم... إن الله أقوى وأكبر... السودان لمصر، ومصر للسودان [1]...

ثم قال: إنى لا أسلم بأن هناك مشكلة تسمى «مشكلة السودان» ولا قضية تدعى «قضية السودان»، لأن وجود انجلترا فى مصر والسودان، إنما هو بحكم القوة وحدها، وسيجىء اليوم الذى يتحرر فيه النيل ـ من منبعه إلى مصبه ـ إن شاء الله.

تقولون ـ بحكم القوة والقهر ـ: إنكم شركاء مصر فى السودان. لأنكم اشتركتم فى فتحه! لا يا سيدى. إن مصر لا تعتبر نفسها فاتحة السودان، بل أعادت النظام فى أرض هى شطر منها اختل فيها

---

(١) وتصادف فى هذه اللحظة مرور بعض الجموع المتظاهرة تردد الهتاف «السودان لمصر». فنهض الدكتور محجوب من مجلسه مع السير لى ستاك باشا وخرج إلى المتظاهرين منادياً فيهم بقوله: «لا يكن هذا هو النداء، بل قولوا: السودان لمصر ومصر للسودان». وبعد أن أخذ المتظاهرون سبيلهم، عاد إلى مجلسه مستأنفاً حديثه.

الأمن ، وهل إذا قامت فتنة فى الاسكندرية أو دمياط أو الغربية ، وأرسلت الحكومة المصرية تجريدة عسكرية لإخماد تلك الفتنة ، وإعادة النظام إلى نصابه ، يصح أن يقال إن مصر فتحت تلك المناطق ؟ إذن فادعاؤكم بأنكم اشتركتم فى فتح السودان مع مصر إنما هو لتبرير أن الفتح هو أساس الشركة . إنكم صرحتم مراراً فى ربوع السودان بأنكم قدتم (١) الجيش المصرى باسم مصر ، وبجنود مصر ، وأموال مصر . قلتم ذلك لفرنسا (٢) لتحولوا بين أحد قوادها وبين احتلاله إحدى المدن السودانية المصرية .

وخلاصة القول : إن مصر لا تعتبر نفسها فاتحة للسودان ، وإنما أعادت النظام فى أقاليم مصرية نشبت فيها فتنة . فأنتم تحتلون مصر بحكم القوة ، مثلكم فى هذا مثل الذئب مع الحمل . ولعل جنابكم تعلمون قصته وما فيها من عظة فى التشبيه والمماثلة .

* * *

عندما انتهى الدكتور محجوب إلى هذه المرحلة من حديثه طلب السير لى ستاك تابعَه وأمره بإحضار حقيبة أوراقه . فأخرج منها مئات من بطاقات التهنئة يَرُدُّ بها الضباط المصريون على معايداتهم

قال السير للدكتور : « لقد درجت على أن أرسل فى كل عيد إلى الضباط بطاقات تهنئة وأقول لهم إنه يسرنى أن أنتهز هذه الفرصة لإبداء استعدادى

(١) يشير إلى حادثة فاشودة ، وما حدث بين مارشان وكتشنر .

(٢) حادثة فاشودة .

لتقديم خدمة ، وأن أتلق فى ردهم ما يشكون منه . فكان أكثرهم يطلب نقلهم إلى مصر . . . . » .

فأجابه الدكتور محجوب على الفور :

« إن ذلك راجع إلى أنكم تسوّدون عليهم أبناء جلدتكم [1] ، وتضعون من شأنهم أمام مواطنيهم السودانيين . ثم إنكم دأبتم على أن تصدروا أوامركم إلى مرءوسيكم من مأمورى المراكز بإصدار الأحكام والأوامر القاسية على السودانيين . وحينما ترفع إليكم هذه الأحكام للتصديق عليها ، تخففونها ، أو تلغونها . ولعل كل ذلك تنفيذ لسياستكم المرسومة ، لِتَظْهَروا أمام السوادنيين بمظهر المشفقين . ولِتُظْهِروا الضباط المصريين فى مظهر القساة القلوب ، الغلاظ الأكباد . . . .

عجباً لهذه السياسة ، حتى فى عهدك وأنت الأرلندى الأصل الذى عانى قومه ظلم السياسة الانجليزية . . . أليس هذا وحده كافياً لأن يحمل الضباط المصريين على طلب العودة إلى مصر ؟ إن أمركم لعجيب ! ! تفرضون نفوذكم على مصر بقوتكم وإنذاراتكم المتوالية ، وسيل تهديداتكم المتتابعة ، وفى نفس الوقت تغتصبون كل الأمر فى السودان ، تستأثرون بحكمه ، ثم تطلبون من الضباط ، أباة الضيم ، ووارثى عظمة

---

(١) وإلى هذا المعنى يشير شوقى بقوله :

هل يعد لك الإضاعة منّةً جيش كجيش الهند بات ذليلا ! ؟
انظر إلى فتيانه ما شأنهم ! أوَ ليس شأناً فى الجيوش ضئيلا ! ؟
حرَّمتهمْ أن يبلغوا رتب العلا ورفعت قومك فوقهم تفضيلا !
فإذا تطلعت الجيوش وأمّلت مستقبلاً لم يملكوا التأميلا !

العرب ، ومجد الفراعنة ، وسلالات ضباط صلاح الدين الأيوبي ، ومحمد على أن يبقوا فى السودان تحت رحمتكم .

إنكم لا تفتأون فى ذل الباطل على الرغم من قوتكم . ولكننا سنبقى فى عز الحق إلى أن يقضى الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين »

ثم قال :

« إن مصر - إن كان لابد لها من حليف ، أو دولة تتصل بها اتصال الود والمصلحة المشتركة - تفضل انجلترا ، ولكن على شريطة أن يكون هذا الاتصال اتصال الحر بالحر ، لا التابع بالمتبوع ، وكما قال شعراوى باشا : « اتصال الند بالند » . . . إن اتصالكم بوادى النيل المستقل غير الممزقة أوصاله ، خير من اتصالكم بوادى النيل المغلوب على أمره » . .



الدكتور محجوب والوحدة العربية

لم يكن « محجوب ثابت » عنواناً بارزاً على مصرية السودان فحسب ، ورمزاً حياً على وحدة وادى النيل وكفى ، بل كان من السابقين فى الجهاد ، والدعوة إلى الوحدة العربية . وكان واسع الأمل قوى الإيمان بأن تصبح الأمة العربية أمبراطورية قوية الدعائم ، مرهوبة الجانب . كما كانت فى عهود الخلفاء الراشدين . وكما كانت فى عهد بنى أمية ، وفى أوائل عهد العباسيين . وكما كانت فى عهد سلطنة البطل « صلاح الدين الأيوبى »

وفى سبيل تحقيق هذا الأمل المرجو ، كان دائم الاتصال بشيخ العروبة « أحمد زكى باشا » ، يمده بما كان يغيب عنه من المعلومات . ويزوّده بالرأى السديد والتوجيه المدروس .

ولإعطاء الفكرة ، يحسن أن نذكر تلك الخطة التى أوحى بها الدكتور محجوب إلى شيخ العروبة ، وهى تتلخص فى أن تقوم البلاد العربية ـ المنكوبة بالاحتلال الإيطالى ـ بحركتها الوطنية وغضبتها القومية ، فى يوم واحد متفق عليه مقدماً للتخلص من النير الأجنبي ، حتى يضطر المحتل إلى توزيع قواته العسكرية فى كل الجهات لإخماد الثورة ، وحينئذ يكون من الميسور التغلب على هذه القوات وهى موزعة . . . على أن تعاون البلاد العربية الأخرى

المجاهدين بجميع الوسائل . فإذا نجحت هذه الحركة ، جاء دور فرنسا بعد ذلك . وهكذا دواليك ، دولة أوربية بعد أخرى ... إلى أن يتحرر الشرق العربي من ربقة الاستعباد ، وعندئذ يرفع أبناء الدول العربية علم الحضارة ، كما رفعه آباؤهم وأجدادهم من قبل .

هذه كانت خطة « محجوب » التى رسم خطتها مع شيخ العروبة « أحمد زكى باشا » ، ورسما معاً أساليب تنفيذها ، وتفرّغ كلاهما لها زمناً طويلا ، وبذلا فى سبيل تنفيذها مالاً وجهداً ، ونصب لها « زكى باشا » نفسه ، وفتح داره لتنمية الفكرة القومية الجبارة . . .

وما كان يدور فى خلد « أحمد زكى باشا » أن تحت ضِبْنِه (١) أفعى ناعمة الملمس ، وفى داره ثعلباً فى صورة إنسان ، وصِلاًّ كامناً بين شعاره ودثاره ، وهو ذلك الجاسوس الدجال (٢) الذى كان ينقل أنباءه ، وجملة خططه ، وخلاصة أحاديثه ، وعصارة ذهنه ، إلى السفارة الإيطالية ، مقابل ما تنقده من أجر .

لقد جاهد « محجوب » فى سبيل الوحدة العربية ، مؤمناً بعقيدته ، مخلصاً لفكرته ، تلك الفكرة التى عمل لها بجميع الوسائل ، كتابة ، وخطابة ، ودعاية . وفى سبيل ذلك لم يأل جهداً ، ولم يترك فرصة تسنح دون أن ينتهزها للتبشير بفكرته . وكان دائم الاتصال بذوى الرأى من زعماء العرب ، وقادة الفكر ، الذين يجيئون إلى مصر من سوريين ولبنانيين ، ويمنيين ، وتونسيين ، وحجازيين ، مبشراً بوجوب قيام وحدة عربية قوية .

لقد جاهد « محجوب » فى هـذا السبيل فى الداخل

---

(١) الضبن : الإبط (٢) بعد قليل ترى من أمر هذا الدجال أمراً عجباً .

والخارج ، وفى سوريا أثناء وجوده بدمشق بجوار صديقه رجل العروبة الصريح الجرىء « محمد كرد على بك » مد الله فى حياته .

نصائح محجوب

كان « محجوب » يقول لمن يأنس فيهم الإخلاص للفكرة ، والعمل للوطنية الحقة : « إن بعض المتزعمين الذين يفرضون أشخاصهم رموزاً للوطنية ، لا همّ لهم إلا اتخاذ الوطنية وسيلة إلى أبهة الحكم وجمع المال » .

وكان « محجوب » يوجه ذلك للصالحين منهم كلما سنحت له الفرصة يقول لهم : « إذا لم توحدوا جهودكم ، وتجمعوا كلمتكم كأمة واحدة ترمى عن قوس واحدة إلى هدف واحد ، فستظل البلاد العربية المحكومة بالأجانب مستعبدة لهم ، يتخذون بعضكم أداة لتدجين الأمم العربية ، التى علّم آباؤها العالم معنى الديموقراطية الصحيحة ، وحمل أجدادها ألوية العدالة الاجتماعية الحقيقية ، العدالة التى تصورها صرخة رجل التشريع العادل ، والعدل المطلق ، والحزم الكامل ، والإنصاف الشامل « عمر ابن الخطاب » رضى الله عنه ، فى وجه عامله « عمرو بن العاص » الذى فتح بالحق ، وفتك بالرق « كما يقول شوقى » حينما اعتدى ابنه ـ أى ابن عمرو ـ على ابن قبطية مصرية ، فتوجهت إلى حاضرة الإسلام ترفع إلى الخليفة ظلامتها . فاستدعى « عمر » إليه الأمير وابنه ، وصرخ فى وجهيهما[1] بقوله : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ »

(١) هذه كلمات الدكتور محجوب أثبتها هنا بالنص حرفياً .

ثم أشار إلى الغلام القبطى قائلا له : « اضرب ابن الأكرمين » .

كان « محجوب » يقول للزعماء العرب ذلك ، ويردف كلامه بقوله : « كيف نُستعبد ونحن أحفاد هؤلاء الذين أقاموا صرح العدل بعدلهم وشجاعتهم ، وعلّموا العالم معنى الحرية ؟ » .

ثم يقول :

— إنكم أيها الزعماء إذا لم تتضامنوا فلن تقوم للشرق العربى قائمة ، وإن زعماء الغرب يتضامنون متآمرين على اقتسام الشرق العربى ، وحكمه ، واستعباده ، واستغلاله . وأنتم يامن تسمون أنفسكم قادة ، أفلا تتضامنون على حقكم ؟ ألا تتحدون فى سبيل الظفر بحريتكم ، واستعادة استقلالكم المغتصب ، وكرامتكم المهدرة ؟ قولوا لأنفسكم ، ولمن يتزعمون فيكم ، إنكم إنما تتزعمون لتعويق أوطانكم عن استعادة كرامتها ، وإلا فكيف نؤول تمسك كل جماعة من الزعماء فى البلاد العربية ، فى سبيل الزعامة ، بأن يجعلوا من كل مرحلة تقطعها السيارة فى ساعات دولة لها وزراء ورؤساء وزارات ، فيكون فى كل مرحلة من هذه المراحل أناس يتباغضون ويتنافسون على الحكم ، ويتهم بعضهم بعضاً ، بالدس أمام الأجنبى طلباً لمعاونته . ومن هذا يتبين أن بعض المتزعمين يتظاهرون بالوطنية أمام أبناء الأمة ، لخلب الألباب ، وخدع الجماهير . ويتهم كل منهم من ينافسه فى المنصب الحكومى ، فى وطنيته ، بالنهار . أما فى الظلام الدامس فاتصال بالأجنبى ، وخنوع واستسلام له ، وكشف لعورات منافسه .

ما دام الزعماء هكذا ، فإن استعباد الغرب للشرق سيطول به الأمد ، ولكن سيجىء اليوم الذى لن يستطيع فيه هذا النوع ممن يتصدون للزعامة

أن يسيروا فى هذا الطريق ، وأن ينسجوا على هذا المنوال فى مختلف الأقطار العربية . وإنى لموقن أن الشعب العربى قد دخل فى طور الانتباه » .

كان محجوب يحابه بذلك كل من يحبه ، ويأمل فيه خيراً .

هذا مثال من جهاده ، وأنموذج من دعوته ، وما أشق جهاد الذين ينصبون أنفسهم زعماء وقادة رأى ، ولا يؤدون واجبات الزعامة ، ولا يمكّنون غيرهم من أداء هذا الواجب بما يتطلبه من الذمة ، والأمانة ، والمفاداة . وإنه لجهاد أشق من جهاد الأجنبى .

ولقد خلف الدكتور فى كل قطر عربى من الشباب من يبشر بهذه المبادىء السامية ، وينادى بها ، ويدعو إليها ، ويبذر بذورها التى أخذت تنمو وتينع ، تتفتح براعمها رويداً رويداً . وأخيراً ترك فى جامعة فؤاد الأول نواة طيبة من طلابها ، وشبابها الطامح .

كان الدكتور محجوب يعلق — ساخراً متهكماً — على خطب بعض الزعماء الذين ضللوا بسواد الأمة وخدعوهم ، حينما يزعمون أنهم ضحوا ، فكان يقول : « ما شاء الله ! لقد فقدت الألفاظ معانيها . . إنهم يتشدقون بكلمات المفاداة ، ويدعون — فى صفاقة — أنهم بذلوا جهودا .

لقد كنا نقبل منهم هذا الادعاء لو أنهم كانوا أغنياء وأنفقوا اموالهم فى سبيل الجهاد الوطنى ، فافتقروا [1] فى هذا السبيل . أما من كان

(١) كما فعل سيد الأبطال المجاهدين المضحين « محمد فريد بك » مثلا ، وكما ضحى « جمال الدين الافغانى » ، أو كما جاهد « أمين الرافعى بك » .

فقيراً فأثرى أثناء تزعمه ، فإنه من العجب أن يزعم أنه فادى بشىء . وتلك هى الرقاعة بأجلى معانيها » .

وهنا كان يتمثل بقول القائل :

زعيم ما يفيق من الرقاعه يولى ثم يعزل بعد ساعه
إذا أهل الرُّشا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعه
وليس بمنكر ذا الفعل منه لأن الشيخ أفلت من مجاعه

ثم يقول : « لو كان أحدهم كبيراً وصَغَّرَه الأجنبى وحَقَّرَه ، لقلنا بذل شيئا ، ولكنهم كانوا فقراء فاغتنوا ، وكانوا صغاراً فكبروا ، وحملوا أضخم الألقاب التى تعتبر أعرض وأطول من جغرافية بلادنا ، فأين إذن تلك المفاداة ؟ »

ذلك هو بعض ما كان يقوله الدكتور محجوب لقادة الفكر الذين كان يأنس إليهم ، وذلك ما كان يقوله للشباب ..

جاسوس يفسد التدبير

لقد كان من سوء حظ الصاحبين « محجوب وزكى » ، بل من سوء حظ فكرتهما السامية ، أنهما أصيبا بذلك الدّجال الذى وفد إلى مصر من فلسطين ، وفود الأمراض الوبائية ، ولم تكن له محمدة ولا علو قدر ، ولا هو بالطاهر الذيل أو اليد .

كان هذا الجاسوس الدجّال قد اتصل بشيخ العروبة أحمد زكى باشا ، مدعياً أنه على اتصال وثيق بزعماء العرب ، وذوى الكلمة فيهم . نخُدع فيه شيخ العروبة ، وأكرم وفادته . فإذا به ينقلب

عيناً عليه ، ينقل عنه أنباء اتصالاته بزعماء العرب ، إلى من يعنيهم الأمر من المستعمرين ، مع أنه كان قد جعل من نفسه رسولا بين « زكى باشا » وبين زعماء العرب .

قال الدكتور محجوب — رحمه الله — : « إن الذى اكتشف حقيقته هو المغفور له الزعيم التونسى الأستاذ « عبد العزيز الثعالبى » ، وقد روى تاريخه فى حضور المؤلف .

ومن العجب أن هذا الجاسوس الدجال لايزال حتى الآن متسلطاً على بعض العقول ، وإنك لتراه الآن فى حركة « هستيرية » دائمة .

وفى الوقت الذى كان فيه الدكتور محجوب وزكى باشا يعملان فى سبيل العروبة وجمع كلمتها ، كان هذا الجاسوس على اتصال دائم بالمفوضية الإيطالية ، يبلغها أسماء زعماء العرب الذين كان زكى باشا متصلا بهم . مع أنه ـ أى هذا الدجال المتنكر ـ جعل من نفسه همزة الوصل بين زكى باشا وزعماء العرب . فكان يسلم صور رسائل أحمد زكى باشا والدكتور محجوب إلى المفوضية الإيطالية قبل توصيلها إلى من كتبت إليهم .

وأخيراً لما علم زكى باشا بهذه الحقيقة طرد هذا الجاسوس شر طردة ، ولكن بعد فوات الوقت ، وتمكين الأجنبى من أن يتيقظ وينتبه [1] .

(١) لما روى زكى باشا حقيقة هذا المحتال للدكتور محجوب فى وجود المؤلف ، لم يستطع المؤلف أن يكتم هذا الأمر المنكر . فكتب مقالا ضافياً فى هذا الموضوع نشرته مجلة « التاج » التى كان يصدرها المحفل

ومن قبل اعتقلت الدكتور محجوب السلطة العسكرية الإنجليزية سنة ١٩٢٢ وطوحت به إلى معتقل الواحات - وهو الحركة الدائمة فى سبيل الوحدة العربية — وكان من زملائه فى الاعتقال شيخ العرب « عبد الستار الباسل بك » والمرحوم « محمود بسيونى بك » .

وظل الدكتور محجوب معتقلاً إلى أن سعت الرابطة الشرقية — التى كان أحد أعضائها المؤسسين — سعياً متواصلا إلى إطلاق سراحه ، وقد نجحت فيما سعت إليه . . .

الماسونى وفى نفس الوقت كان ذلك المقال تعقيباً على ما نشرته المجلة المذكورة بتوقيع الأستاذ محمد عبد الحفيظ رداً على ذلك الجاسوس .

وقد كان مقال المؤلف — الذى نشر بتاريخ ٣ يوليه سنة ١٩٣٦ موضع تحقيق النيابة بناء على شكوى الجاسوس حفظته النيابة إذ كان التحقيق ظريفاً وختامه إلى الحفظ أظرف . على أن ما أذعناه وقتئذ عن هذا الجاسوس المحتال لم يكن إلا صورة مختصرة لما علمناه عنه من حقائق رواها لنا الأستاذ شكيب النشاشيبى فقد ذكر لنا أنه كان فى مستهل تاريخه يعمل رسول هوى لامرأة فى فلسطين وهى التى ألحقته بمصلحة البريد هناك ومنها تطور إلى موظف فى قلم المخابرات السرية (أى مرشداً) ولما استغل عمله هذا فى النكاية بالأبرياء والتبليغ عنهم زوراً وبهتاناً ، طرد من عمله ، ومن ثم نزح إلى مصر سنة ١٩١٤ وقدم نفسه للسلطات البريطانية التى اتخذت منه معتقلا — صوريا — ليتجسس على المعتقلين الأتراك فى مصر . ولما انتهت مهمته خرج يجوس خلال الجماعات فى القاهرة مرتدياً مسوح المجاهدين الأبطال . . . وهو نفسه الذى لم يتورع عن التماس وظيفة الجاسوس عند المفوضية الايطالية سنة ١٩٣٢ حين استشفع بالأستاذ سامى السراج ليستعين له بواسطة الأستاذ أنطون مندوب شركة التلغرافات الايطالية .

وقد وصف العلامة المنصف « محمد كرد على بك » الدكتور محجوب فقال :

ـــ كان عقله أوسع من أن يحصره فى حدود مصر . فقام فى ذهنه أن من المروءة أن يصرف جانباً من جهوده فى أهل الإسلام والعرب والترك منهم خاصة . ويقول : ـــ محجوب ـــ من لا يهتم بأمور المسلمين (جميعاً) فليس منهم

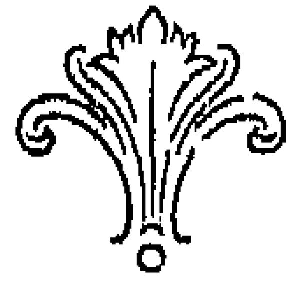
وهو محجوب الذى سارع إلى إجابة نداء المروءة والإنسانية التى يهتف بها دائماً . فيقدم نفسه متطوعاً لرياسة بعثة الهلال الأحمر سنة ١٩١٢ فى حرب البلقان . وقد تجلت شجاعة محجوب الطبيب ، والعسكرى ، وهو يخوض المعامع . يحنو على الجرحى ، ويواسى الذين سقطوا فى حومة الوغى .

لقد شهد الدكتور محجوب أروع معركة عرفتها حرب البلقان سنة ١٩١٢ ، معركة استرداد « أدرنة » بعد انسحاب البلغاريين منها ، فهاله ما فعل جند البلغار بالعذارى من بنات المدينة . فما كان منه إلا أن اتصل بالقائد البلغارى المنسحب ، وخاطبه باسم الإنسانية فى تأنيب قاس ، وأفهمه ما فى روح الإسلام من تعفف عن إتيان ما أتى البلغاريون من انتهاك حرمات النساء والأطفال والعجزة . وهنا كان لا بد للقائد البلغارى من أن يخجل ويعلن اعتذاره فى إعجاب بشجاعة رئيس بعثة الهلال الأحمر الدكتور محجوب ثابت وتقديره لتعاليم الإسلام .

لقد كان محجوب الواعظ المبشر ، فى مواجهة قائد الحامية البلغارى ، وهو يذكر له قول الخلفاء الراشدين ووصاياهم لعساكرهم

بألا يجهزوا على جريح ، ولا يتابعوا مهزوماً ، ولا يروّعوا طفلا ولا امرأة ، ولا يمشوا على زرع . . ثم يتلو عليه ترجمة نص وصية على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — لجنوده : « . . . فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تصيبوا معوراً [1] ، ولا تهيجوا النساء بأذى ، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعيفات القُوى والأنفس والعقول » .

فكم كان « محجوب » شجاعاً فى إنسانيته ، إنساناً فى شجاعته . فدائياً فى اقتحام ميادين الموت من أجل الجرحى والمصابين يواسيهم ويمسح آلامهم ، ولو كانوا من صفوف الأعداء .



---

(١) المعور — كمجرم — هو الذى أمكن من نفسه وعجز عن حمايتها .

الدكتور محجوب
الطبيب الخطيب

كان الدكتور « محجوب » فى الرعيل الأول من دعاة الوطنية ، وفى المقدمة من المجاهدين .

كنت أراه فى أول الأمر ، ثم رافقته فى مستهل الحركة الوطنية الثالثة [1] (فى أواخر سنة ١٩١٨) ، فكان من خطبائها البارزين الذين

---

(١) روى لنا الدكتور محجوب ـ وأيده فى روايته إمام اللغة الأستاذ الكبير وحيد الأيوبى بك ـ أن الحركة الوطنية الأولى هى ثورة المغفور له احمد عرابى باشا الذى أسيء إليه عمداً ، مع أن غضبته كانت فى سبيل الله والوطن . وذلك أن عرابى كان ـ أثناء حفر إحدى الترع بالسخرة ويسميها بعض الفلاحين « العملية » ـ قد سمع أحد الأهالى من المجندين يستغيث بزملائه صارخاً وهو يقول : « هيلوا علىّ التراب . عاوز أموت ياناس » . اخترقت هذه الاستغاثة أذن عرابى ، وكان لايزال ضابطاً صغيراً ، فسأل عن السبب الذى يحمل المجند المصرى المسخر ـ وقتئذ ـ على دفن نفسه حياً . فأجيب « عرابى أفندى » بأن لهذا المجند ـ لا الجندى ـ شقيقة جميلة تحمل إليه الطعام من القرية وقد درج أحد الضباط الأتراك على التعرض لها ومراودتها خلال ذهابها وإيابها . وكانت الفتاة تصده وتردعه وتشتد عليه إلى حد الإهانة . فما كان من هذا الضابط التركى إلا أن حملها إلى مخيمه قسراً محاولا اغتصابها ... فلما وقف « عرابى أفندى » على جلية الأمر ـ وهو المصرى الصميم ـ استل حسامه وهجم على خيمة ذلك الضابط وانتزع منه الفتاة ، قوة واقتدارا ، وكاد يطعنه فى صدره ، ولكنه ترك الحسام

ظفرت بهم مصر فى عهدها الحديث ، فقد كان الخطيب الخلاب ، الذى يأخذ بمجامع القلوب ، ويستولى على المشاعر والألباب .

كنت تراه : هنا للوطنية مدرساً وخطيباً ، وهناك للجرحى مواسياً وطبيباً ، وفى جهة أخرى للتاريخ المصرى السودانى قديمه وحديثه محاضراً وراوية ، داعياً إلى الوطنية ، والاستماتة فى سبيل الحرية ، مهيباً بالمصريين أن يحتسبوا الأرواح لوجه بلادهم « مصر والسودان »

كان الدكتور « محجوب » ، بحق ، مثالا رائعاً للوطنية الصحيحة .

جانباً وقال له : « مثلك ليس جديراً بذباب السيف ، إنما الجدير بك الصفع على الوجه » .... وفعلا صفعه ، وهو يحتدم غضباً . . .

أقول من قبيل الإنصاف الخالص للحقيقة والتاريخ : إن عمل « عرابى أفندى » وقتئذ كان أول حجر وضع فى بناء الحركة الوطنية فى العصر الحديث ، والوعى القومى ، والغضبة المصرية ، ولكن . .

لو بغير الماء حلقى شرق   كنت كالغصان بالماء اعتصارى

فإن عرابى المصرى الصميم قد شوه تاريخه عمداً ، وغولط فى سيرته تعمداً .

يقول شوقى بك :

خلق الناس للقوى المزايا   وتجنوا على الضعيف الذنوبا

احتفوا فى الحياة والموت بالغا   لب فانظر هل عظموا مغلوبا !

شيعوا الشاة جيفة بمداهم   واتقوا وهو فى الرمام الذيبا

والحركة الوطنية الثانية فى العهد الحديث هى حركة المغفور له « مصطفى كامل باشا » مؤسس الحزب الوطنى الذى ظاهره وناصره بادىء ذى بدء المغفور له الخديو « عباس الثانى » .

والحركة الوطنية الثالثة هى نهضة سنة ١٩١٩ التى قبض على مقودها « سعد زغلول » . . وقد كان « محجوب » من البارزين فى خطباء هذه الحركة .

ولمصرية السودان وسودانية مصر ، داعية ورمزاً ، وكان سكان وادى النيل بجزأيه يتخذونه على وحدة وادى النيل دليلا قائماً .

وأقسم لو أن أبناء النيل أرادوا أن يقيموا فى منابعه ومصبه تماثيل للأجيال المقبلة ناطقة على وجه الدهر ، للدلالة على وحدة وادى النيل وتماسكه الذى وصله الله ، وعلى أن ما وصله الله لن يستطيع المخلوق أن يقطعه ، فلن يجدوا غير تمثال للدكتور « محجوب » دليلا على هذه المعانى العالية ، والمبادئ السامية .

محجوب فى معركة الانتخاب

كان موقف الدكتور « محجوب » حرجاً حينما رشح نفسه لعضوية مجلس النواب . وكان هذا الموقف دقيقاً يحتاج إلى كثير من سعة الحيلة وبعد النظر . على أنى أستطيع أن أقول : إن أكثر الناس تحملا وصبراً على التجنى لم يكن ليستطيع احتمال ما احتمله الدكتور « محجوب » من الحرب الكلامية التى شهرت عليه ، ولكنه تلقى الهجوم العنيف فى صبر وجلد ، وشجاعة نادرة المثال .

درس فى أدب السياسة والانتخاب

كانت دائرة « مينا البصل » بالإسكندرية حصناً من حصون الوفد الذى يرأسه « سعد زغلول » خطيب الثورة ، وعلى الرغم من أن مصير كل من ينافس مرشح سعد هو الخذلان حتما ، فإن الدكتور « محجوب ثابت » كان شديد الثقة بالفوز الباهر .

واشدّ ما كان مغتبطاً بخوض معركة الانتخاب لأنه كان مغرماً بحرب الكلام . . قدّر أن الوفد سيقوم بتجريد قواته من الخطباء لمحاربته ، بل لقد وجه إليه الإنذار بذلك صراحة لا تلميحاً ، فكان رده : « إنى جد مغتبط ومسرور . مرحباً ، . مرحباً . . سأكون القدوة الحسنة فى شرف الخصومة .. سألقى درساً فى الأدب السياسى ، سأنافس الأوروبيين ، بل الإنجليز ، فى تجريد الأسلحة الشريفة . سأجعل المعركة الانتخابية ميداناً للرياضة ، ووسيلة للتوجيه وتعليم الشعب المصرى الكريم ، سأكون الطبيب المداوى للخصم اللدود القديم والعتيد ، والصديق الحميم . سأجعلها معركة يتجلى فيها الخلق الكريم والمبدأ العظيم . يحيّ فيها المنتصر خصمه المنهزم . ومادمنا نسعى إلى غرض واحد وهو خدمة هذه الأمة « فحبذا ناضل منا ومنضول » وإذا فاز منافسى فسأبتدره بإزجاء التهنئة » .

* * *

كان الدكتور « محجوب » من خطباء الحركة الوطنية . وكان الشيخ « مصطفى القاياتى » زميلا له مضارعاً . وكان من أبطالها الصناديد وخطبائها المفوهين ، ومن ذوى الألسنة الذربة ، والمكانة العالية فى نفوس الخاصة . والتأثير الشديد الذى يفعل فعل السحر فى قلوب العامة ، كان قوى العارضة شديد المراس .

كان الوفد قد جرد « القاياتى » سيفاً مسلولا على رأس الدكتور محجوب . إذ كان لسانه لسيف الحجاج حقاً شقيقاً . وكان الدكتور محجوب له نداً . حتى إذا ما غضب أصبح لسانه لسيف ابن الوليد صنواً . وكان

الأستاذ النقراشى يومئذ منظم لجان الوفد وداعيته، ومالك قيادة الشباب فى الأمة . فكان يعاون الخطيب الداهية فى الحرب الانتخابية ضد الدكتور محجوب .

قوتان لا يستهان بهما . وداهيتان يعمل لها ألف حساب . هما : القاياتى ، والنقراشى . ويكفى أنهما تظاهرا بأنهما فى الحركة رسولا سعد زغلول زعيم الأمة الذى كانت إشارته أمراً يمتثله أبناء البلاد واجب التنفيذ، مرعى الجانب ، كأنه قانون نافذ .

القاياتى الخطيب اللسن . النقراشى المدبر المنظم، ابن الإسكندرية المشهور ، العارف بأهلها المدرك لطبائعهم، المخلص لكل ركن من أركان الثغر ومنازع سكانه الأصليين والواردين، وخبايا المدينة وصناديقها .

فماذا يفعل محجوب وليس فى جعبته من دخيرة وليس له أعوان غير البدّينى ، ومصطفى مكاوى ، وعلى فرحات ، ومحمد يوسف ، وصالح السودانى ؟ . . وكانوا جميعاً « على فيض الكريم » . اللهم إلا ما انضم إلى هؤلاء النفر من أهل الإسكندرية الذين ناصروا الدكتور محجوباً وأكرموا وفادته ، بما سجل لهم من مآثر . مات محجوب وهو حافظ لها، لم ينسها أبداً . . .

الدعاية فى الانتخاب

كانت طريقة الدكتور « محجوب ثابت » فريدة فى نوعها ، بارعة فى أسلوبها ، عجيبة فى تأثيرها . جمعت بين الشدة واللين ، وبين المهارة والمقدرة ، والقوة الصامدة، وبعد النظر، والجدل المهذب ، إلى حزم

وعزم تتضاءل أمامهما القوى ، وتصلّب فى بعض المواقف ، وتسامح مع التسامى فى مواقف أخرى .

وبالرغم من أن موقف الدكتور كان حرجاً ، يحمل أكثر الناس حلماً وعقلا وتجملا ، وسعة صدر على الخروج على الاعتبارات الكثيرة ، وتناسى الصداقة ، وتجريد المناصرين على المعادين ، فإنه جنح فى خطبه ودعايته إلى العتاب الجميل ، يوجهه إلى القاياتى أمام الناخبين ، حتى ليشعر الحضور « كأن القاياتى ماثل أمامه » يذكره بالزمالة فى السجن ، والاضطهاد ، والتشريد ، والجهاد . ثم إذا به يوجه كلامه إلى النقراشى : « نقرش[1] يقينا يا ولدى » يذكره بمثل ذلك ويذكره بالإخاء ، والصفاء وأنهما عملا معاً فى سبيل الوطن .

ثم يظل يروى للناخبين تاريخ الحركة الوطنية ، مشيداً بمواقف « النقراشى والقاياتى » ، مقراً بفضلهما ، مثنياً على وطنيتهما ، وحينئذ كان يرتفع بالسامعين إلى قمة عالية من شرف الخصومة ، ينتزع منهم الإعجاب والتصفيق والتأمين على ما يقول . . . ثم يتحول إلى « سعد » فى لباقة وظرف مصحوبين بالعتاب الجميل والأسلوب البارع ، ناعتاً إياه بزعيمه ، ورئيسه ، ورمز الأمانى القومية ، و « نبى الوطنية » ، والمثل الأعلى للمجاهدين . وهنا كنت تراه كأنه قد استحضر سعداً أمام الناخبين ، يشكو سعداً إلى سعد ، ويشكو سعداً إلى الناخبين ، فى تنبيه لطيف . . . وإذا بك تشعر أنه قد ارتفع بالسامعين من الناخبين كأن

---

(١) « نقرش » كلمة تدليل كان الدكتور يخاطب بها النقراشى باشا لأنه كان يعزه .

سعداً وزملاءه بينهم يسمعون ، وكأن النقراشي والقاياتي يصفقان مع المصفقين فى الحفل ، وإذا به يوجه إليهم عتاباً قوياً ملىء وداً وحُشِىَ مؤاخذة ، مبرزاً ذلك فى إطار من الأسف والحياء . ويعود فيرتفع بالسامعين مرة أخرى إلى سماء الوطنية ، والغرض الأسمى ، والأمل المرجو ، ثم يحلق بهم إلى مشروعاته واقتراحاته التى سينادى بها فى مجلس النواب يحلق بهم إلى سماء المجد وميدان الكمال . فإذا الكلمات ترتطم فى فمه ارتطاما ، والعبارات العاليات تشتجر اشتجارا على لسانه ينثرها دررا . وإذا به يعود بهم إلى سعد مناجياً : « ياسعد ، أنا معك رضيت أو لم ترض ، ما دمت للوطنية رمزاً . أنا معك وبجانبك مجاهداً ، وأنت معى بمشاعرك وحبك وقلبك . أما النقراشي والقاياتي ، زميلاى ، فإنى أود أن أقول : إنك أوفدتهما إلى الإسكندرية لمعاكستى من قبيل المزاح والمداعبة ، لا أحب أن أصدق أنهما من الخصوم وإلا فعلى الدنيا العفاء » (١) .

---

(١) كان السيد مرسى الذى استقال من مجلس النواب قد أصدر منشوراً يقول فيه : إن الدكتور محجوب ليس وفدياً ، وظنه الدكتور من عمل النقراشي فهاج وماج ، وخرج من عيادته يقول : « وى . . وى . . وى . . أنسى سعد ، ونسيت الأمة ، كيف جمعت المال للوفد ، وحملت الناس على التبرع له .. وكيف ضحيت فى سبيل ذلك بمالى ، وضحيت بوقتى . . أجوب خلال الديار ألقى الخطب فى كل مكان داعياً للوفد . . . » ثم توجه وقابل سعد زغلول فى مجلس النواب — وكان رئيسه حينذاك — ولما اعترضه الأستاذ محمود الغزالى بك قائلا : إن سعداً أمره بألا يمكن أحداً من مقابلته مادام مع عدلى باشا رئيس الحكومة غضب الدكتور وصاح فى وجهه : « إلا أنا . . » فلما سمع سعد

ثم يظل ينتقل بالسامعين من موضوع إلى موضوع، كما يقول شوقى :

لم نسر من حرم إلا إلى حرم كالخمر من بابل سارت لدارينا

ثم يعرّج (١) إلى سعد مرة ومرة ومرة، يهز المشاعر هزاً، ثم إذا به ـ بعد ذلك ـ يوجه كلامه إلى سعد، مستطرداً كأنه حاضر مع الناخبين : « إن لك يا سعد علىّ حقوقاً، وإن لى عليك حقوقاً. وهأنذا أراك بالحس، توشك أن تضيع حقى، ولم أضيع لك حقاً، ولكنى أحب أن أكذب ما بلغنى .... » ثم يوجه كلامه للناخبين : « قولوا لسعد إن محجوباً يقول : إذا تكلم المتكلمون عن الوطنية فإنى الوطنى، زميل مصطفى كامل، ومحمد فريد، وأمين الرافعى. ثم زميل سعد، ومحمود سليمان، وعبد الرحمن فهمى » ... ثم يقول للناخبين : « أحقاً أنا بحاجة بعد ذلك الجهاد الطويل المرير لأن أزكى نفسى، وأن أقيم الدليل على وطنيتى ؟ ».

ثم يتلو على الناخبين نداء كان المؤلف قد نشره بجريدة الأهرام يدعو فيه للدكتور محجوب ...

صيحته خرج من مكتبه منطلقا. فابتدره الدكتور قائلا : « يقولون إن النقراشى يرمينى بأنى لست وفدياً.. أفهل أنتم موافقون على هذا ؟ » ..

فغضب سعد غضباً شديداً لهذه التهمة، وقال : « أنا لا أنكر ولا أستطيع أن أنكر فضل محجوب على الحركة الوطنية.. وإنى لا أوافق، وإلا كنت سخيفاً وناكراً للجميل ».

(١) عرج يعرج (بالتشديد) بمعنى « يعوج ».. أما عرج بفتح العين والراء فبمعنى « صعد، ومنه المعراج ».

ثم يسترسل بعد ذلك : « أيها الناخبون . . . أيها المصريون . . أنا أشكو إليكم زملائى .. قولوا لهم ، وقولوا للقاياتى الذى قال لكم : لو رشح سعد خادمى لانتخبته ، أيريد زميلى فى الجهاد ، ورفيق فى النفى والتشريد ، أن يفضل خادمه علىّ ، هل تقبلون ؟ إنى أطالبكم بالرد عليه رداً مقنعاً حاسما . هو انتخابى . . . قولوا لهم : إن محجوبا يقول : ما هو الوطن ؟ وما هى الوطنية ؟ وأنا الذى شقيت بها غرسا ، وجنيتها حنظلا وتعذيباً ، وفقراً بعد غنى ، وتعباً بعد راحة . . فمن يكون الوطنى إذا لم يكن محجوب هو الوطنى ؟ .

وهنا يذكر للناخبين سلسلة أعماله . ثم يعرج بهم مرة أخرى على سعد ، وعلى النقراشى ، قائلا : قولوا لسعد ، بل قولوا لزميلىّ النقراشى والقاياتى : هبا أن محجوباً قد أساء مرة ـ مع أنه لم يسىء ، بل أسىء إليه ـ فهل تذهب هذه الإساءة بكل حسناته ؟ . . إن الله غفار الذنوب .

، أيذهب يوم واحد إن أسأته بصالح أعمالى وحسن بلائيا ؟

وهنا ترى بعض الناخبين يبكون ، مع أنهم المتعلقون بسعد ، فإذا بهم يقسمون على أنهم سينتخبون محجوبا .

وسافر أعيان الدائرة إلى القاهرة على نفقتهم وقابلوا « سعداً » ، وصارحوه بأنهم مع تمسكهم بسعديتهم سينتخبون الدكتور « محجوب » وسينصرونه وإن أصر الوفد على ألا يزكيه ، لأنهم لا يستطيعون أن ينكروا عليه جهاده وماضيه .

* * *

لقد كان اهتمام المصريين والعلماء والأطباء من الأجانب بالمعركة الانتخابية شديداً بالغ الحد طوال أيام الانتخاب ، كلهم يرجو للدكتور النجاح . ومن العجيب أن الوفديين الذين كانوا ينظرون إلى كل من ينافس مرشح الوفد شزراً ، كانوا فى هذه المرة ينظرون إلى مرشح الوفد شزر .

مساء يوم الانتخاب

ظلت الهيئات السياسية والأفراد والجماعات فى مصر متلهفة قلقة تتساءل عن نتيجة المعركة الانتخابية . وظلوا إلى الهزيع الأخير من الليل ، على اختلاف نزعاتهم — وفى مقدمتهم غلاة الوفديين — يتصلون تليفونياً بالإسكندرية متسائلين عن نتيجة الفوز ، راجين أن يكون الدكتور « محجوب » هو المنتصر ، وظلت أسلاك التليفون بين القاهرة والإسكندرية تهتز ، وعاملات السنترال يعانين الإرهاق مما تزاحم عليهن من طلبات خطوط الإسكندرية بالسؤال عن نتيجة الانتخاب .

فهذا شوقى أمير الشعراء ، وبجانبه داود بركات ، وحافظ ابراهيم شاعر النيل ، وهذا محمد محمود ، وهذا عبد الجليل أبو سمره . وكلهم يتصلون بالإسكندرية متسائلين متلهفين . ها هو ذا نعمان الأعسر ، وسعد زغلول نفسه وهو زعيم الأغلبية ورئيس مجلس النواب يطلب فى صراحة واهتمام أن يخلى له خط التليفون للإسكندرية وكذلك إسماعيل شيرين بك يبتهل إلى الله أن يجعل النصر حليف صاحبه الدكتور محجوب .

وهذه نقابة عمال القطر المصرى ترابط بجموع رجالها فى دار

النقابة ، وهاهم أولاء طلاب الجامعة ، وطلاب المدارس العليا وطلاب المدارس الثانوية . . . وهاهم أولاء بنو النوبة والسودان وجميع طبقات الأمة يجوبون الشوارع متسائلين عن نتيجة المعركة فى أمل ورجاء أن يكون الفوز للدكتور محجوب .

وكنت ترى نعمان باشا الأعسر عمدة المحلة الكبرى يدخل دار الأهرام طالباً بإلحاح أن يمكنوه من الاتصال بالاسكندرية ، فيكون الجواب : أن الخط مشغول . وإذا به مع ضخامة جسمه لا يرى إلا وهو يرتقى سلم ناد من الأندية الكبرى أو يهبط منه متلمساً سبيلا لتليفون غير مشغول ليتصل بالإسكندرية . ثم إنك كنت ترى مكاتبى الصحف الأجنبية والشركات التلغرافية ، يغشون فى لهفة إدارات الصحف المصرية متسائلين عن نتيجة تلك المعركة .

* * *

فلما وصل النبأ بانتصار الدكتور محجوب إذا بالكل يغتبطون ، وكأن كلاًّ منهم قد أصبح منتصراً ، وإذا بالعامل يشعر كأنه أصبح نائبا ، وكذلك الطالب قد احتسب نفسه فائزاً ، وأن قضية الاستقلال فى نظر كل منهم قد تقدمت خطوات متسعة المدى .

عودة المنتصر إلى العاصمة

وفى مساء اليوم التالى خرجت مصر فى جموع محتشدة لاستقبال الدكتور محجوب ثابت واكتظت محطة مصر وفناؤها الخارجى بالمستقبلين ومكاتبى الصحف الأجنبية والشركات التلغرافية .

واتخذ البوليس الاحتياطات الدقيقة لحفظ النظام خشية الجموع

الحاشدة من العمال أن تخرجهم نشوة النصر عن جادة الاعتدال حتى لقد ظن هذا العمل عدائياً .

الأستاذ الجديلى

أزال ظنون الاستقبال العدائى للدكتور محجوب ثابت — من قبل الحكومة — أنهم فوجئوا برسول سعـــد ومندوبه الأستاذ عبد الرحمن الجديلى . . .

وإنى لأذكر أنه لولا نعمان باشا الأعسر وظرفه وخفة روحه على رصيف المحطة ، لوقعت حوادث دامية بين العمال والبوليس ، ولأريقت دماء ، وأزهقت أرواح بغير موجب . وذلك أن أحـد ضباط بلوك الخفر كان أرعن . إذ قال للمستقبلين فى صلف : إن كل من ينادى بحياة أحد سأقبض عليه . وطلب أن يظلوا ساكتين وأن يخرجوا ساكتين (١) !

فأجيب الضابط بالهتاف : « يحيا الدكتور محجوب ، نائب العمال ، ونائب الأمة » وقيل له : « افعل ماتشاء » وحُذِّر من مغبة تعرضه لأى انسان . . . فصفق نعمان باشا الأعسر ونادى بحياة الدكتور محجوب . ثم وجه كلامه إلى الضابط ضاحكا متهكما : « أنت دسيسة على سعد ووفده ، لأنك تعمل على إحداث فتنة فى مثل هذا الحشد الزاخر » . وإذا بالضابط يستسلم للأمر الواقع ، فيرتد وديعاً ، وكان متنمراً .

---

(١) وقد وجه كلامه إلى المؤلف .

قدوم النائب المنتصر

وصل القطار وسط ضجيج الهتاف والتصفيق، وماظهرت طلعة الدكتور « محجوب » حتى اندفع العمال كالموج محاولين حمله على الأعناق. فإذا به يصيح بصوته المدوى: « لا. لا. أنا لا أحمل على الأعناق، إنما يحمل على الأعناق الصريع. أما أنا فلا أحمل إلا بعد موتى، أما وفىّ عرق ينبض، ونفس يتردد. فلا »

وهنا جاء الاستاذ عبد الرحمن الجديلى، رسول سعد ووقف أمام الدكتور محجوب وجهاً لوجه يبلغه أن « سعداً » يستدعيه لمقابلته حالا. وما أن ركب الدكتور « محجوب » مع رسول سعد حتى أعلن نعمان الأعسر باشا اختفاء الدكتور « محجوب » بما سماه اختطافاً من « سعد » بواسطة رسوله.

ثم وقف موقف الخطيب قائلا للجماهير. « روحوا لسعد وقولوا له: نريد الدكتور . . . »

فتألفت مظاهرة مرحة، توجهت إلى بيت الأمة وأخذت تنادى: « عاوزين الدكتور محجوب ».

الدكتور محجوب فى مجلس النواب

بعد أن قابل الدكتور محجوب سعداً، توجه معه إلى مجلس النواب. وما أن أهل على المجلس حتى تجمع النواب لاستقباله

بالتصفيق الشديد ، وانساق معهم الزائرون كأنهم قد أعدوا حفلة تكريم لمحجوب ثابت النائب الجديد . وكذلك قوبل داخل قاعة المجلس بالتصفيق .

لم أر المغفور له « سعد زغلول » أكثر مرحاً ، ولا أوفر انشراحاً منه فى تلك الليلة . وكذلك كان شعور أعضاء المجلس كأنه كان ينقصهم شيء ، وقد استكملوه بدخول الدكتور محجوب بينهم زميلا .

* * *

كان المجلس ينظر فى ميزانية وزارة الدفاع الوطنى أثناء دخول الدكتور ، وكان أحد النواب يتكلم عن الجيش وعن التجنيد . وإذا بالدكتور النائب البكر ينتزع الكلمة من النائب المتكلم بين التصفيق ، ويلقى خطبة رنانة مدوية ، وإذا بسعد يوجه كلامه إلى النواب فى دعابة حلوة قائلا : « أول ماشطح نطح » . . قالها والفرح يتجلى فى أسارير وجهه .

* * *

وعقب ارفضاض الجلسة ، استبقى « سعد باشا » الدكتور معه وقال له : « يادكتور ، إن اقتراحاتك فى محلها ، وواجب تنفيذها . وسنتكلم فيها دائماً ، وسنشرك معنا ذوى الخبرة من الفنيين » . فرد عليه الدكتور محجوب فى حماسة واصرار قائلا : « وقبل كل شيء مسألة التجنيد الإجبارى . ودفع ضريبة الدم ، بلا فارق بين غنى وفقير ، وإلغاء نظام البدل ، حتى لايكون قوام الجيش من الذين عجزوا عن افتداء أنفسهم بدفع الـ ٢١ جنيها » .

من مداعبات سعد زغلول

دعابة سياسية

كان سعد باشا قد أوعز إلى أعضاء لجنة الطعون بمجلس النواب بأن يتباطأوا فى تقديم تقرير الطعن المقدم ضد الدكتور محجوب، وأن يرجئوا قرارهم إلى أطول مدة ممكنة لتظل نيابة الدكتور معلّقة، ولتكون مسألة الطعن مادة دسمة للدعابة يستمدونها من إحراج مركز الدكتور. وكان معروفاً متداولا - فى همس وخفاء - بين جميع النواب، أن الطعن المقدم لم يكن جدياً، بل كان أمراً مدبراً من أصدقائه وأحبائه أنفسهم.

على أن الدكتور كان كثير الشكوى والتأفف من تباطؤ اللجنة فى الانتهاء من تقرير الطعن. وكان يقابل سعد باشا رئيس المجلس - وقتئذ - فى اليوم عدة مرات شاكياً من تعنّت اللجنة وتعمّدها عدم تقديم تقريرها إلى المجلس، ولم يكن يدور فى خلد الدكتور محجوب - فى بادىء الأمر - أن سعد باشا هو الموعز بعدم البت فى صحة نيابته، فكان يقول لسعد: « أظن أن المسألة المصرية والمشاكل الدولية ستحل قبل أن تحل مسألة صحة نيابة محجوب ! ».

وبعد مقابلة سعد مئة مرة تخللها كثير من الدعابة المرحة المهذبة. أوعز سعد باشا إلى اللجنة أن تقدم التقرير ... وحتّم عليها أن تُعْلِمه

باليوم الذى ستحدده للنظر فى الطعن . حتى يكون على منصة الرياسة ، وكان من المعلوم عند سعد باشا وجميع النواب - فى تكتم عن الدكتور - أن لجنة الطعون انتهت من قرارها برفض الطعن وصحة نيابة الدكتور . . .

وكان سعد قد كلف النقراشى باشا بأن يتصل بالنواب ، وأن يتفق مع كل من : حمد الباسل باشا ، وعلى أيوب بك ، وآخرين ، على أن يوزعوا أنفسهم بين متكلم عن صحة نيابة الدكتور محجوب وبين متكلم عن بطلانها . . . وفى الجلسة المحددة للنظر فى الطعن كان يترأس المجلس أحد الوكيلين ، وكان سعد باشا لا يزال فى مكتبه بدار المجلس . فتوجه إليه النقراشى باشا وأخبره بأن المجلس سينظر الآن فى صحة نيابة الدكتور محجوب ، فنهض سعد مهرولا إلى قاعة الجلسة ، كأنه شاب فى عنفوان شبابه . . .

لم يُرَ سعد يجرى بتلك السرعة قبل ذلك اليوم ولا بعده . . .

ومن الطريف أن سعداً كان قد كلَّف بعض أصدقاء الدكتور أن يُدخل فى روعه أن الأحرار الدستوريين - وعلى رأسهم محمد محمود باشا - هم الذين يصرّون على إرجاء نظر الطعن المقدم ضده ، وإفهامه أن سعداً يرشح الدكتور ليكون أول وزير للصحة - وكانت لا تزال مصلحة - وأن الأحرار الدستوريين يرشحون الدكتور حافظ عفيفى وكان سعد قد اتفق مع محمد محمود على أن يدس على الدكتور من يؤكد له ذلك . وقد فعل ، ورسخت هذه الفكرة فى رأس الدكتور . لذلك ظل يطالب بعرض تقرير لجنة الطعون الخاص به على المجلس .

فلما قرر المجلس نظر الطعن ـ وكان سعد باشا على منصة الرياسة ـ طلب بعض النواب تأجيل النظر فى صحة النيابة ، وقد عارض الدكتور فى التأجيل بشدة ، فوقف أحد النواب طالباً التأجيل ، بحجة أن قرار اللجنة وزع على النواب فى وقت ضيق فلم يتسن لهم درسه . وإذا بحمد الباسل باشا يطلب الكلمة ، وهو يتصنع الجد ، فيقول : ياحضرات النواب . . . أنا أطلب التأجيل حتى لا نتعجل فى حرمان المجلس من رجل فى مثل مكانة الدكتور العلمية وسعة معلوماته وتجاربه . فوقف الدكتور غاضباً وقال : لا ياسيدى أنا لا أقبل أن تكون نيابتى معلقة . وأن يكون عدم النظر فى الطعن كإحسان منكم . وأتمسك أن تعلنوا بحق رفض الطعن أو قبوله إن كان ما ترونه حقاً . وقال كلاماً كثيراً فى هذا المعنى .

وهنا أعلن سعد أن الكلمة لحضرة النائب المحترم على أيوب بك . فإذا بالأستاذ على بك يعلن أن اللجنة قد أخطأت فى تقرير رفض الطعن ، مدللا على ذلك بخطأ حسابى وقعت فيه اللجنة فى عملية جمع الأصوات المعطاة للدكتور ، وهو خطأ قد يكون غير مقصود . وكان على أيوب بك يعلم ذلك وهو مقتنع بصحة نيابة الدكتور محجوب ، ولكنه كان متآمراً بقصد الدعابة والإحراج تنفيذاً للخطة التى رتب أدوارها سعد باشا . فروّع الدكتور ، واعترى أعضاء المجلس الوجوم خوفاً أن يحرموا من زمالة محجوب . . .

وهنا يطلب سعد « الرئيس » من على أيوب بك أن يعيد الكلام بتؤدة حتى يستطيع الرئيس أن يتفهمه ، حتى إذا انتهى على أيوب بك من كلامه تظاهر سعد بأنه لم يفهم كل كلامه . . ويطالبه

مرة أخرى بأن يعيد القول من جديد. ويظل على بك يكرر هذا الكلام ـ الذى يفيد معنى وجوب قبول الطعن ـ أربع مرات .

هنا يتراءى لمراد الشريعى بك أن على بك كان جاداً .. لأنه لم يفطن إلى أن على بك كان يستغل خطأ لجنة الطعون فى عملية جمع الأصوات من جهة .. وضم الأصوات الباطلة التى أضيفت إلى منافس الدكتور ـ خطأ ـ من جهة أخرى ، فأسرع مراد بك إلى منصة الخطابة مندهشاً ، منفعلا ، وهو يقول لعلى أيوب بك : « ما هذا ! أأنت جاد فيما تقول ؟ » وقد كان فى غاية الأسف والألم . فأجابه على أيوب بك : « وهل تحسبنى أمزح فى مثل هذا الموقف ؟ » ثم استرسل فى تكرار كلامه بتؤدةٍ وتأنٍ ، دون أن يبدو على أسارير وجهه أنه يغالط .

إلى هنا كنت ترى الدكتور محجوب فى مقعده بين النواب كالمأخوذ ، وخلفه يجلس النقراشى باشا متظاهراً بالأسف ، وفى يده جريدة يروّح بها للدكتور ... ولما طلب الدكتور أحمد ماهر الكلمة ليفند كلام على أيوب بك .. قال سعد باشا للدكتور ماهر : « اصبر يا حضرة النائب حتى ينتهى حضرة النائب المتكلم » .

وكان الدكتور أحمد ماهر قد خشى على أعصاب الدكتور محجوب أن يؤثر فيها استمرار على بك فى ترداد كلامه ... ولما انتهى على بك من كلمته وختمها بطلب التأجيل على الأقل .. إذا بصوت الرئيس سعد يتجلى فى روعته المدوية : « الكلمة الآن لحضرة النائب المحترم الدكتور محجوب ثابت » .

الدكتور محجوب : يا دولة الرئيس . . يادولة الرئيس . . أمزاح هذا أم جد ؟

الرئيس : بل جد فى جد !

الدكتور محجوب : إذن أطلب التأجيل !

الرئيس : قلنا ذلك . وأنت الذى أصررت على عدم التأجيل ، وعليه فطلب التأجيل الآن مرفوض .

الدكتور محجوب : إن كلام على بك أيوب جاء مفاجأة لى ولإخوانى
وتحتاج هذه المفاجأة إلى إمعان النظر . . .
ولا تنس يادولة الرئيس أننى الوفدى الأصيل !

الرئيس : وهو كذلك . . الآن الكلمة للنائب المحترم الدكتور أحمد ماهر .

وقف أحمد ماهر بين دوى من تصفيق المجلس ، وأخذ يفند أقوال على أيوب بك مبيناً للمجلس كيف أنه تعمد استغلال أخطاء مطبعية وقعت فى تقرير اللجنة استغلالا قصد به مداعبة الدكتور محجوب . فلما ختم كلامه معلناً رفض الطعن قوبل ذلك بالتصفيق والموافقة ، وتحول وجوم النواب إلى اغتباط وسرور .

تجمع النواب حول الدكتور محجوب ، وحملوه قسراً على أكتافهم إلى « بوفيه المجلس » فى مظاهرة مرحة . وكانت مداعبة الزّمالة الحلوة الخالصة ، وأخذوا يطالبون الدكتور بأن يوزع عليهم الشربات . وإذا هو يرد عليهم بدعابته المستملحة فيقول لهم : « أيها النواب الزملاء . أشكركم . . أشكركم . . أشكركم . . عندما يمرض أحدكم

سأعالجه بغير مقابل » . ولكنهم أصروا على مطالبته بالشربات والليمونادة . فأخرج قطعة من ذات القروش العشرة وناولها إلى عامل البوفيه وهو يقول : « يقيناً ياولدى هذا المبلغ فوق الكفاية . اسقهم جميعاً ما يطلبون . . . . » . فلما اعترضوا قائلين إن مبلغ عشرة قروش لايكفى مائتى نائب . قال لهم : « فقط عشرة قروش ـ على قدّ الحال ـ وهى كل مامعى . فإذا أقرضنى أحدكم مقادير من جنيهات ، وبالتقسيط بواقع الشهر عشرة قروش ، أسقيتكم شربات وماتشاؤن من غير الشربات والليمون والقهوة بأنواعها » .

لقد كنت أخدعهم

حدثنى الدكتور « محجوب » أنه كان يعلم إلى حد ما أن المؤامرة الخبية المقصود بها المزاح : «كانت مدبرة ضدى . ولكننى تغابيت وتظاهرت بأنى قد خدعت » ولا تنس ياولدى قول معاوية بن ابى سفيان : « إذا خدعك إنسان وانخدعت له . وأنت عالم بأنه يخدعك فأنت الخادع لا من خدعك » اسمع : لاتصدق بأنى كنت مخدوعاً ، أو مأخوذاً ، حينما كان يسندنى « نقرش » ويروح علىّ بالجريدة . لا تصدق ياولدى أنى كنت مروّعاً خائفاً . إنما كنت أقارضهم مزاحاً بمزاح ، ودعابة بدعابة ، وضحكا بضحك ! . . . وهل تصدق أنى لم أفهم كلام حمد الباسل ، أو أنى لم أفطن إلى طريقة على أيوب وإلى مكر أحمد رمزى مقرر اللجنة ؟ غاية الأمر أنى كنت فى مسألة وزارة الصحة وترشيحى لها بين الشك واليقين . أما الشك فلأنى كنت أعلم أن متطلبي هذا المركز كثيرون وأن سعداً كان

محرجاً ـ ولا تنس الجهة التى تريد أن تستأثر بهـا شاهين باشا ـ . وأما اليقين فلأنى أعتقد أن ليس فى مصر من هو أولى منى بوزارة الصحة ، وذلك لجهادى وسابق خدماتى ، واقتراحاتى المعروفة للخاص والعام . ثم لأنى كنت أتمسك بهذا المركز ، لا تحرقاً عليه ، ولا غراماً به . ولـكن لأنفذ ما كنت أطالب به من إصلاح . وهل هناك ما كان يجعلنى أكبر المنصب على نفسى بعد أن رأيت تلاميذى قد أصبحوا وزراء . أما مسألة إيحاء سعد باشا إلى لجنة الطعون بإرجاء النظر فى صحة نيابتى فقد فهمتها وهى « طايرة » فهمتها تماماً وكنت أعلم السبب الذى حمل سـعداً على أن يمزج الجد بالمزاح ، وهذا السبب : هو أن الجرائد الإنجليزية كانت قد ذكرت فى مقالات ضافية أن نجاحى على مرشح الوفد دليل على تحول الرأى العـام فى مصر عنه ، واعتبرت هذا النجـاح بدء تقلص نفوذه فى البلاد . فكل الذى رمى إليه سعد من تعطيل البت فى صحة نيابتى ـ فى الوقت الذى حملنى على ملازمته فى غدوه رواحه ـ موحيـاً إلى الجرائد بأذاعة هذه الملازمة وإعلانها . ليكون ذلك بمثابة رد على إحدى الجرائد الإنجليزية الواسعة الانتشار ، وهى التى زعمت أن فوزى فى الانتخـابات على مرشح الوفد قد جاء أول مسمار فى « نعش نفوذ سعد » . ولقد كان الإنصاف والوفاء منى للنـاخبين الذين انتخبونى بالرغم من تمسكهم بسعديتهم ، إلى حد أن أعيان الدائرة كانوا قد حضروا من الإسكندرية وقابلوا سعداً وصارحوه بأنهم مع تمسكهم بزعامته سينتخبونى :ـ نعم كان الانصاف يقضى علىّ أن أتجه إلى الهدف

الذى رمى إليه سعد ، وأن أتغابى عن تلك الدعابات ياولدى !.

ليس الغبي بسيد فى قومه   لـكن سيد قومه المتغـابى

ولذلك أشعرت إخوانى وزملائى ، بأنى كنت أجهل إيحاء سعد إلى اللجنة . وكان قميناً بى أن أضيف إلى سلسلة تضحياتى المتصلة الحلقات تضحية جديدة زهيدة ، بأن أغض الطرف عن الزهو الشخصى والفخر بفوزى على مرشح الوفد ، وهيله ، وهيلمانه ، وسرادقاته ، ونقوده . وكان الجدير بى أن أقر بالجميل لأعيان دائرة « مينا البصل » والناخبين النبلاء . وأن أحافظ على مشاعر الأعيان الذين لم يكتفوا بمقابلة « سعد » بعد أن تـكبدوا مشاق السفر ونفقاته ، بل عادوا إلى الثغر الأغر ينفقون من خالص أموالهم نفقات المعركة الانتخابية وما يتطلبه الطواف والتنقلات . وليس هذا فقط ، بل لم يتركوا لى فرصة لأضع يدى فى جيبى إلى حد أنى لم أنفق دانقاً . . . ولست أنسى يوماً نزلنا فيه أثناء الطواف بمقهى « الحاج » المعروف فى « كوم الشقافة » وقد تجلت أريحية صاحب المقهى بتكريمه لى فى تعريجى على مقهاه أن احتسب على نفسه جميع ما قدمه لرواد المقهى عند وجودى وهم ملتفون حولى ، وكانوا يتجاوزون المئات وتكررت منه هذه الأريحية مرات . فإذن لم يكن من الوفاء ياولدى لهؤلاء النبلاء إلا أن أبقى على الوفاء وصلة الود والمحبة بينى وبين « سعد » من جهة ، ومن جهة أخرى كان لزاماً علىّ أن أبرّ بوعدى لأهل الدائرة الذين عاهدتهم بأنى سأظل على سعديتى ، وفى نفس الوقت ، كان علىّ أن أعمل على أن لايشمت فى « سعد » أصحاب الجرائد الإنجليزية

الذين استغلوا نجاحى استغلالاً غير كريم ، لا حباً فى شخصى ، ولـكن شماتة فى سعد ، تلك هى الحقيقة . على أنى صارحت الناخبين وأعيان الدائرة : بأنى سأكون مع « سعد » مع الاحتفاظ بحرية رأيى فى المسائل الوطنية الـكبرى ، وعلى رأسها وحدة وادى النيل ، فإذا عجزت عن إقناعه بوجهة نظرى ، فسأكون مستقل الرأى مع الاحتفاظ بالاحترام المتبادل بيننا . ثم قال : تلك هى الحقيقة التى لا مرية فيها .

أرأيتم أيها الناس مثل هذا الشعور الـكريم تظهره هذه الصورة الرائعة التى تحوى أطهر مثـال للوطنية وبعد النظر وخالص الوفاء والاعتراف بالجميل . . . ؟

اللهم ارحم محجوباً . . وارحمنا . . . .

النص الرسمى

لما دار فى جلسة ٦ يوليه سنة ١٩٢٧ بمجلس النواب

خاصاً بنظر الطعن المقدم ضد انتخاب الدكتور محجوب ثابت

وإذ نشير إلى الجلسة التاريخية التى نظر فيها الطعن المقدم ضد انتخاب الدكتور محجوب ثابت ، نذكر أن طابع الدعابة كان هو المدبر من جانب المغفور له سعد زغلول باشا رئيس مجلس النواب وقتئذ ، وقد قصد به إفهام الجرائد الانجليزية بطريقة بارعة خطأها فيما نشرته عن اعتبار فوز الدكتور محجوب ثابت على مرشح الوفد بمثابة تحول الرأى العام عن سعد . ولعل هذا الاتجاه الدعابى الذى

تجلى فى هذه الجلسة هو الذى حمل سكرتيرية المجلس على التجاوز عن كثير من العبارات فلم تثبتها فى المضبطة .

وقد حرصت فيما أوردته بالفصل المتقدم على ذكر التفاصيل الكاملة لما حدث فى الجلسة كما سمعته فى يومه واحتفظت به فى مذكراتى حتى جاء أوان بعثه وإثباته بنصوصه . ثم رأيت بعد ذلك أن أورد هنا النصوص التى سجلتها المضبطة بجلسة الطعن فيما يلى :

الدكتور عبد الحميد سعيد — لم يوزع هذا التقرير إلا من مدة قريبة ، ونحن نريد أن نبحث هذا الطعن بحثاً دقيقاً .

أرجو تأجيل النظر فى هذا الطعن .

الأستاذ محمود فهمى النقراشى — أرى أن ينظر هذا الطعن فى هذا اليوم .

(وهنا تولى حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا منصة الرياسة)

عبد الرحمن عزام بك — لقد طلب حضرة الزميل المحترم عبد الحميد سعيد بك تأجيل النظر فى الطعن المقدم ضد حضرة الدكتور محجوب ثابت بك . وإنى أعارض فى طلب التأجيل ، لأنه قد مضى على وجود حضرة الدكتور بيننا ما يقرب من ستة شهور (؟!) وأصبح المجلس يقدر حضرته تمام التقدير (ضجة) ولا يمكن للمجلس أن يدع مثل حضرة الدكتور محجوب فى حالة مجهولة ، خصوصاً وأن لجنة الطعون قد حفظت هذا الطعن عندها طول هذه المدة ، ثم جاءت فقدمته

في آخر الدورة البرلمانية ، فان لم ننظره في هذه الدورة ظل حضرة الدكتور معلقاً كما هو ستة أشهر أخرى ، ولا ذنب له في ذلك . لذلك أرجو أن توافقوا حضراتكم على نظر الطعن في جلسة هذا اليوم .

الرئيس — ما هي أسباب طلب التأجيل ؟

الدكتور عبدالحميد سعيد — السبب في طلب التأجيل هو أن تقرير لجـنة فحص الطعون لم يوزع إلا اليوم ولم نتمكن من بحثه .

عبد الرحمن عزام بك — إن مسألة هذا الطعن هامة ولقد اهتم معظم حضرات الأعضاء بانتخاب حضرة الدكتور . . . (ضجة) .

الدكتور محجوب ثابت — يادولة الرئيس . لى الشرف أنى مكثت بين ظهرانيكم من الشهور ستة ، فأمضيت رحلة الشتاء والصيف (ضحك) وإنى لا أرضى أن أبقى — كما قال حضرة الزميل عزام بك — ستةشهور أخرى معلقاً قبل أن تثبت صحة نيابتى أو ترفض . إنى أعتبر نفسى كذلك المجوسى الذى دعاه الخليفة إلى الطعام فدمدم وهَمْهَمَ فقال له الخليفة أنت أردت أن تدخل فى الإسلام فلم هذه الهمهمة والدمدمة . فأجابه المجوسى :

أبيْت أن أبيت قبل إسلامى على غير دين (ضحك وتصفيق) ، إنى مكثت مدة عضويتى متشرفاً بزمالة إخوانى ولا يزال صدى ذكريات دخولى هذه الهيئة الموقرة يرن فى أذنى وإذا كان يشق على بعض حضرات الزملاء أن أظل بينهم معلقاً ، فأنا رجل قضيت عمرى كله راديكالياً . وإنى أعتقد أنه يهم المجلس أن يكون أعضاؤه جميعاً خلّصاً ، وألا يكون بينهم عضو معلق ومشكوك فيه . فأطلب من دولة الرئيس أن يأخذ الرأى على التأجيل أو عدمه . . . وإنى أعلم أنى فى جهادى الوطنى سأبقى موالياً لدولة الرئيس الجليل بقيت فى النيابة أو لم أبق (تصفيق) ، نعم إنى أقول ذلك وأؤكده غير هياب ولا وجل ، وماهى إلا كلمة حق صادرة من صميم قلبى أملاها على اعترافى بفضل دولة الرئيس ، فقد كان لى الشرف كل الشرف أن تناقشت فى برنامج الجامعة المصرية التى ولدت عام ١٩٠٤ فى كنف دولة الرئيس الجليل ، كما أنى قد تشرفت بالعمل تحت رياسته فى وزارة المعارف أيام كنت مدرساً فى مدرسة الطب ، والآن فإن غم عليكم شىء من أمر هذا الطعن فهأنذا بينكم ، مستعد لأن أمحص ما التبس منه وأن أبين مايعتوره من شبهات . ولست أقبل على كل حال أن أبقى معلقا.

الرئيس — أترضى أن يحكم فى قضيتك قضاة لم يطلعوا على أوراق الدعوى وليس المجلس إلا هيئة قضائية .

الدكتور محجوب ثابت بك — بالطبع هذا أمر لا يقبل مبدئياً ولكن . . . (ضجة) . . . ولم يطلب الاطلاع

على أوراق الدعوى إلا قاض واحد هو حضرة
عبد الحميد بك سعيد (ضحك) وعلاوة على
ذلك ، فإن تقرير اللجنة قد وزع علينا من
ثلاثة أيام ، وهذا هو اليوم الرابع .

الدكتور عبد الحميد سعيد — إنى متنازل عن طلب التأجيل .

حمد الباسل باشا — إنى أطلب تأجيل النظر فى هذا الطعن ضنا
بالدكتور ، لأنى أرى هيئة المجلس يتنازعها
عامل التعلق بشخص حضرة الدكتور وحسن
تقديره ، وعامل وجدانى هو تلبية أصوات
ضمائرنا باحترام الدستور ، ولست أريد أن
أجازف بتقديم طعن الدكتور فى هذا الظرف
الخطر لئلا تتغلب العاطفة .

الدكتور محجوب ثابت بك — إنى لا أزال مصراً على عدم قبول
طلب التأجيل وأعلن أنى لا أستحق أن أكون
عضواً بمجلسكم الموقر إذا كنت أنا موضعاً
لشفقتكم .

الرئيس — إذن فلنبدأ فى الطعن المقدم ضد انتخاب الدكتور
محجوب ثابت .

وهنا أخذ المجلس فى مناقشة تقرير لجنة الطعون والبحث فى وجهة نظر اللجنة عما جاء فى عدد الأصوات المعطاة لكلا المرشحين وما جاء بينها من أصوات طعن فى صحتها وهى التى كان يعتمد عليها مقدم الطعن .

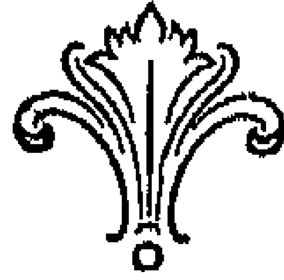
وقد ثبت للمجلس أنه حتى ولو أضيفت الأصوات الثلاثة عشر إلى منافس الدكتور ، وخصمت من عدد الأصوات المعطاة للدكتور محجوب ثابت فإن ما يبقى له من أصوات بعد ذلك يزيد على الأغلبية المطلقة وعلى ذلك فلا محل للطعن .

فلما استوضح المجلس من مناقشة تقرير لجنة الطعون هذه النتيجة طلب الرئيس أخذ الأصوات بالموافقة على قبول الطعن فلم يقف أحد ، وأعلن الرئيس :

صحة نيابة الدكتور محجوب ثابت

* * *

ولقد كان اهتمام الرأى بالطعن فى صحة نيابة محجوب شديداً والانتقاد الموجه إلى لجنة الطعون لجنوحها إلى البطء المتعمد مراً كما وُجِّهَ إلى نفس الدكتور نقداً كثيراً فكان يدفع عن نفسه بما تقدم .



بين الدكتور محجوب ومحمد محمود باشا

كانت بعض الصحف والمجلات قد تجنت على الدكتور محجوب بإيعاز من أحد رؤساء الأحزاب ، فادعت أنه يتقاضى مبلغاً كبيراً من محمد محمود باشا رئيس الوزارة فى سنة ١٩٢٨ لتأييده وجمع العمال حول حكومتـه وحزبه . إذ كان الدكتور زعيمهم ومستشارهم وقد كان هذا الادعاء محض اختـلاق من نسج خيال هؤلاء المحررين الذين كانوا يروجون زور الأخبـار وإفك الروايات تعمداً حول اسم الدكتور محجوب بقصد تشويه سمعته .

وكان هدف المفترين هو تشكيك العمال فى مستشارهم الأمين ، والحيلولة بين الهدف الذى كان يرمى إليه الدكتور وهو إبعاد العمال عن خضم التنافس الحزبى حتى لا يُتخذ العمال أداة لبنـاء أشخاص وهدم آخرين . وكان هذا العمل يتعارض مع الرغبة الملحة للزعمـاء الذين كان كل همهم تجنيد العمال للهتاف لهم ، ثم اتخاذهم أداة طيعة للنَّيْل من منافسيهم ، واتخاذ حناجرهم أبواق إعلان لهم ، وتمجيداً لأشخاصهم .

تلك هى الأسباب التى جعلت بعض الزعماء يحاول تشكيك العمال فى مستشـارهم الأمين . على أننى أستطيع أن أوضح إيضاحاً صريحاً أن العـلاقة بين محمد محمود باشـا وبين الدكتور محجوب كانت قد توثقت من عهد حياة المغفور له والده محمود سليمان باشا .

محمد محمود باشا يطلب ضم الدكتور إلى حزبه

لما تولى محمد محمود باشا الحكم سنة ١٩٢٨ استدعى إليه الدكتور محجوب . فلما دخل عليه رحب به أجمل ترحيب ، ثم قال له : « يادكتور .. إن لك اقتراحات لها قدرها وفائدتها وإنى أعلم أنك قد قتلتها بحثاً ودرساً . وهأنذا على رأس الحكومة .. وإنى على استعداد لتنفيذها ، ولن يحول دون ذلك حائل .. وبعد أيام سأقوم برحلة أجوب فيها أنحاء القطر لأتفقد حالة الفلاحين بنفسى ، وسأنفذ كل ما يتطلبه الإصلاح دون تردد أو توان » .

وكان الدكتور محجوب يحتفظ فى جعبته بقائمة تحوى ما كان ينادى به من الاقتراحات الإصلاحية ، فدفع بها إلى محمد محمود باشا ، فدهش دولته لهذه المبادرة العاجلة . فقال : « ما هذا يادكتور ؟ هل كنت تعلم أنى استدعيتك لهذا السبب فجئت متسلحاً باقتراحاتك ومشروعاتك لتحرجنى ؟ » فأجاب الدكتور : « أى نعم » . ثم قال بعد أن أغمض عينيه وفتحهما : « إذاً أنت ستقوم برحلات لاتقصد منها تشنيف أذنيك بالهتاف والتصفيق بل لتتفقد الأحوال ؟ » . فأجابه الباشا مؤكداً : « بأنه سيطوف بقصد الإصلاح » . قال الدكتور : « لا تدخل قرية أو مدينة وتخرج منها دون أن تضع أساساً لمستشفى دائم يقوم بمعالجة الأمراض المتفشية ، تلك الأمراض التى تحصد الأرواح ، على أن تحفز همم الأعيان والأغنياء للتبرع السخى ، وعلى أن تساهم الحكومة بنفقات إنشاء هذه المستشفيات .

وقبل كل شيء أحب ألا تغادر قرية أو دسكرة إلا بعد أن تصدر الأوامر بردم البرك والمستنقعات التى تنشر الأمراض ».

ولقد نفذ محمد محمود باشا الكثير من هذه المقترحات. ومن العجيب أن بعض الجرائد والمجلات نعتته بوزير « السخام والبرك » بوحى من الذين ينكرون فضل المحسنين !!!.

وهذا من عيوب أحزابنا الظاهرة التى تعمد إلى تشويه محاسن غيرها ثم تتخذ من أرباب المحدودى الذمة آلات لتحسين سيئاتهم ومقابحهم.

وطالبه الدكتور بإنشاء مساكن صحية للعمال، وقد نفذ محمد محمود باشا هذا الاقتراح. وأمر ببناء مساكن العمال فى حى « السيدة زينب ».

وجاءت الوزارة النحاسية التى تلت الوزارة المحمدية فانتزعت هذه المساكن التى أقيمت للعمال وأجرتها لطائفة من الموظفين الموسرين المحظوظين، وهنا كنت ترى الدكتور محجوب، وكأنه الأب الذى فقد ابنه وفلذة كبده. أو الذى خسر مجهوداً بذل فيه الأيام والليالى.

من اقتراحات الدكتور محجوب التى جاهد لها

كان من بين المقترحات التى قدمها الدكتور محجوب إلى محمد محمود باشا مشروع التجنيد الإجبارى الذى يحتم على كل مصرى أن يؤدى « ضريبة الدم » بلا فارق فى هذا الأداء بين غنى وفقير، حتى يقضى بذلك على نظام « البدلية » الذى كان يعتبره الدكتور محجوب وصمة عار فى جبين مصر. فلا يقام كيان الجيش المصرى إلا على أبناء الفقراء لعجزهم عن دفع فدية التجنيد.

طالب الدكتور محجوب بهذا فى مجلس النواب فى جلسة مشهودة

يوم دخوله المجلس بالذات للمرة الأولى .

وطالب الدكتور محجوب بإنشاء عدد من المستشفيات فى أنحاء القطر لعلاج أمراض الصدر والجذام ، كما طالب بجعل التعليم إجبارياً وسن قانون لحماية العمال من الشركات وأصحاب رؤوس الأموال ، وإصدار تشريع لتقاعد العمال الذين يعجزون عن مواصلة العمل لكسب أقواتهم بعد تقدم السن ، وتشريع لتعويض العمال الذين يصابون بعاهات فى أثناء العمل ، وكان أول من طالب بسن قانون استقلال القضاء وإنشاء الجيش المرابط ، وحماية حقوق المؤلفين ، وإنشاء نقابة للصحفيين ، وتوليد الكهرباء من خزان أسوان واستغلالها فى خلق طائفة من الصناعات وتحويل القمامة إلى سماد . وهو الوطنى الوحيد الذى دعا وجاهد فى سبيل التدريب العسكرى لطلاب الجامعة ليكون منهم ضباط احتياطيون يسدون حاجة الجيش فى نهضته الجديدة ، وهى الفكرة التى سرت وأشاعت الروح العسكرية المتحمسة ، وحببت المصرى فى الجندية العاملة الشريفة . ولقد اكتحلت عيناه بأن رأى ثمرات غرسه دانية القطوف ، ثم طالب بإنشاء إصلاحية جديدة للأحداث ليفصل المجرمون بالوراثة منهم عن الذين اضطرتهم أحوالهم السيئة الطارئة إلى ارتكاب الجرائم .

تلكم مجموعة زاخرة ، بل قطرات من بحر من المفاخر التى قام بها الدكتور محجوب فى مختلف العهود . وقدم أكثرها إلى محمد محمود باشا ، فتقبلها — رحمه الله — مغتبطاً وهو يقول : « حبًّا وكرامة » . وهنا قال محمد محمود باشا للدكتور : « والآن أدعوك إلى مرافقتى

فى رحلاتى الاقليمية لتساهم بنفسك فى الاشراف على تنفيذ مقترحاتك فى مواضعها المخصصة لها فى كل مدينة وفى كل قرية فى غير ما تردد أو ضن بجهد أو مال » .

ثم حول المغفور له محمد محمود باشا مجرى الحديث وابتسم ابتسامة المتمنى قائلا : « ألا تقبل يادكتور الانضمام إلى حزبنا لتتعاون معى فى ترويج سياستى على أساس تعهدى بتنفيذ اقتراحاتك كاملة شاملة؟ » فأجابه الدكتور : « أما الانضمام إلى حزبك أو حزب غيرك بعد اليوم فلا ولكنى سأؤيد سياستك إذا أحسنت فى خدمة الوطن ، وكذلك سأقول لكل وزارة تجىء بعد وزارتك ، سأقول لها : أحسنت ، إذا أحسنت ، وأقول لها : أسأت إذا أساءت ، وأعدك بأنى سأرافقك فى رحلاتك لتكتحل عيناى بمرأى جهودك وتنفيذك لمقترحاتى ، ولا سيما إنشاء المستشفيات قبل كل شىء ، أما الانضمام إلى الأحزاب التى حَطّمَتْ ولا تزال تُحطم ما كان باقياً سليما من أخلاقنا ، فهذا أمر لا أفكر فيه ولن أقبله . وقد جعلت حزبى الله ومصر وسودانها » .

ولما قال له محمد محمود باشا : « أيكون رأيك هذا فى حكمى وحزبى بعد أن أنفذ اقتراحاتك ، أفستقارن بينى وبين غيرى فى هذه الناحية ؟ » فأجابه محجوب : « كفى ما عانيت من الأحزاب . . كفى ما رأيته من الدسائس والوشايات . . . كفى . . كفى . . . إن العامل فى حزب من الأحزاب يظل مشغولا ومنهمكا فى الدفاع عن نفسه من وشايات الواشين . على أنى فى اليوم الذى تنفذ فيه هذه الاقتراحات سأؤيدك ، وأنادى على الملأ فى صراحة وجهر بأنك المصلح — إن

شاء الله — وسأظل كذلك بعيداً عن الأحزاب وبمعزل عن الزعماء والمتزعمين ، حتى أقتنع بأن الحزبية فى مصر قد أصبحت وسيلة لخدمة الوطن . وحتى يتغير الوضع الحالى ، وهو اتخاذ البلد وأبنائه لخدمة الحزبية والأشخاص » .

وهنا انفعل الباشا وقال : « هل ينطبق هذا الوصف يادكتور علىّ وعلى حزبى أيضاً ؟ » فأجاب : « إنى دائماً أتكلم بصفة عامة ، ولا أتردد فى إبداء رأيى فى هذا الموضوع ، وهو أن الأحزاب فى مصر غيرها فى البلاد الأخرى ، أقولها كلمة صريحة واضحة ، وسأقولها إلى أن يتغير الوضع الذى أشكو منه .. وهى أن الحزبية فى مصر كانت نكبة على الأمة وهدماً للأخلاق وتعويقاً للاستقلال » .

الدكتور محجوب يستشير العمال ويحذرهم

بعد أن انصرف الدكتور محجوب من هذه المقابلة دعا إليه ممثلى العمال . فلما اجتمعوا عنده أفضى إليهم بكل ما دار بينه وبين محمد محمود باشا ثم قال لهم : « أيها العمال : جانبوا الأحزاب لمصلحتكم ومصلحة وطنكم ، لا تكونوا مطايا للأشخاص ، احذروا الزعماء والمتزعمين وسماسرتهم المستغلين ، لا تتحزبوا ، بل قفوا من الأحزاب موقفاً سلبياً ، وليكن تأييدكم لكل حزب بقدر ما يعمل لمصلحتكم ومصلحة وطنكم . أيدوا من يعمل لكم خيراً ، واخذلوا من يحاول تسخيركم . ولا أريد أن يكون لسان حالى يوماً ما « ذل من دافع عن الذليل » . كونوا أعزاء النفوس ، أوفياء لمن يعمل لصالحكم ،

ولاتقصروا عنق ، ولا تستمعوا لقول الذين يقولون لكم : أيدوا الأحزاب « على بياض » وأكرر لكم القول والنصيحة أن يكون تأييدكم لكل حزب بقدر ما يعمل لرفع مستواكم من حيث المعيشة والصحة والنهوض بكم إلى مستوى كريم . ولكن لا تنسوا استقلال مصر وسودانها ، والسودان ومصره » .

فلما وافق ممثلو العمال على خطة الدكتور ، بعث إلى محمد محمود باشا يخبره بأنه على استعداد لقبول دعوة الاشتراك فى الرحلات الاقليمية المقررة . وما أن سافر الدكتور فى صحبة محمد محمود باشا حتى ثارت ثائرة الجرائد والمجلات المنتمية إلى حزب الوفد ، متحاملة على الدكتور محجوب ناسبة إليه كل ما هو برىء منه وبعيد عنه . ولقد زادت هذه الحملة الظالمة جماعة العمال تمسكاً بالدكتور والتفافاً حوله .

وهكذا قد أنتجت الحملة الغاشمة عكس النتيجة التى رغب فيها الذين أوحوا بها . وأشاح العمال بوجوههم عن الذين دبروا حملتهم الظالمة .

فيا لطغيان السياسة الرخيصة على الوطنية السليمة المظلومة .

ومن العدل الإلهى أن عاش محجوب حتى رأى بعينيه من حاولوا أن يبذروا بذور الشك حول اسمه بغير حق ، قد أصبحوا مضغة فى الأفواه أولئك الذين جاءوا إلى الحكم بموجب تبليغ أجنبى فظيع وظلوا فى الحكم بموجب تبليغات أخرى .

ولكم كان مؤلماً للنفس المنصفة أن يُتهم محجوب فى مواطنيه . !

وممن ؟

من الذين طالما تاجروا بالوطنية وبارت تجارتهم ، وكسدت سوق

مزاعمهم. وعاش محجوب حتى رأى بعينيه كساد سوق الأكاذيب.

سمعت محجوباً يصارح محمد محمود بقوله: «إنى أستنكر تعطيلك للحياة النيابية، ولا أوافق على وقف بعض مواد الدستور. ولا أوافقك إلا على الإصلاح العام الذى وعدتنا به».

إذن لم يبع محجوب عقيدته، ولم يساوم على حق الأمة بمنصب ولا جاه، فكان جهاده الوطنى عليه غُرْماً واتهاماً، ولغيره من دعاة الباطل مكسباً ومغنما. ومع هذه الحقيقة الواضحة لم تتورع الجرائد والمجلات المأجورة التى يوحى إليها الذين أدوا فى مصر ماكان يؤديه «راسبوتين» فى روسيا القيصرية، وحاولوا أن يتشبهوا بـ «باجا سقا». الأفغانى! نعم لم تتورع تلك الجرائد عن مهاجمة محجوب واتهامه محاولة النَّيْل منه. وما كان عنده من رد يلائم طبيعته العفة إلا أن يردد قول شيخ المعرة:

فيا أذنى هل فى الذى تسمعينه ... من القول إلا فرية وزعوم

ثم يبرز للناس رصيده فى البنك وقد تضاءل إلى أقل من واحد فى المائة مما كان له من مال مدخر. ثم يترنم فى تأس واعتزاز ورضاء بقول القائل:

إذا قدَّموا بالوفر قدمت قبلهم ... بنفس فقير كل أخلاقه وفر

وأخيراً يقول لخاصته: «سيرى المختلقون النفاجون بعد موتى أنى خرجت من دنياهم عريانا» وقد كان.

وحقاً كان جهاد محجوب المرير الطويل، ورحلته الشاقة المخلصة فى رحاب الدنيا مكافحاً نزيهاً، أن خرج من معركة الحياة، وضجيج الأحياء فيها عرياناً، يحتسب أجره لوطنه على الله، وفى ذمة التاريخ جهاده.

وسبقه فى هذا الخروج رجال أدوا للوطن أحسن الأداء ، فلم يتقاضوا ثمناً ولا طلبوا جزاء ، وفى طليعتهم إمام المضحِّين « محمد فريد » و« أمين الرافعى » سيد الصحافيين ، وأنزه من أدى الرسالة ، الذى رثاه شاعر النيل حافظ ابراهيم بقوله :

أيلبس الخز من لانت مهزته وأنت تخرج من دنياك عريانا

ولقد خرج محجوب من دنياه كما خرج محمد فريد وأمين الرافعى ، وإنه لمن طرازهم العالى الغالى من الوطنيين الذين جاهدوا فى سبيل الوطن .

رأى محجوب فى الخصومة الحزبية

لا معدى لنا قبل أن نذكر رأى محجوب فى الخصومة الناشبة بين الأحزاب ، أن نوضح أنه لم يكن بخصيم لحزب ولا صديق لزعيم أو رئيس بذاته ، ولكنه كان المصرى الوطنى الذى احتفظ بصداقته لجميع الزعماء ، وحفظ له أكثرهم مسلكه الوطنى الكريم لأنه كان يشيد بمزايا كل زعيم وينتقد فى صراحة عيوب كل منهم ، مفرقاً بين حسناتهم وسيئاتهم . ولكن الزعماء لا يطيقون النقد ولو كان بريئاً بقصد الإصلاح .

كانت علاقة الدكتور محجوب بمحمد محمود باشا قديمة ، إذ كان صديقاً لمحمود سليمان باشا . ثم كان زميلا له فى لجنة الوفد العامة الذى كان يرأسها الشيخ الوقور محمود سليمان . ومن المعلوم أن الوفد المصرى قد تألف فى بيت والد محمد محمود باشا . وفى هذا البيت تقرر إسناد رياسة الوفد إلى سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية المنتخب من قِبَلِ الأمة .

ولما حدث انشقاق الوفد شطرين (١) وألف الشطر الثانى حزب الأحرار الدستوريين، ولم يعمل رجال هذا الشطر بنصيحة اسماعيل أباظه باشا الذى نصحهم بأن يسموا حزبهم باسم الوفد أيضاً، وذلك لأن كلمة « الوفد » رسخت فى الأذهان، واقترنت بأسماء الشهداء الذين سقطوا مضرجين بدمائهم فى ميادين الجهاد الوطنى. ولأن كلمة الوفد قد اتُخِذَت رمزاً للجهاد، وعنواناً للمفاداة. إن اسم الوفد قد أصبح عقيدة وطنية، لذلك أنصحكم بألا تطلقوا على حزبكم اسماً غير اسم « الوفد ». نازعوا سعداً فى اسم الوفد قبل أن تنازعوه فى الرأى السياسى.

فلما حدث الشقاق الذى حوّل دفة الحركة الوطنية، لم يقحم محجوب نفسه فى الخصومات الشخصية ولا فيما تولّد عنها من المهاترات. وكان الحزن يحز فى نفسه كلما سئل عن رأيه فى تلك التهم المتبادلة بين المتخاصمين، يجيب: إنها تفرق الكلمة.. إنها المعاونة تطوّعاً لأرباب سياسة ومبدأ « فَرِّقْ تَسُدْ »، إنها الفتنة العمياء، إنه إضعاف الأمة إنه تحريف الكلمة، إنى أخشى أن يتخذ الانجليز من مصر هنداً أخرى عن طريق هذا الشقاق. ولكن الزعماء يتغافلون. ثم يردد فى ألم مصحوب بالحزن قول القائل:

لم أكن من جناتها علم الله وإنى بحرها اليوم صالى

ثم يردف ذلك بقوله: « ولكن لا أمر لمن لا يطاع. ليت

---

(١) سيجىء ذكر هذا الانشقاق بالتفصيل الوافى فى كتابنا « حوادث مصر السياسية » - إن شاء الله -

قومى ينتبهون . وليتهم يعقلون . فلن يستبينوا النصح إلا بعد فوات الغد . أرجو الله ألا يفوت ، وإن شاء الله لن يفوت فإن الوطنيين المخلصين لبالمرصاد للمتاجرين يكشفون للأمة حقيقتهم » .

دعاية فى الاقصر ، وجد فى القاهرة

بين الدكتور محجوب ومحمد محمود باشا

أراد محمد محمود باشا أن يقضى سهرة ممتعة وهو بمدينة الأقصر مع طائفة من الوزراء والشيوخ والنواب والأدباء وكبار المحامين ، فأوعز إلى الأستاذ أحمد خشبة باشا أن يوهم الدكتور محجوب ثابت أنه مرشح وزيراً للصحة فى الوزارة الائتلافية ، وأن الذى يقف فى طريقه هو محمد باشا ليؤْثر بها أحد زملائه الدستوريين . وكان إيعاز محمد محمود باشا لخشبة باشا بقصد الدعابة التى كانت قد أصبحت ممجوجة لدى الدكتور ، فقام احمد خشبة باشا بمهمته ، وأمعن فى تمثيل دوره إلى حد أن أكد للدكتور ذلك ، ثم أوغل محمد محمود فى استدعاء الأصدقاء الذين وَزّع على كل منهم دوراً من أدوار تمثيل هذه الرواية . واتفق معهم على أن يدور سمرهم فى سهرتهم حول هذا الموضوع . وقد قام أحد كبار المحامين بإقناع محجوب بأن محمد محمود باشا هو الذى يقف فى سبيل اختياره وزيراً للصحة فى هذه المرة أيضاً .

فإذا بالدكتور يحاول أن يكظم غيظه ، ثم إذا به ينفعل قليلا ثم يشتد فى الحملة على محمد محمود باشا . وظلت الندوة إلى الفجر وكان الدكتور يخطب ويتدفق بلاغة وبيانا ، يأخذ بمجامع القلوب

فقال لمحمد محمود : « إن اليد الأجنبية التى حالت بينى وبين حقى عن طريق غيرك يابن محمود فيما مضى ، هى نفس اليد التى تقف فى سبيل وصول حقى إلىّ عن طريقك » وظل الحديث يدور حول هذا . وقد قضوا سهرة طويلة فى الأقصر . . . ولكن الدكتور كان قد أسرها فى نفسه وعاد إلى القاهرة متأثراً متألماً . . . وكان الأستاذ كامل الحِلِّى قد تحدث مع الدكتور محجوب تليفونياً وأبلغه ما أثار ثائرته ؟

فما أن وصل محمد محمود باشا إلى القاهرة حتى صمم محجوب على مقابلته ، ووصل ما انقطع من حديث فى الأقصر ، عقب محادثة تليفونية أخرى مع آخر . وتوجه إلى محمد محمود وقال له :

ــ أنت يابن محمود غادر ، وحاسد ، وحاقد . ذلك لأنى الخطيب الذى لن تستطيع أن تباريه ، وأنت لا تريد الاعتراف بذلك . مع أنك تود بجدع الأنف أن تكون المجلّى (١) فى الخطابة بالنسبة لى ، وأنا لا أرضى أن تكون المصلّى (٢) ، إنك تحسدنى لأنى الخطيب الذى يهز أعواد المنابر هزاً ، ويفحم الخصم إفحاماً . فإن كان يابن محمود وقوفك فى سبيل ترشيحى للوزارة هزلا ، فقد طال أمد هذا الهزل بعد أن أصبح حديثاً معاداً ، أما إذا كنت جاداً فاسمعها منى كلمة صريحة واضحة فقد ضقت ذرعاً . . . إنى لست بالطامع فى المنصب الوزارى غراماً به ، أو تحرقاً عليه . وأحب أن يكون معلوماً أنى إذا حاولت يوماً ما أن أكون وزيراً ، إنما لأنفذ مقترحاتى ومشروعاتى الإصلاحية

(١) المجلى : هو الجواد السابق .
(٢) المصلى : هو الجواد الثانى .

التى تعرفها وقد استغلها غيرى ونسبها إلى نفسه !؟» .

عندئذ أراد محمد محمود أن يهدىء من سورة غضب الدكتور فعرض عليه السفر إلى ساحل سليم للاستجمام . فقال : « لا ، أنا إذا ـ قَبَّلْتُ ـ[1] إنما لأنزلن عند آل خليفة[2] لأقول لهم مايجهلون من أمرك ، وأسمع منهم ما أجهله من شأنك ، أنت تحسدنى لأنى الخطيب الذى أقنع الناخبين بمينا البصل بذلك اللسان العريض الذرب التيحان . فانتخبونى وخذلوا من كان له الهيل والهيلمان ، والسلطة والسلطان ، والسرادق والسرادقات ، مع إننى لم أنفق مليما ولا دانقاً ، ولم أحمل « غدارة » ولا « نبوتا » ، بل كنت فقط أملك قوة الحجة فى دائرة انتخابية ليست لى فيها « عزوة » ، ولا عائلة ولا عشيرة . أما أنت فقد سقطت فى دائرتك الانتخابية ، وأُسقطت بين عشيرتك وأهلك . أين أنت من محجوب ، فى قوة بيانه وذرابة لسانه ، أتريد أن تنافسنى فى الخطابة ، هيهات ماكنت أريد أن أجادلك ولا أن أناظرك . ولكنك أرغمتنى بمزاحك ودعابتك وحقدك ونكرانك لحق وفضلى دعك من هذا المزاح المقصود به الهزل فى الظاهر والهدم فى الباطن ، وأنشد :

لحى الله رأياً قاد نحوك همتى فعلمنى طول المقام على الذم

لقدكان أبوك ، محمود الخلائق والسيرة ، أما أنت فلست بمحمود العشرة . فسواء كان ما تقوله دعابة أو جداً ، فاعلم أنه قد هانت المناصب الوزارية بعد أن سامها غير الجديرين بها . . . ليس ببعيد أنك ظللت

(١) أى سافرت إلى الوجه القبلى .

(٢) مصطفى خليفة باشا عميد عائلة خليفة بمديرية أسيوط .

حاقداً عليّ بسبب عدم قبولى الانضمام إلى حزبك سنة ١٩٢٨ ... يا ابن محمود إن ودك لمشوب بالحسد ... وإخلاصك لممزوج بالحقد ، ووطنيتك لتعتريها الأثرة ، بل تسبقها .. إن الوطنى يحب الوطنى ، وأنت وطنى تمقت الوطنى ! وأمين تكره الأمين ! ونزيه لا تحب أن يكون فى مصر نزيه غيرك .. إنك يا ابن محمود ستكون محل دراسة علماء النفس لتحليل نفسيتك » .

ولما أراد محمد باشا أن يتكلم ، لم يمكنه الدكتور من الكلام واستطرد قائلا : « أنت تحقد عليّ ، لأنى أبيت الانضمام إلى حزبك بعد أن قلت لك إنى أصبحت أستهجن وسائل الأحزاب التى تتلخص فى أن رؤساءها ومَنْ إليهم يتخذون الحزبية والتحزب وسائل للوصول إلى الحكم — وإلى الحكم فقط — لا غرضاً إلى خدمة البلد ، والعمل فى سبيل استكمال هذا الاستقلال الناقص . فعلام الاختلاف ، وفيم التحزب والنزاع والتنازع ؟ . لأنت العدو الكامن فى ثوب الصديق الظاهر ، أنت المانع للخير عمن تدعى أنك تحبه . والحائل لحق مَنْ تزعم أنك ترغب فيه . أتريد أن تتخذنى هزأة ورمزاً للضحك لتنال منى أنا الخطيب والكاتب ؟ ، أما غيرى فيحضِّر له المحضرون ويكتب الكاتبون ويصحح له المصححون ، وأنت تعرفهم وهم كُثْر ، لا وأعود وأقول رأيى فيك ، وحكمى عليك تحليلا لنفسيتك فى صراحة . أنت حقاً ، وطنىّ ، أمين ، ولكنك العدو اللدود ، والخصم المستتر لكل وطنى أمين ! أهذا مركب نقص فيك ، أم هى أثرة لا نظير لها .

على أنى إذ أحللك إنما أنصفك[1] » ولما أراد محمد باشا أن يتكلم مرة أخرى وقد غاضت ابتسامته ، واربد وجهه . قال الدكتور : « لا تقاطعنى ، أرجوك ، إنى لفى عجب من أمرك ! أقول لك منصفاً : لو أن مصر حكومة وشعباً أوفدتك إلى الأمبراطورية البريطانية لتمثل الكرامة المصرية . وإذا فرضنا أن جميع سكان الجزر البريطانية من طبقة النبلاء واللوردات ، وليس فيهم فحام ولا صياد سمك ، لكنت من خير من يرفع رأس مصر ، من حيث الوطنية والإباء والشمم . ولكنك فى نفس الوقت تعمل دائماً على هدم كل من له جانب أو جوانب من تلك الشمائل . مع أن الوطنى الأمين يحب الوطنيين الأمناء ، ويعمل على أن يكثر عددهم، وأنت تأبى إلا أن تكون الأمين وحدك فى أمة بأسرها ! أوَ تظن أن هذا من الوطنية فى شىء ؟ ما قيمة أمة ليس فيها وطنى نزيه إلا واحداً ، هو أنت ؟ أليست هذه هى الأنانية فى أبشع صورها ، أى نعم الأنانية المعدومة النظير ؟ أليس هذا من الشذوذ والنشوز اللذين يحتاجان إلى دراسة وتحليل علماء النفس ؟ ولكن كيف أعاتبك وألومك ، أنا الذى أعرف من تصرفك مع أخيك ما أعرفه . . لقد ضقت ذرعاً بهذا الحقد . أنت لم تنصفنى كما أنصفتك ، أريد بناءك وتريد هدمى ، ما أبعد الفرق ، فاسمع وإن كنت العزيز » .

ولما سأله الباشا عن مصدر هذه المعلومات، لم يجب الدكتور ، بل استمر مستفيضاً . وكان فى حالة لا يمكن أن يقاطع فيها .

(١) هذه كلمات الدكتور بالحرف ، وحاول بعض الناس أن لا أثبتها ، ولكنى رفضت احتراماً للحق والتاريخ .

وضع الشيء في غير محله

قال الدكتور مستطرداً : « إنكم تضعون الشيء فى غير محله . إذ تجعلون من المحامى وزيراً للصحة ، مع وجود الطبيب الذى يصلح لهذا المنصب ، ومن المهندس وزيراً للدفاع ، ومن المزارع وزيراً للأشغال . وترسلون البعثات العلمية إلى الخارج ، تنفقون على طلابها الأموال الطائلة من خزينة الدولة ، فإذا بكم بعد أن يعودوا إلى وطنهم ليفيدوه بما درسوه وتعلموه تعينونهم فى وظائف لم يتخصصوا فيها. فإن كان المتعلم كهربائياً ترسلونه إلى وزارة الصحة كاتباً ، وإن كان زراعياً تعينونه فى وزارة المواصلات فى وظيفة لا تتصل بما تعلمه بسبب ولا نسب ، وهكذا . إنكم تضعون الشيء فى غير محله ، وتقلبون الأوضاع . فقد جعلتم من البنداري[1] وزيراً للصحة ، وهو محام لا أطعن فى مكانته بين المحامين فى المواد المدنية ، ولكن ليست لديه معلومات صحية ، ولا دراسات طبية . كما أنه لم يشتغل بالمسائل العامة ، ولم يجاهد كما جاهدت ، ولم يُضطهد كما اضطهدتُ ، ولم يُنكب فى سبيل الحركة الوطنية كما نُكبت ، ولم يُنف كما نُفيت ، ولم يفتش له مكتب كما

(١) قال لى الأستاذ عبد المجيد صالح باشا وهو أديب مفكر كثير الاطلاع : إن الدكتور محجوب قابله عقب إسناد وزارة الصحة إلى الأستاذ البندارى باشا ، وقال له فى أسلوب المعاتب :

وإذا تكون كريهة أدعى لها   وإذا يحاس الحيس يدعى بندر

كلمة بندر ، أى : البندارى ، بدل كلمة « جندب »

وإذا تكون كريهة أدعى لها   وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

هذا تفسير لوضع الشيء فى غير محله .

فتش مكتبي مئات المرات ، ولم يُتلف له كتاب . وبالجملة لم يفـاد كما فاديتُ . أفبعد هذا الجهاد الطويل تفضلون عليّ أنفسكم ، وتفضلون في نفس الوقت محاسيبكم على مثلي ؟ . . يا ابن محمود لقد أسأت إليّ ، كما أساء إليّ غيرك ، وكما أسيء إليّ بسببك ومن أجلك » ثم قال منشداً :

وأنت امرؤ منا خلقت لغيرنا حياتك لا ترجى وموتك فاجع

كان محجوب يقول لخاصته : « لولا أنه ابن محمود سليمان الذى له مكانته العالية فى نفسى وذكراه الجميلة فى قلبي ، لكان لى مندوحة أن أقول فيه كلاماً يذهب مثلا . . . لقد أساء إليّ كثيراً . ولـكن يجمل بي أن أغض الطرف عن عدم وفاء ابن رجل كان مثال الوفاء نحوى » .

* * *

وإنى لأذكر أن محجوباً كان قبل ذلك قال لمحمد محمود إنى أتمثل حيالك بقول القائل :

رجوت لك الوزارة طول عمرى فلما كان منهـا ما رجوت
تقـــدمنى أناس لم يكونوا يرومون الـكلام إذا دنوت
فأحببت الممـات وكل عيش يحُب الموت فيه فهو موت

وكان يقول لخاصـته : « لقـد أشمت بى ابن محمود من كانوا يلومونني فيه ، وجعلني أحذّر الناس منه . فيا لسخرية القدر ، ويا لعجائب أخلاق البشر ! وجلهم شر يسيئون إلينا بقدر إحساننا إليهم ، ثم يتخذوننا هُزْأةً يسومونّنا الخسيسة . هأنذا أضع حدّاً لهذه الدعابات » .

محجوب ينصف اسماعيل صدقى

وللحقيقة والتاريخ والإنصاف أقول : إن الدكتور محجوباً كان يقول فى أثناء عتابه المر ، بل حملته الشعواء على محمد محمود باشا : « لولا اسماعيل صدقى باشا ذلك الرجل الوطنى الشديد فى وطنيته ، القوى العارضة ، الصعب المراس ، البعيد النظر ، والربان السياسى الماهر ، على الرغم من الحملات الظالمة التى وُجهت إليه ، لولا ذلك الرجل الذى عُرِف قدره وقُدرت وطنيته ـ والجميل أنه وجد من العامة من أنصفه ـ ولكن بعد مضىّ زمن طويل ـ ثم حمله طلاب الجامعة على أعناقهم تكريماً له ، وتكفيراً لمحاربتهم إياه ، متأثرين بما كان يرمى به ظلماً من الحاسدين والحاقدين عليه ، لولا اسماعيل صدقى هذا رب تلك المذكرة الرائعة التى تجلت فيها القوة الوطنية (1) . ثم قدّم بعدها

---

(1) قال الدكتور هى المذكرة التى دبجها يراع صدقى باشا وقدمها الوفد المصرى إبان تأليفه سنة ١٩١٨ إلى جميع حكومات العالم . إسماعيل صدقى من الوطنيين البارزين الذين اعتقلوا ونفوا وكانوا أربعة : سعد ، صدقى ، حمد الباسل ، محمد محمود . إلى مالطة .

وظل الدكتور يبحث فى مكتبه عن مذكرة صدقى لانقل صورتها غير أنه لم يعثر عليها .

ذلك الرد المفحم الفريد (1) . لولا أنه قد عينني كبيراً لأطباء الجامعة ـ بواسطة صديق الصبا مراد باشا سيد احمد وزير المعارف فى وزارة صدقى سنة ١٩٣٠ ـ لما استطعت أن أؤدى تلك الخدمات الجليلة من تدريب عسكرى فى الجامعة ، أقصد أنى أدخلت التدريب العسكرى

---

(١) هو الرد الذى بعث به صدقى باشا بصفته رئيس الحكومة المصرية إلى المستر مكدونالد رئيس الحكومة البريطانية وذلك أن تلك الحكومة كانت قد قدمت بلاغاً إلى الحكومة المصرية وأرسلت صورة منه إلى رئيس الوفد يتضمن أن الحكومة الانكليزية ستتدخل إذا اضطرب الأمن فى مصر وتعرضت أرواح الأجانب وأموالهم للخطر ! . ومن المعلوم أن الحكومة البريطانية كانت قد روعت بسبب أن الملك فؤاد ـ رحمه الله ـ قد فاجأ انكلترا بتصرف الملك المستقل السيد فى بلاده . وهذا التصرف هو إقالة مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد وتكليف اسماعيل صدقى باشا بتأليف الوزارة وقد ألفها دون أن يتصل بالمندوب السامى السير برسى لورين . وقال : من العجيب أن نبأ تأليف الوزارة لم يتصل بالمندوب السامى البريطانى ، بالرغم من أن لداره عيوناً مبثوثة فى كل مكان فى مصر تبلغها كل كبيرة وصغيرة . وكان الوزراء قد أدوا يمين الولاء ، دون أن يشعر بتأليف الوزارة . على أنه قد فوجىء بزيارة الداهية المصرى ــ اسماعيل صدقى ــ فلما أظهر دهشته من هذه الزيارة المفاجئة ، ومستغرباً عدم إشعاره بإقالة وزارة وتأليف وزارة أفهمه صدقى بأنه لم يكن هناك داع لاشعاره ، لأن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ يبيح لمصر الحرية الكاملة فى تأليف الوزارات وإسقاطها . ومعنى هذا انكم إذا تدخلتم فى شئوننا الداخلية من حيث تأليف الوزارات أو اسقاطها أو إقالتها ، فإنكم بهذا تمزقون هذه الوثيقة ــ تصريح ٢٨ فبراير ــ من جانبكم ، وتعود مصر إلى حالتها قبل هذا التصريح . ثم لفت نظر المندوب السامى البريطانى إلى أن انجلترا جاهرت أنها إنما أعلنت الحرب سنة ١٩١٤ لحمل الدول التى اعتبرت المعاهدات قصاصات ورق على احترامات المعاهدات . وإنى ألمح نذر حرب

فى الجامعة المصرية ـ فيما بعد ـ ولما استطعت أن ألحق الكثيرين من الشبان الأقوياء بالكلية الحربية ليكونوا نواة الجيش المصرى ، والبذور الطيبة لجيشنا العتيد ، ذلك الجيش الذى سيعيد عظمة الفراعنة ومجد العرب . يا ابن محمود لولا اسماعيل صدقى الذى لم تجمعنى به إلا جامعة الوطنية ، قد عيننى فى وظيفتى المتواضعة ، لما أتيح لى أن أغرس فى نفوس الطلاب : الوطنية وحب الجندية ، ولما أتيحت لى فرص إلحاق مئات الشبان بالكلية الحربية ، كم من طالب تقدم إلى كلية الزراعة أو الطب أو التجارة فحولته إلى الكلية الحربية ، وكل هؤلاء الطلاب ذللتُ لهم العقبات التى كانت تعترض التحاقهم

جديدة . فإذا تدخلتم فى شئوننا الداخلية فأية حجة تتذرعون بها فى حالة ما إذا أعلنتم الحرب » . فسكت المندوب السامى ولم يجد دحضاً ولا دفعاً ولا ردا . . غير أن المستر مكدونالد رئيس الوزارة البريطانية ارتأى خطراً على نفوذ حكومته فى مصر أن تؤلف الوزارات فيها دون أخذ رأيها : أى حكومة انكلترا . من أجل ذلك أرسل انذاراً من صورتين : صورة من هذا الانذار إلى رئيس الحكومة المصرية ـ أى اسماعيل صدقى باشا ـ وأخرى إلى مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد . وكان من حسن حظ مصر أن اسماعيل صدقى ابن بجدتها كان على رأس الحكومة المصرية . فرد على المستر مكدونالد رداً مفحماً وصفته إحدى الجرائد الانجليزية بقولها : إن اسماعيل صدقى باشا قد ألقى درساً قاسياً على المستر مكدونالد فى الأدب السياسى . وقالت جريدة أخرى : إن اسماعيل صدقى باشا قد صفع مكدونالد صفعة فى مصر سمع صداها فى الصين . قال محجوب ما تقدم وقال : إن الحكومة الانكليزية قد انتقمت بعد ذلك ونالت من مصر بعد استقالة صدقى باشا . أما الذى أتاح لانجلترا الفرصة السانحة فهو زكى الابراشى باشا . وسيجىء التفصيل فى كتابنا (حوادث مصر السياسية) فى حديث يطول شرحه .

بالكلية الحربية ، لأنى كنت أرى أن الجيش المصرى فى أشد الحاجة إلى أمثالهم ، من حيث البنية ، والشجاعة ، كنت أكتشف فيهم هذه السجايا والمزايا أثناء تحدثى معهم والاستماع إلى أحاديثهم خلال الكشف عليهم طبياً ، لولا اسماعيل صدقى يا ابن محمود لما استطاع محجوب الذى تريد أن تتخذ منه رمزاً للدعابة ، وعن هذا الطريق تود أن تهدمه ، أن يؤدى هذه الخدمات للجامعة ، وفى نفس الوقت للأمة ، وكل هذه الخدمات ستظل مقرونة باسم محجوب ما دامت الجامعة فى مصر قائمة (١) . . . وإنى سأغمض عينى مرتحلا عن دنياكم وأنا مستريح الضمير بما غرسته من مبادىء جامعية فى مصر . إنى لأتساءل ما السر فى محاربتك لى ؟ لقد قدّرنى اسماعيل صدقى ، وعرف لى حقى ، مع أنى لم أتصل به كما اتصلت بك ، ولم أعاشره كما عاشرتك ، ولم أخلص له كما أخلصت لك . أإسماعيل صدقى(٢) يوظفنى ، ومحمد محمود يحاربنى ؟! ثم

---

(١) ظل محجوب يطالب بإنشاء جامعة فاروق الأول بالاسكندرية ، ويقول أساتذة هذه الجامعة إن الفضل فى إنشائها يعود إلى الدكتور محجوب .

(٢) لما عين الدكتور محجوب فى وظيفته فى عهد وزارة اسماعيل صدقى باشا تصادف أن كان صاحب الدولة الجنرال نورى السعيد باشا الذى تجمعه بالدكتور جامعة الصداقة من عهد بعيد ، إذ كانت توثقت بينهما علاقة الود من زمن الحرب الطرابلسية ، رأى نورى السعيد باشا أن الوظيفة التى أسندت إلى الدكتور محجوب ثابت وظيفة ثانوية بالنسبة لمن كان فى علم محجوب وفضله وواسع اطلاعه ومعلوماته ، فعرض على محجوب وظيفة كبيرة يشغلها فى العراق ، ولكن محجوباً بالرغم من أنه يعتبر جميع الأقطار العربية أمة واحدة ، كلها أرضه ووطنه ، فإنه آثر أن يبقى فى مصر ليغرس فى نفوس الطلاب الوطنية .

يحاول هدمى ؟ ثم قال له : أليس من حق يا ابن محمود أن أقول إنك تحقد علىّ لأنى الخطيب ؟ [1] »

ظل الدكتور محجوب معاتباً لمحمد محمود باشا ومقارناً بينه وبين اسماعيل صدقى الذى قدره إلى حد أن رشحه لعضوية مجلس النواب فى دائرة بولاق المكتظة بالعمال ، غير أن الدكتور تنازل عن ترشيح نفسه لأن عاملا قتل أثناء اشتباك العمال مع رجال الأمن ، ولما سئل عن سبب تنازله وانسحابه من المعركة الانتخابية سنة ١٩٣٠ قال : « إنى لا أحب أن أصبح نائباً فى دائرة أريق فيها دم عامل من العمال الذين أنصب نفسى للدفاع عنهم » . ولما قيل له إن بعض العمال هم الذين بدأوا بالاعتداء على رجال الإدارة بلا مبرر ، وكان لابد لرجال الشرطة أن يدافعوا عن أنفسهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى حتى لا يتدخل الإنكليز فى شئون مصر الداخلية بحجة حفظ النظام والأمن العام وحماية أرواح الأجانب وأموالهم ، كما جاء فى تبليغهم إلى الحكومة المصرية ، ذلك التبليغ الذى رد عليه اسماعيل صدقى باشا رداً حازماً قوياً مفحماً جعل الحكومة الإنكليزية تقف عند حدها . ولما قيل للدكتور إن إصابة عامل أو عاملين لا يصح أن تكون سبباً لانسحابك من المعركة الانتخابية وحرمان البلاد من

---

(١) أخبرنى الأستاذ كامل الكيلانى صاحب المؤلفات الكثيرة ومن شعراء حركة سنة ١٩١٩ ومن أصدقاء أحد خطباء الثورة وهو الأستاذ الخطيب شكرى كيرشاه أنموذجاً مما ذكرته مما كان يحدث بين محمد محمود باشا وبين الدكتور محجوب .

خبرتك . أجاب : « ولو[1] » ، وقال للمؤلف إنى أصر على التنازل عن ترشيح نفسى حتى أفوّت على النحاس باشا فرصة الدعاية .

كان الدكتور يذكر ما تقدم دائماً معاتباً لمحمد محمود باشا ويردف عتابه بقوله : « سامحه الله » وكان يعلن عجبه من موقف محمد محمود باشا حياله ! .

على أنى أستطيع أن أؤكد أن محجوباً لم يحقد يوماً على محمد محمود باشا ، بل كان دائماً فى عجب مصحوب بالدهشة مقرون بالألم .

حزن محجوب على محمد محمود

على الرغم من أن محجوباً كان يذكر اسم محمد محمود مرادفاً للعتاب المر ، فإنه حينما فوجىء بنبأ وفاة محمد محمود بكى بكاء شديداً وأبكى ، وكان أكثر الناس حزناً عليه .

* * *

(١) كان بعض ساقطى الهمة من المنتمين إلى الأحزاب المنافسة لاسماعيل صدقى قد استأجروا بعض العمال لإحداث الشغب والاخلال بالأمن حتى تعجز الحكومة المصرية عن حفظ النظام ، فقام المأجورون من العمال بحركتهم إلى حد أن بعض العمال حاصر حكمدار بوليس سكة الحديد وهو (كمال بك الطرابلسى) الذى دخل عليهم فى أثناء وجودهم فى عملهم « بالعنابر » كما حاصروا لفيفاً من الجند وصوبوا إليهم خراطيم المياه الساخنة مهددين . وكان المأجورون يفهمون العمال بأن الوزارة الصدقية لن تمكث فى الحكم أكثر من اسبوع واحد . وبهذه المناسبة أقول إن الذين كانوا يستأجرون العمال سافروا كذلك إلى مدينة الزقازيق وأشاعوا هذه الاشاعة فى بيئات العمال بقصد اثارتهم لاحراج مركز الحكومة عن طريق إحداث القلق والاضطراب حتى يتيحوا لانجلترا فرصة التدخل فى شئون البلاد !

وإنى أذكر كل ما تقدم فى صراحة وأمانة ، أذكره للتاريخ الذى لا يحابى ولا يجامل . وللتاريخ روعتـه ، وللحق صولته ، وللإنصاف جلاله وجماله .

محجوب يذكر مشروعاته

وهو يحتضر

قال لى الأستاذ محمد يوسف دخيل الذى كان أمين سر الدكتور محجوب زمناً طويلا : « إن الدكتور محجوباً ظل حاضر البديهة ، متوقد الذكاء قبل أن ينطفىء سراج حياته منتقلا من موكب الدنيا ورحاب الحياة إلى جوار ربه راضياً مرضياً عنه ، وإنه ظل يذكر مشروعاته الإصلاحية مشروعاًمشروعاً ، واقتراحاتهالوطنيةاقتراحاً اقتراحاً . وقال : كان محجوب وهو يحتضر إذ يذكر قائمة مشروعاته الاصلاحية ومقترحاته الوطنية كأنه يوصى بأولاده ولداً ولداً . ثم قال : إن الفقيد قال له وهو يحتضر : سيحتفل بافتتاح مسجد سيدى مرسى أبى العباس بالإسكندرية فى هذه الأيام ، إنى صاحب هذا الاقتراح اعترافاً منى بجميل آل الثغر الأغر الذين ناصرونى وانتخبونى ، وإقراراً بفضل عبد الرازق نصير بك المقاول الماهر ، والشندى ، وصاحب مقهى « الحاج » بكوم الشقافة الذى جعل من مقهاه سرادقاً للناخبين يقدم لهم الشاى والقهوة بدون مقابل إكراماً لى ، بارك الله فى أهل الإسكندرية النبلاء الذين لم يكلفونى مليما ولا دانقاً . لا زالت الإسكندرية عروس البحر الأبيض ،

سيدة المدائن ، وخميلة الشعراء ، ومنجبة الحكماء . وداعاً وداعاً ، وسلاماً سلاماً . ثم قال : ستر الله النقراشي وأخذ بيده بعد أن أخذ بيدى إنه الوفى .

تلك كانت خاتمة كلمات محجوب قبل أن يغادر الدنيا إلى جوار ربه . وقد وفى النقراشي للدكتور بعد مماته حيث شيعه تشييعاً رسمياً ، وكان له الأهل والأخ .



غضبة الكرامة وثورة الإباء

كان أحد المتصلين برئيس حزب من الأحزاب ، من الذين درجوا على ترويج زور الأخبار وإفك الروايات إليهم يلتمسون القربى إلى الزعماء بنقل الأخبار المصنوعة ، ويتخذون الأنباء الكاذبة المدبرة مهنة رخيصة للظفر برضا هؤلاء الزعماء ، ومن ثم وسيلة للقفز إلى المناصب الحكومية (١) .

كان أحد أولئكم الرقعاء قد روى لرئيس حزب ، كان معروفاً أنه موشك على تسلم الحكم ، أن الدكتور محجوب ثابت يوسطه لديه لوصل ما انقطع من علاقات كانت بينه وبين رئيس الحزب ، وقد تعمد المختلق أن يروى روايته فى أثناء وجود أحد أصحاب الصحف التى تصدر فى سوريا . ولا شك فى أن هذا المختلق قد تعمد سرد هذه الرواية ليظهر رئيس الحزب أمام صاحب الصحيفة السورية فى مظهر المرغوب فى الانضمام إليه ، حتى يتيح له فرصة التظاهر بالزهد فى الأنصار لكثرتهم .

---

(١) لعل هذا من أسباب النفاق الذى تفشى بين كثيرين من طبقة الموظفين إلا من عصمه الله بمتانة الخلق وكرم المحتد .

فلما تصّ هذا[1] رسالته المزورة على رئيس الحزب أجاب ذلك الرئيس بقوله : « إن الدكتور محجوباً يريد أن ينضم إلينا ، لأنه يحس باقتراب الحكم نحونا . . . إن الموقف جد لا هزل فيه الخ . . . »

وبالرغم من أن ما رواه ذلك الذى يأكل على كل مائدة ، لا يتفق مع ماعرف عن الدكتور محجوب من شمم وإباء وزهد وعفة نفس ، فإن صاحب الجريدة السورية ، تعجل بتبليغ جريدته تلك الرواية المختلقة دون أن يكلف نفسه مؤونة الاتصال بالدكتور محجوب ثابت مع أنه يعرف الدكتور حق المعرفة ، ولكنه كان قد ظفر بنفقات الإقامة من أولئك الذين أوعزوا إليه .

فنقلت جريدة البلاغ هذه الرواية ، ونشرتها فى أظهر مكان ، ولما اطلع عليها الدكتور محجوب ، احتدم غضباً ، واستحال ثائراً هائجاً ، وهو الهادىء الوديع من قبل ، فانقلب كالأسد يستجمع قواه للوثبة ، وهو يصرخ قائلا : « إلى هنا لن أستطيع صبراً ، لن أتسامح مع حملة ألوية الكذب والرياء والنفاق . هؤلاء الذين يظنون التسامح عجزاً ، وما كنت من العاجزين ، ويحسبون السكوت خوفاً ، وما كان الخوف ليعرف إلى قلبى سبيلا . . تالله لأدمين أكبادهم ، ولأرينهم : أأنا الهازل ، أم هم الهازلون . . » .

(١) كان هذا المرائى قد طلب من الدكتور محجوب فى إلحاح أن يتوسط له لدى المغفور له محمد محمود باشا ليعينه فى وظيفة حكومية ، أو يعاونه على الالتحاق بدائرة الأمير سيف الدين ، فاعتذر الدكتور محجوب بلطف قائلا : « إنى آليت على نفسى ألا أتصل بالحكام فى مسائل خاصة ، ولا يجمل بى ، وأنا أحارب الوساطة ، أن أكون وسيطاً لأحد » .

ثم أخذ ينادى بصوته الغضوب : « يابشير .. يادخيل .. يامصطفى .. يابديني .. ياصالح .. ابروا الأقلام ، حضروا الأوراق .. سأكتب .. سأملى ... اتركوا كل شيء ... اكتبوا . سألقى درساً على الكاذبين النفاجين(١) المختلقين ...

وإقدامى على المكروه نفسى   وضربى هامة البطل المشيح

ولكن هؤلاء ليسوا أبطالا ، بل زعانف جبناء ، رعاديد ، يجمعون بين الخبث والخداع والكذب فى قحة وفجر ... إن مانسبه إلىّ ذلك الفدم ما هو إلا رواية قام بتمثيلها لإرضاء أولئك الذين كل سلاحهم الدَّجْل والكذب ... اكتبوا ما أملى .... اطلبوا لى الأستاذ عبد القادر حمزة ... هاتوا الدكتور هيكل فى التليفون ... اطلبوا الأستاذ داود بركات ، وحافظ عوض ... اكتب ... :

فيا أذنى هل فى الذى تسمعينه   من القول إلا فرية وزعوم

أى والله صدق شيخ المعرة . لابد أنه إذ قال هذا ، كان قد أصيب بأمثال هؤلاء الكذابين :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن   يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

فبينما هو فى ثورته العاصفة ، إذا بالتليفون يهتف :

— السيد عبد القادر حمزة ؟

— ....

— كيف تسمح أن ينشر فى جريدتك هذا الهراء ! أنسيتم

---

(١) النفاج : هو الكاذب المختلق للأخبار ؟

مواقفى وجهادى . . . أنسيتم تضحياتى ؟ . . . .

— . . . .

— لا . لا أقبل بعد اليوم لأحد عذراً يعتذر به . . . إنها الحرب السافرة . ولكن سلاحكم الكذب الصراح ، أما سلاحى ، فسيكون الصدق المحض ، سلاح الشرف .

وما تنتهى محادثة عبد القادر حمزة ، حتى ينتقل إلى تليفون الأهرام مع الأستاذ داود بركات :

— . . .

— أقرأت يا صديق الإفك والافتراء . . .

— . . .

— مخترع هذه الأكاذيب ، جاءنى ذات مرة ، وهو يجمع بين الجهل وثقل الظل . . . ياحفيظ . . . . إنه أثقل من جبل رضوى [1] جاءنى ونزل علىّ نزول الهم المقعد والغم المقيم ، وطلب

---

(١) قال لى الدكتور : جاء مثل هذا الثقيل ذات يوم إلى أمير الشعراء ، وطلب منه أن يقول قصيدة . فلما استفهم منه متضايقاً : فيم ؟ أجاب : « فى نصير » فسأله أمير الشعراء : « ومن يكون هذا ، وما مكانه فى الإعراب ؟ فلما أفهمه أن نصيراً هذا هو حامل الأثقال الذى تغلب على الأوربيين فى حمل الحديد . . قال شوقى : أتطلب من شاعر الوطنية ، وشاعر الحكمة والفلسفة أن يقول شعراً فى حمال أثقال أو عتال ؟ » ثم قال : « أرجو أن تغادرنى أو أغادر أنا المكان » ... وبعدئذ عنّ لشوقى أن يقول شعراً وأن يصور هذا الثقيل موجهاً كلامه إلى نصير فقال :

قل لى نصير ، وأنت بر صادق أحملت إنساناً عليك ثقيلا

منى أن أتوسط له لدى ابن محمود[1] ليعينه فى إحدى الوظائف الحكومية .

— . . .

— ياسيدى . . . هذا المتطلب للوظيفة الذى صرفته بلطف وذوق . . . هو الذى ، فى سبيل التقرب عن طريق النفاق ، راح يقول هذا الافتراء .

— . . .

— أما رئيس ذلك الحزب الذى يقول دون أن يخجل : إنى هازل وإنه هو الجاد ، فقد كان يعمل موظفاً لدينا ، نحن المجاهدين ، وكان يتقاضى منا أجره ستين جنيهاً شهرياً من الأموال التى جمعتها بيمينى هذه . . . وها هو قد استحال متكبراً على سادته ! . ولكن سيعيده محجوب إلى وكره ، سأجعله ضحكة الضاحكين وسخرية الساخرين .. اكتب . . اكتب يا مصطفى . . هات المضبطة يا بشير .

كان كل هذا وهو لايزال يتحدث مع داود بركات بالتليفون . . .

وما كاد يضع « السماعة » من يده حتى « يهتف التليفون » مرة أخرى :

— من ياسيدى .

أحملت ديْناً فى حياتك مرة ... أحملت هما فى الضلوع غليلا
أحملت ظلماً من قريب غادر ... أو كاشح بالأمس كان خليلا
أحملت منًّا فى النهار مكرراً ... والليل من مُسْدٍ إليك جميلا
أحملت طغيان اللئيم إذا اغتنى ... أو نال من جاه الأمور قليلا
أحملت فى النادى الغبى إذا التقى ... من سامعيه الحمد والتبجيلا
هذى الحياة وهذه أثقالها ... وُزِن الحديد بها فعاد ضئيلا

(١) ابن محمود . هو محمد محمود باشا ، كما كان يسميه الدكتور محجوب .

— . . . محمد محمود باشا .

— . . . دولة الباشا . . . أقرأت هذا الكذب الشنيع وهذا الاختلاق الجرىء ؟ أقرأت مانسبه إلىّ المرجفون ؟ . . . أبعد جهاد ربع قرن ، وبعد النفى والسجن وخراب البيت والجيب . . أبعد إبائى ، وشموخ أنفى ، وعزة نفسى ، وزهدى ، وعفة يدى . يطعنون فى وطنيتى ، وهى كل مابقى لى فى هذه الحياة ؟ يتهموننى بدل أن أتهمهم . . لا . . لا . . سيعلمون من هو محجوب إذا أثير . سيعلمون من هو إذا غضب . . . سيعلمون . . . إن لحمى كان مراً . (اكتب يا صالح عنوان المقال : إن لحمِىَ كان مرا) .

— . . .

— أرجوك أن تتركنى الآن ياباشا . . .

. . . اكتب . . . اكتب يامصطفى . . . وأنت ياصالح . . . اكتب يادخيل . . . امسكوا الأقلام . . . سأملى لكل منكم موضوعاً ورداً . . . اكتبوا أبيات البارودى فإنها تنطق بلسان حالى . فلتكن مستهل كلامى ، وصدر مقالى ، فإن حالى مع هؤلاء كحال البارودى مع شانئيه وحاسديه على عزة نفسه وعفته . . .

قال البارودى :

أتخفر ذمتى وتروم عطفى ... لقد منتك نفسك بالكذاب
فما بعد القطيعة من تلاق ... وما بعد الخديعة من عتاب
وكيف يصح بعد الغدر ود ... وتسلم نية بعد ارتياب
رويدك إننى صعب أبىّ ... على الأقران مرهوب الجناب

أجاهر بالعداء ولا أبالى وانطق بالصواب ولا أحابى
فما زندى لدى العوثاء كابى ولا سيفى غداة الحرب نابى

وإلى هنا يقف مفكراً . . . ثم يذرع حجرة المكتب جيئة وذهوبا . . وهو يستعيد فى ذاكراته أبيات البارودى . . . ثم يعاود الإملاء . . . اكتب . اكتب . اكتبوا . . :

فإن رمتَ السلامة فاجتنبنى عدواً فالسلامة فى اجتنابى
لقد عاديت أعظم منك قدراً وما ضاقت على بدنى ثيابى
فإن تنزع فأنت طليق عفوى وإن تطمع فسوف ترى عقابى

وبعد أن يقف مفكراً هنيهة يوجه كلامه إلينا : « هذا كلام البارودى ، رب السيف والقلم ، ومثال الشهامة أيها الشبان . والبارودى فى الحقيقة والواقع ، هو أستاذ شوقى وحافظ ومطران » . .

ثم يتناول جريدة البلاغ ليفند ما نقلته عن الجريدة السورية ويقول : « ما هذا الافتراء ! ما هذه الجرأة الفاجرة . . .لقد صدق البارودى فى وصف هذا النوع الرخيص من بنى الإنسان » . .

وهنا يدخل شوقى أمير الشعراء والدكتور محجوب فى أشد سورة الغضب ، منفوش شعر رأسه ولحيته كقوادم النسر وخوافى جناحيه من حدة الغضب .

فلما رأى أمير الشعراء حالة الدكتور محجوب فى غضبته — وقد كان رائعاً فى غضباته — وكان من أمانيه أن يمتع نظره ويغذى شاعريته من غضبات الدكتور محجوب ، اطمأن إلى أنه قد عثر على ضالته المنشودة ، وأدرك أن أُمنيّتَهُ قد تحققت . . . إذ ظفر بصورة رائعة كان لا ينفك

يطلبها ويبحث عنها .

أخذ شوقى يستوضح الدكتور محجوباً عن سبب غضبته . وكان الدكتور يزأر زئير الأسد وهو يتأهب لمواصلة الإملاء . . وكان يهدر كالجمل وهو يتلو فى الجريدة ما نسب إليه كذباً وبهتاناً ، وقد بدا فى ثورته كالنمر المجروح . ثم ناول الجريدة إلى أمير الشعراء وهو يقول له : « اقرأ يا سيدى تر ماذا نسب إلىّ المرجفون ، الهمازون ، المشاءون . . هذه هى أسلحتهم . . لقد أصبحت لا أحتمل ، ولن أتسامح مع هؤلاء الجبناء بعد اليوم ، سأجبههم بالحقائق ، سأفقأ أعينهم بالصدق ، سأضربهم ضرب غرائب الإبل . . إن محجوباً لا يقعقع له بشنان ، ولن تجد شفراتهم لها فى محجوب محزاً . . إن حالى مع هؤلاء الأدنياء كحال البارودى حينما هاجمه دنىء ، واختلق عليه مختلق من السفهاء الذين إذا صرعتهم لم تفعل شيئاً ، وإن أصابوك كانوا من تفاهة القدر بحيث لا تحس لهم بمفاخرة عليك . ففى الحالين أنت المغلوب ولو كنت منتصراً . . لأن من هاجمك ـ حمته مقاذيره أن يُنالا ـ . . :

ولو أنى بليت بهاشمى خؤولته بنو عبد المدان
لهان علىّ ما ألقى ولكن تعالوا وانظروا بمن ابتلانى

ولكن يا شوقى ما أبدع ما وصف به أستاذك البارودى (1) مثل متطلب الوظيفة المختلق . فهذا الوصف ينطبق تماماً على من ابتلانى بهم القدر الساخر . . . .

فتساءل شوقى وهو مأخوذ بروعة هذه الغضبة ـ وهى صورة

(1) حدثنى الدكتور محجوب بنفسه فقال : « إنى أردت أن اقتنص من شوقى الاعتراف الضمنى بأستاذية البارودى له ولسواه من شعراء العصر الحاضر » .

محببة إلى نفس شوقى ـ : «ماذا قال البارودى ؟» فأجابه الدكتور محجوب وقد فطن لما فى نفس أمير الشعراء ـ :

كيف أهجوك والدناءة سور من حديد يقيك طعنى وضربى

لك عرض أرق نسجاً من الر يح وأوهى من طيلسان ابن حرب

وهنا بدأ الهدوء يعود قليلا إلى نفس الدكتور محجوب فقال : « يا شوقى كنت ولا زلت أتحمل مزاحك اللطيف ، واختلاقاتك الطريفة ، لأنها لا تؤذى السمعة ، ولا تجرح كرامتى ، ولا تمس وطنيتى . . أقبل مثل ذلك المزاح الذى أوعزت به إلى سليمان بن فوزى (صاحب الكشكول) حينما قلت بلسانى :

أيشتمنى سليمان بن فوزى وبيبى فى يدى ومعى طباقى

اعتبرت « بيبتى » مدفعاً فى فمى ، وكيس طباقى ذخيرة المدفع . . . هذا اختلاق مقبول منك يا شوقى . . . . . وأعود فأقول : إن حالى أيضاً مع هؤلاء يا شوقى ، لهو كحال صديقك حسن حمدى بك الشاعر الدفين الذى لا يهتم بنشر شعره . . . والذى يقول الشعر للشعر . .

فقال شوقى : « وماذا قال حسن حمدى بك يا دكتور ؟ »

قالها مأخوذاً وهو يحملق عجباً من أن الدكتور محجوباً يحفظ لحسن حمدى بك الشاعر المخبوء والعالم المحجّب . . . . .

فأخذ الدكتور محجوب ينشد مترنماً وهو يهز رأسه طرباً :

موجع القلب عليل ما إلى برْئى سبيل

من رآنى ، لا رأى الشـامت إلا ما يهول

قال سبحانك ربى هل أفادتنا العقول ؟

آدمى لوذعى بين كلبين قتيل ؟

آهِ من دنياى آهٍ   منيتى عنها الرحيل
بئست السكنى بدار   غادر فيها الخليل

ولقد حاول شوقى فى هذه الليلة أن يطفىء تلك الثورة النفسية المتأججة فى صدر الدكتور محجوب ، وحاول أن يواسيه بقوله : «الأمة تعرف قدرك يادكتور ، وهى تذكر لك ماضيك المجيد وتشيد بوطنيتك وتعترف لك بفضلك وجهادك » .

ولكنه كان من سورة الغضب ، بحيث يستقبل مؤاساة شوقى بقوله : إن لم يكفهم هذا فدونهم قبرى بعد موتى يدوسونه بأقدامهم ، لم يبق فى استطاعتهم إلا هذا ، ولكن لابد من إلقاء الدروس القاسية ، وعلى أية حال سأدوس عليهم وهم أحياء .

وهنا بدت على وجه أمير الشعراء مظاهر الألم الصحيح والتأثر الصادق البالغ ، فالتزم الصمت فى مجلسه ، تاركاً الدكتور محجوباً فى انفعالاته وهو يملى مقاله الذى نشرته « جريدة السياسة » فى عدة صفحات : فجاء درساً فى الأدب الحى والرجولة الصحيحة ، جاء صورة رائعة لغضبة الحليم الكريم . غير أن شوقى أراد أن يغيّر مجرى الحديث فسأل الدكتور : وماذ تحفظ لحسن حمدى أيضاً قال : اسمع ما يقول حسن حمدى :

وسائل أجبته والنار ترعى كبدى
يومى كأمسى أبداً فلا تسلنى فى غدى
إن لم تعد شبيبتى فلن يزول كمدى
ولن تعود مهجتى راغبة فى جسدى

وما زَوَالُ الدهر مِنْ عوْدِ الصبا بأبْعدِ
فلا مجير لى إذن سوى الـكرى المخـلد
يا ليْتـهُ أدركـنى قبل البياض الأسود

وهنا أخِـذَ شوقى . . . وقال : البياض الأسود يعنى الشيب . هذا المعنى جميل . فقال الدكتور : أردت أن تغيّر مجرى الحديث ، ولـكنى أثرت عجبك من (البياض الأسود) .



الجهاد الشاق

الدكتور محجوب يحارب الدس والوقيعة ، ويعمل على معالجة الأمراض الاجتماعية . ثم يعطى دروساً للزعماء ورؤساء الأحزاب موضحاً لهم عيوبهم التى هى الأسباب المباشرة فى قلب نهضتنا الى كبوة وجمود ، وقوتنا الى ضعف ، وشدة وطنيتنا الى ميوعة ، وصلابتنا فى حقنا الى لين ، وائتلافنا الى اختلاف ، ووعينا القومى الى ما يشبه الغفلة .

قبل أن أذكر هذه الناحية الدراسية من جهاد محجوب ثابت فى سبيل معالجة أمراضنا الاجتماعية ، ونقائصنا الخلقية ، وعيوبنا النفسية أقول : إنى لا أقصد مساس أى شخص بعينه لإرضاء آخر . وكل ما أبغيه ، هو أن أبين للناس ما كان الدكتور محجوب يحاربه خدمة للوطن فى نفس الوقت . . . ثم إن كل ما أهدف إليه من ذكر ما سيجىء ، هو مواصلة ما كان يكافحه محجوب وساهمت معه فيه ، وهو دْين وطنى قد آليت على نفسى أن أؤديه وتقيدت به أمام ضميرى ، ولن أدخل فى حسابى إرضاء أحد ، صغر أم كبر .. وأرانى غير مستطيع أن أعدل عنه أو أحور فيه أو أتخلص منه ، فمعذرة إذا أطلت فى هذا الفصل . كما ألتمس إسبال ذيل المعذرة إذا رمزت إلى

أسماء ناقلى عدوى الأمراض الاجتماعية بالحروف الأبجدية ، والتماسى هذا موجه إلى أبناء الأجيال المقبلة ، لا لأبناء هذا الجيل الذى أعيش فيه .

ولقد فكرت طويلاً ، ثم ظللت بين الإقدام والإحجام وقتاً غير قليل . . . وأخيراً وجدتنى مقدماً على الأداء ، مدفوعاً بى إلى كتابة هذا الفصل ، غير مراع أى اعتبار إلا خدمة وطننا ومستقبله . داعياً إلى الفكرة السامية التى طالما دعا اليها الدكتور محجوب ، ومصمماً على أن أذكر تلك العيوب ، وهذه الأمراض التى تفتك بالمجتمع المصرى ، ليتحاشاها الزعماء ، وليتفاداها أبناء الأمة ، وليحاربها الشجعان من بنيها ، ومعلناً أن الواجب الوطنى يفرض على كل مخلص أن يحارب ناشرى هذه الأمراض وحاملى جراثيمها وعدواها بجميع الوسائل ، فى غير رحمة ولا إشفاق ولا مجاملة ، وأن يوسعهم إهانة ، وأن يشبعهم احتقارا ، حتى يتلاشوا ويختفوا عن الأنظار ، فتأمن البلاد شرهم ، وتُستأصَل شأفتهم ، مع الاعتقاد الجازم أنهم أكثر خطراً على الأمة من المحتل الأجنبى وأشد ضرراً . . . وأن الحملة على الزعماء وإظهار عيوبهم فى هذه الناحية لمن أوجب الواجبات ، وهى الفريضة الوطنية الواجبة الأداء ، المحتومة الوفاء .

فمن يردونه حقاً فإنى   أراه وحده الحق المبينا

وإلى هنا يجب علينا أن نصور لأبناء الأجيال المقبلة الحقائق فى صراحة كاملة سافرة ، وأن نبين لهم أسباب ركود الوطنية ووقف تقدمها فى حرية شاملة ليكونوا أسعد حالاً ، وأبعد نظراً ، وأحسن

مستقبلا ، وأفضل خلقاً ، وأكرم مآلا ، وأشد حذراً ويقظة ، حتى لا يخدعوا كما خدعنا ولا يؤخذوا كما أخذنا .

ولا جدال فى أن من الوطنية والأمانة أن نذكر لهم أسباب انحراف وطنيتنا عن الطريق السوى ، وابتعادنا عن الغرض الأسمى ، والأمل المرجو ، وهنا يجىء دور الدكتور محجوب ثابت فى مكافحته التى حمل لواءها حيناً من الدهر . . . نذكر لهم هذا الدور ليقتدوا به ، وينسجوا على منواله ، ويسيروا فى دربه ، وليتعظوا بنا ، والسعيد من اتعظ بغيره ، كما يقول الحارث بن كلده :

إن السعيد له فى غيره عظة
وفى التجارب تحكيم ومعتبر

وإنى إذ أعطى فكرة صحيحة لأبناء الأجيال المقبلة عن تصرف الزعماء والمتزعمين ومن فى حسابهم ، إنما أقوم بواجبين : الأول : واجب الوفاء والإنصاف للدكتور محجوب ثابت عن طريق الإشادة ـ بحق ـ بجهاده الطويل ، وهو الجندى المجاهد ، والمصلح المصرى السودانى ، والسودانى المصرى ـ كما كان يعبر هو عن نفسه ـ هذا المجاهد الذى يصوره لنا العلامة الأستاذ الجليل ، الأبىّ العيوف والمؤلف الكبير « محمد كرد على بك » المصرى السورى فى كتابه إلىّ حيث يقول فيه :

« عزيزى الأستاذ صالح ـ طالعنى كتابك بصورة من وفائك . حقاً إن الدكتور محجوب ثابت بك ـ رحمه الله ـ جدير بأن يكتب فيه كتاب . ولولا أن صاحب الدولة والفضل محمود فهمى النقراشى باشا

بان من وفائه العظيم يوم وفاة صاحبه ، لقلت إن محجوب ثابت نبيٌّ أضاعه قومه . قلائل جداً من خدم مصر كما خدمها محجوب ومن أخلصوا فى حبها بلا غرض ولا عوض ، بارك الله فيك. وإنى فى انتظار البقية من مسودات كتابك فيه . وأرجو أن تعجل وتذكر كل شيء . »

ولكن المؤلف لم يستطع أن يعجل لأنه كان محارفاً ، وكان محارباً ! كما سيجيء .

والواجب الثانى : هو أن أحذر الأمة من مغبة عدم محاربة أمراضنا الاجتماعية . . . وإنى لمستريح الضمير ، قرير العين ، بأداء هذين الواجبين وحسبي هذا .

طراز من الذين يلتفون حول رؤساء الأحزاب

هذان رجلان قد عاشا وترعرعا فى وكر الدسائس وتأليف الأخبار منذ سنة ١٩١٢ على الأقل ، أى من عهد المغفور له الخديو السابق ، ولهما تلاميذ ، أحدهما يصبو إلى كرسى النيابة فى كل عهد ؛ ويطمع فى مبالغ يتقاضاها من المصاريف السرية ، وقد اعتاد الظفر بمرتب يربط له من تلك (الخزانة) فى العهود المختلفة ! ولا يقرّ له قرار ولا يهدأ له بال إلا إذا قيِّد اسمه فى قائمة من تُعيَّن لهم المرتبات . وهو يوسط دائماً ذوى النفوذ من رجال الأحزاب الذين ينسج حولهم خيوط التودد بتلك الوسائل غير الشريفة ، ثم يطالبهم بالتوسط له فى زيادة مرتبه ، وفى نفس الوقت يتّجر

بما يخطه قلمه . . يسير خلف ركاب رئيس كل وزارة ، مادحاً إياه ، ويجرى خلف كل ذى نفوذ . ولا يتعفف عن التزلف إلى سعاة دور الحكومة ، تراه دائماً راكعاً ساجداً بالتحيات «التركية» مقبلا للأيدى منحنياً . يحمل وجهاً وقاحا نضب منه ماء الحياء وغاض . ويأبى إلا يكون عبداً لكل إنسان . . . تراه أسرع الناس فراراً وابتعاداً عمن ابتعد عنه الحكم ، وأسرعهم تقرباً وأشدهم توددا لمن يقرب منه الحكم . أو يُظن . . . قويةٌ حاسة شمّه ، ناكر للجميل . تجسس فى الداخل وفى الخارج ، وفى القرية وفى الأقليم ، وفى الحاضرة . . . ولما تعددت الأحزاب فى مصر ، طاف بكل الأحزاب ، وتنقّل بين كل الهيئات ، واندس بين كل الجماعات واستفاد منها جميعاً . . . هو قطب فى الدس ، وأستاذ فى الوشاية ، وبطل فى الهمس والوسوسة . اختلق ودّبر فى غير ما وازع من ضمير . نرمز إلى اسمه «م . ع . ا» ومن قبل نافس زميله القديم كما نافسه فى العهد الجديد ، فهما صديقان خصمان . متفقان مختلفان فى مواطن المصلحة ، ولكنهما فرسا رهان فى سوء الخلق ، وخراب الذمة والدس والوقيعة (والضحك على ذقون الزعماء واستغلال تنافسهم على كراسى الحكم) .

أما الآخر فثرى ، كريم المنبت ، شريف المحتد ، والمولد ، فنعم الوالدان وبئس الابن ! طابت الشجرة ، وخبثت الثمرة ! عاش فى جو الدسائس زمناً طويلا ، وفى بيئة الرذيلة أعواماً ، فلما تعددت الأحزاب انضم إليها متظاهراً بالغيرة والاخلاص ، وفى الحقيقة ،

تحرقاً على كرسى الوزارة ، حاقداً على كل من يعين وزيراً . سلاحه الدس فى الظلام الدامس ، والتشكيك فى النهار الضاحى بكل من يظن أنه سيصبح وزيراً ، عله يختار بدل الذى أمعن فى الدس له ، وبذر حوله بذور الشكوك والريب . وأوغل فى الاختلاق عليه ولنرمز إلى اسمه بـ « ح . ا » .

وهذا ثالث لا يجيد غير الهتاف ونقل الأخبار الكاذبة . فهو يسند روايات زميليه المختلقة ويؤيدها . وبهذه الوسيلة عين موظفاً ، ثم راجت بضاعته لدى الزعماء ، دار على الأحزاب فاستغل تفكك الكلمة والتنافس بين أفراد الحزب الواحد . ومن عجب أن هذا الجاهل الغبى قد استغل الزعماء الأغبياء والمتزعمين وتقاضى منهم الأموال من (خزينة الأمة) باسم نشر الدعاية لهم ، فاغتنى وابتاع الأطيان ، واقتنى وابورات الطحين والمياه ، وبهذه الوسيلة الرخيصة رقى فى الوظائف الحكومية وزيد مرتبه واسمه (ا . ص) .

محجوب يلقى الدرس

لما اتخذ ذلك الرئيس مجلسه فى ندوة داره ورأى الدكتور محجوباً يتحدث مع رسوله إليه ، قال موجهاً كلامه للدكتور : « مالى أراك منهمكا فى حديث خاص » فأجاب : « إنى أتكلم فى مسألة خطيرة » وسكت . وإذا بالدساسين يستعينان بثالثهما وينسبان إلى أحد أبطال الحركة الوطنية وهو (م . ع) مسائل غير صحيحة ، وكان لا يزال

خارج القطر ، ثم إذا بهما يدسان لأحد الشباب من المحامين — وكان ذلك الشاب قد تعرض لأشد الإعنات وضحى كثيراً فى سبيل الفكرة التى عمل لها وهو ف . ح وقد انتقل إلى جوار ربه — ثم أخذا يشيان بموظف كبير كان الدكتور محجوب يعرفه حق المعرفة . . وهنا اعتدل الدكتور فى جلْسَتِهِ ، وضحك بصوت عال ضحكة الغضب الساخرة ، وكانت أشبه بزئير الأسد وإذا هو ينفعل ويثور ، ثم يقول لذلك الرئيس : « إن كل ما سمعته دس فى كذب فى اختلاق . . . كنت أقول لرسولك إلىّ بأنى سأصاب بهؤلاء الذين يجعلون من أنفسهم بطانة سوء لكل رئيس حكومة فى مصر ! . . وكنت أقول له إنى سأصاب بهم فى مجلسك هذا ، بهؤلاء الذين يسبقون مرسوم إسناد الوزارة بالالتفاف حول كل رئيس وزارة . . . إنكم تجنون على الأمة فى أخلاقها بالاستماع إلى حملة ألوية الكذب والشقاق والنفاق ، وإضعاف الثقة بين المصريين جميعاً . ما هذا ؟ أشقاق أيها الناس بين حزب وحزب ؟ أو تنافس بين الأحزاب على خدمة الوطن ، وتحاسد بين أفراد الحزب الواحد ! ؟ وشقاق بين الأسر بسبب التنافس على عضوية النيابة ! ؟ ماذا بقى لنا ؟ كيف تسمح لهؤلاء أن يجرحوا بالباطل زميلك وابن إقليمك وأنت به أعلم منهم ، وكان الجدير بك أن تردعهم ، وكان الأليق ألا تستمع إليهم . . هذه حالة لا تطاق ، والسكوت عليها جريمة لا تغتفر . . . هؤلاء هم أصل الداء . . إنى أقول إنكم أيها الزعماء ، تحتضنون جراثيم الشقاق ، وهؤلاء هم سبب انحطاط الأخلاق . لقد آن أن نتضافر فى

سبيل التخلص من هذا النوع من الناس وإلا فلن تقوم لأمتنا قائمة » . . فتجهم وجه الرئيس . وأُخِذَ الدساسون وارتاعوا . ولما وقف بعض مرافقي الدكتور موقف المتحفز المتحدى . . ابتسم الرئيس مغلوباً على أمره وعمل حساباً لصراحة أحد أصحاب الدكتور ، وغضبته .

أما الدساسون فقد خشوا مغبة الكلام وتفادوا نتائج وشاياتهم فرأوا فى السكوت السلامة ، حتى لا تتصل أنباء وشاياتهم بمن كانوا يدسون لهم ، وكان الدكتور مصمماً على أداء الرسالة وإلقاء الدروس القاسية ، وكذلك صديق الدكتور الذى كان يومئذ أداة تهديد فى يده .



ولما قال الرئيس محرجاً : « صف لنا العلاج يادكتور » قال : « العلاج أن توطن نفسك على أن تسمع مثل ما سمعته منى الليلة وأن تعمل به . وألا تستمع لهؤلاء المشائين النفاجين ، وألا ترفع الأشرار على الأحرار ، وأن تقطع علاقتك بالنوع الرخيص الذى يتقرب إليك اليوم ، وقطعاً سيتقرب غداً لكل من يؤول إليه الحكم بالوشاية والسعاية . أقول لكم لقد أصبح من أوجب الواجبات تحذير الزعماء بعد أن عصفت بالأمة الأهواء بما أثارته المنازعات والمنافسات بين الأحزاب على الحكم ، وبين أعضاء الحزب الواحد من الحسد والتنافس ـ تلك المنافسات والأحقاد التى يضاعف فى تأجج نارها نقلة الأخبار المختلقة . وهذه المنازعات قطعاً لا تتصل بسبب إلى المصلحة العامة . والسبب فى ذلك أن المصالح الشخصية طغت على كل شيء ، وأعنى بالمصالح الشخصية هذا التكالب على حب المادة والمجد المزيف ،

والجرى وراء تلك الألقاب الضخمة التى أصبحت أعرض وأطول من جغرافية بلادنا . وهذه الألقاب يختفى حملتها حين يجد الجـد ، ويفغر الأجنبي فاه لابتلاع حق باق من حقوقنا . لقد أصبح ـ ياسيدى الرئيس ـ واجباً علينا نحن الذين نشقى بالوطنية غرساً ونجنيها حنظلا أن نحذركم من هذه الهوة السحيقة التى ستتردى فيهـا بلادنا . وفى سبيل العودة بالأمة إلى الجـادة ، لا مندوحة لنا من أن نحـارب النفاق والرياء ساخرين من الأذى مستهينين بالعقبات ، حتى تعود الأمة كما كانت موحدة الكلمة ... قوية الإرادة » . ثم وجه كلامه إلى الدساسين فقال لهم : « إنـكم اجتمعتم الليلة فى هذه الدار لتسبقوا المرسوم الملـكى الخاص بتأليف الوزارة . ولولا ذلك ما جئتم ... يؤسفنى أن أقول لكم إن المرسوم قد صدر ، ولـكن بإسناد رياسة الوزارة إلى غير حضرة الصديق الرئيس . فاذهبوا بسلام إلى من أقبلت عليه الدنيا ، وفى يقينى أنـكم ستذهبون » وقد كان يقينه صادقاً ! . .

إذ حدث تماماً أن بعضهم اتجه إلى من أقبلت عليه دنيا الحكم ومنهم من تحايل على مصـاهرته ، وهو الذى كان ينسب ـ ظلمـاً وعدواناً ـ إلى الأبرياء بأنهم يتصلون بالحكام ، إذ كان يتهمهم بمـا هو فيه وهو الذى رمزنا إلى اسمه بحرف (ح . ا) .

كان الدكتور محجوب صادق الفراسة ، قوى الملاحظة ، وهو الطبيب الشرعى ، والمحـلل النفسى الألمعى :

ذكىّ تظنيه طليعة عينه   يرى قلبه فى يومه ما ترى غداً

مواسم ظهور حملة ألوية الفتنة ـ طراز من نوعهم

فى تلك الأيام : أيام الفتنة . . . أيام الشقاق والخصام بعد الوئام الذى كان سائداً إبان الحركة الوطنية سنة ١٩١٨ - ١٩١٩ ، قبل تكالب الزعماء على كراسى الحكم .

فى خضم الحوادث ، وخلال أمواجها المتلاطمة ، وفى أثناء قيام وزارة ، وذهاب وزارة أخرى . . . فى تلك الأيام التى تدب فيها عقارب الفتنة . . . والليالى التى تنساب فيها أفاعى الدس والوقيعة من الذين « يصطادون فى الماء العكر » ويأكلون « لقمتهم » « مغموسة » فى دماء الأبرياء ، وهم الدساسون المشاءون الذين يعتبرهم الدكتور محجوب ـ بعوض المجتمع المصرى ، وبراغيث الأحزاب السياسية ، وناقلى عدوى الأمراض الاجتماعية ـ ، النافخين فى أبواق الفتنة ، المفرقين لكلمة الأمة ، ليستفيدوا .

فإن كان الدساسون من ذلك النوع الذى يبحث عن المال ، من أى طريق غير آبه بالوسيلة ، أهى مشروعة أم غير مشروعة ، أخير أم شر ، فسبيلهم الاختلاق والدس إذا لم يهتدوا إلى شىء يرمون به بريئاً ، ويصيبون به وطنياً مخلصاً ، شريفاً فى وطنيته ، معتداً بنفسه ، معتزاً بمتانة خلقه ، مجانباً لوسائلهم . أما إذا كانوا من متطلبى المناصب الكبرى ، أو المتحرقين على المراكز الوزارية فسبيلهم تشكيك رئيس حزبهم فى من يظنون أن رئيس الحزب

سيقع اختياره عليه . ولا عبرة لدى متطلبي المناصب الوزارية من الدساسين أيضاً بالوسيلة التي يتخذونها ، أهي شريفة أم دنيئة . أحق ماينسبونه إلى من يغتابونه ، أم باطل نسجوه من مخيلاتهم !

ولقد شجعهم بعض الزعماء بغفلتهم أو تغافلهم العجيب - إن صح هذا الوصف فقط للزعماء - على كل حال ، فالتبعة إنما تقع على عاتق الزعماء قبل الدهماء ، وذلك لأنهم بغفلتهم قد حطموا كثيراً مما كان باقياً سليما من أخلاقنا ، وقضوا أو كادوا على ما كان متأصلا محموداً من عاداتنا ، فأشاعوا النفاق والرياء ، ووضعوا أسس السياسة الرخيصة ، والفكر الرخيص ، والأدب الرخيص ، والوطنية لرخيصة ، والأسلوب الرخيص ، إذ قربوا إليهم حملة الأقلام المتجرين بأقلامهم الذين لا مبدأ لهم ولا عقيدة ، وهم الذين ينتقلون من حزب إلى حزب يمدحون من آل إليه الحكم ، ويقدحون فيمن تركه الحكم ، وهم في مدحهم وقدحهم يهدفون أبداً إلى الغرض الشخصي والهوى النفسي ، متخذين هذه الوسائل ذريعة إلى المناصب والرقي إليها ، وجمع المال من هذا الطريق . . . والأعجب من ذلك أن الزعماء يقربون من كان بالأمس القريب يشكك الناس في وطنيتهم وفي ضمائرهم بمجرد أن يطعن في منافسيهم بعد أن يزجي إليهم قلائد المدح والثناء ، وبعد أن ينسب إليهم ما كان يجردهم منه بالأمس الدابر .

يتكرر من ذوى النفوس الصغيرة هذا العمل ، ويتكرر من الزعماء تقريبهم والاستماع إليهم ! ! !

إذن فالزعماء هم أصل الداء ، وسبب البلاء ، وإفساد الأخلاق

وهم سبب وقف تقدمنا الوطنى وجعله كالماء الآسن فى البركة الموبوءة الراكدة ، بعد أن كان تقدمنا الوطنى كالتيار الجارف فى البحر الهائج والسيل الذى « يضيق عن أَتِيِّه الأودية والسهول (1) . نعم الزعماء هم أصل الداء وسبب البلاء . وجلهم فى ذلك سواء » .

راجع الصحف المصرية فى سنة ١٩٢٢ وما بعدها تر عجباً ! تر الزعماء يقربون فى غدهم من كان يطعن فى وطنيتهم بل فى أعراضهم فى أمسهم ، ويشيد بوطنية منافسيهم ، تر مجرد أن يمسى من كان يطعن فيهم ، طاعناً فى وطنية منافسيهم بنفس الألفاظ التى طالما تناولهم بها من قبل يهشون له ويبشون ، ثم يتخذونه بطانة ومستشاراً . أفلا يدل هذا على خطل الرأى ، وصغر النفس ، وقصر النظر ، وضيق الفكر ؟ ... أقول على سبيل الاستدلال وإعطاء الفكرة ، لا على سبيل الحصر ، فالشرح يطول ويحتاج إلى مجلد كبير بل إلى مجلدات(2) !.

فى سنة ١٩٢٢ وما بعدها إلى بضع سنين كان أحد أعلام الكتاب والعلماء - فى نظر بعض المتزعمين - من أساتذة الجامعة الأمناء ، على تربية رجال المستقبل . كان هذا الأستاذ الذى تلقى علومه فى الجامعة الأزهرية ، ثم فى الجامعات الفرنسية ، يكتب فى جريدة السياسة مقالات نارية ، طاعناً فى أضخم زعيم فى مصر ، وأكبر متبوع ، مجرحاً فيه كل ما هو عزيز يحرص عليه الإنسان

(١) هذا تصوير من محجوب لحركة سنة ١٩١٨ — ١٩١٩

(٢) هذا أيضاً تصوير لآراء محجوب .

تحت عناوين : « دجالون » ، « مشعوذون » ، « كاذبون » ، « جبناء » . إلى آخر هذه الصفات والنعوت التى كانت عناوين لمقالات ذلك الذى أصبح ـ بَعْدُ ـ أستاذاً وعميداً لكلية الآداب على يدى الزعماء مرءوسى « سعد » الزعيم الضخم الذى جرّحه هذا الكاتب فى وطنيته . . .

* * *

آه . آه من عقلية الزعماء ! ! وآه . آه من حكمهم على الناس والأشياء ، والاتجار بالرأى . فأنت ترى أنهم بمجرد أن مدحهم ، تناسوا ما تناول بهم موجدهم[1] « سعد » ولم يبالوا بالفرق البعيد ، والبون الشاسع بين « سعد » وبينهم . . . بل كان يجب عليهم أن يقولوا لأنفسهم : أين نحن من سعد فى قوته ، بله فى ضعفه ؟ . . فى كل شىء . . . أين الثرى من الثريا ؟ أين الفأر من الأسد ؟ أين الغراب من النسر ؟ ! ألم يكن من قوة الخلق ، وبعد النظر أن يقولوا لأنفسهم : إن هذا الذى يمدحنا اليوم ، إنما يتاجر بقلمه . . لا يصح أن نقبل منه مدحاً بعد أن قدح فى زعيمنا ورئيسنا أمس . أين نحن من « سعد » ! . . ؟ إلخ . . كيف نقبل شهادة الوطنية والنزاهة والإخلاص من رجل لم يترك لسعد أديماً سليما ؟ ! .

إذن فالزعماء هم الذين أشاعوا النفاق والرياء ، وصغر النفس ، والاتجار بالمبادىء والآراء . نعم هم الذين يحطمون أخلاقنا ، ويجنون على وطنيتنا ، ويقضون على المثل العليا . . . وإذن فالواجب يقضى على كل وطنى ، أن يعمل بكل الوسائل المشروعة فى دائرة القانون ، على أن يقوِّم من اعوجاج الزعماء قبل الدهماء ، وإلا فالويل لنا كأمة ،

(١) سيجىء تفصيل ذلك فى كتابنا (حوادث مصر السياسية) .

والعفاء على الوطن والوطنية . علما بأن :

الرأى ليس نافعـــا إذا أوانـــه مضى

فإذا كان هـذا بعضاً من أخلاق أستاذ الجامعة نفسه ، فماذا ننتظر منه ؟ .. أفلا نخشى أن يغرس مبـادىء النفاق والرياء فى نفوس بعض الطلاب . وحينئذ ألا يحق لنـا أن نصرخ : بئس الأستاذ ، وبئس الطلاب ، وبُعْداً لهؤلاء الزعمـاء ؟ .. أليس من الواجب أن نقول للزعمـاء : تخلوا عن مكانكم فقد سئمناكم ، ويئسنا من تقويم اعوجاجكم ما دمتم كذلك ؟ ..

لنعد إلى موضوعنا بعد هـذا الاستطراد القهرى مصورين آراء محجوب كما سمعناها منه .

فى يوم من تلك الأيام التى تدب فيها العقارب البشرية ، وتنساب فيها الأفاعى الآدمية ، وهم الذين أبدع شوقى فى وصفهم بقوله :

ألا يا رُبّ خـــدّاع من النـاس تلاقيه
يعيب السم فى الأفعى وكل السم فى فيـــه

وقد أبرز شوقى صُوَرَهم للناس إذ يقول مخاطباً الأفاعى :

وأنـتن والناس قد تلتقو ن ، ففيكن شر وفى الناس شر
وتقتلن عمى عيون السلا ح ، ويقتل قاتلهم عن بصر
لسان ابن آدم أو نابكن كلا السائلين لعاب القـــدر
. . . فليست سموم الأرا قم فى الخبث دون سموم البشر

* * *

كان محجوب يتحدث بما تقدم ... وكان يرى لزاماً على المصرى

أن يحارب حملة ألوية النفاق من ذلك الطراز من الناس ، ويطالب من يأنس فيهم الوطنية مصحوبة بالشجاعة ، بمحاربة أولئك المنافقين ويقول : « فريضة على كل مصرى العمل على تطهير البلاد منهم ، كما تطهر البيوت من الحشرات المؤذية ، والأجسام من الأدران » .

فى ليلة من تلك الليالى التى تتجمع فيها فوق أرض مصر وتحت سمائها غيوم الحوادث ، منذرة بالعواصف التى تقتلع وزارة قائمة ، تطيح برئيسها وأعضائها خارج الديوان ، وتنتزع منهم كرسى الوزارة — « الغادة اللعوب — والمنصة الطروب » — فتجد فريقاً هنا منقبض الصدر ، محزوناً ، متحسراً . وفريقاً هناك منطلق الأسارير مسروراً مستبشرا . . . فى تلك الأويقات التى قلّ أن تستفيد فيهـا الأمة والوطن من ذهاب الذاهبين ولا من مجىء المنافسين ، فالأمة لم تسقط الوزارة الذاهبة ، ولم ترفع الوزارة الآتية .

ولطالما ظلمت الأمة وإرادتها من الذين ادعوا التحدث باسمها والعمل بإرادتها لمصلحتها كما جنوا على المنطق وظلموا الألفاظ التى قد ألبسوها غير معانيها وكما سموا الأشياء بغير أسمائها ! . . ألم يسموا غير الاستقلال باسم الاستقلال ، والتساهل باسم التمسك بحقوق البلاد ، والتفريط احتفاظاً ، والدوس على الدستور بالأقدام احتراماً له ، ووأد الحرية نشراً لها ؟ والارتكان على الأجنبي وتسلم الحـكم بموجب تبليغات وإنذارات مؤيدة بالدبابات انقاذاً للوطن ، والبقاء فى الحـكم بموجب شتى التبليغات الأجنبية احتراماً لإرادة الأمة ؟ ! .

فى خضم تلك الأيام التى ظُن فيها أن أحد رؤساء الأحزاب

سيستدعى لتكليفه بتأليف الوزارة ، أوفد ذلك الرئيس رســـولا يستدعى الدكتور إلى ندوة داره . فابتسم الدكتور ضاحـكا وقال للرسول : « إن الدار ستكون حاشدة بالدساسين » . وأمَّنَ الرسول على كلامه . . . فإذا بالدكتور يفاجئه بقوله : « سألقى الليلة درساً عليهم ، وسيتناول هذا الدرس الرئيس أيضاً ، ولـكن هل يفيد الدرس ، وهل يستفيد الزعيم والزعماء ، وكلهم فى الإساءة إلى الأمة سواء ؟ أم سأنطح فى صخر وأنادى فى قفر ؟ وهل سيذهب صوتى صرخة فى واد ؟ وعلى آية حال سأؤدى واجباً وطنياً . لقد ضقت ذرعاً بعقلية الزعماء . فهم حينما يكونون فى الحـــكم تراهم يغيرون آراءهم ويتغيرون . وينسون أنفسهم ويتناسون المثل العليا وطنية كانت أو اجتماعية . كان فى فمى ماء أما اليوم فلا ، إن السكوت قد أصبح جريمة وطنية ، لقد آن يوم الجهاد الشاق ، كما حان يوم رحيلى عن الدنيا » .

كان الدكتور ثائراً ، وكان عابساً . ولم يُرَ فى تلك الحالة ، أو على الأقل لم يُرَ من قبـل فى تلك الثورة . . وذلك لأن دار الدكتور كانت قد ازدحمت بالذين جاءوا يهنئونه بحدوث أزمة وزارية . ثم بالزعيم صـديق الدكتور الذى سيؤلف الوزارة ، فـكان رده على المهنئين موجزاً ، وكان مؤلماً ، وفى نفس الوقت درساً قاسياً ، إذ قال لهم : « بم التهنئة . وعلام الفرح ؟ ما الذى كسبته مصر من سقوط وزارة ، وارتفاع طقم من الناس ، إنكم طلاب صيد لا طلاب استقلال » .

فلما وصل الدكتور كانت دار الرئيس تعج بالسياسيين المحترفين المستغلين .

وكانت غالبيتهم من الذين يغشون ندوة كل من يُظن أنه سيتولى الحكم . وهم الذين يتخذون اختلاق الأنباء صناعة ، ورواية الأخبار ديدنا . وإذا لم يجدوا مايروونه لايتعففون عن أن يختلقوا ، مستغلين الخلاف الناشب بين الأحزاب ، والتنافس المشتجر بين المستوزرين فى حزب واحد ، هؤلاء الذين يأكلون على موائد الأحزاب جميعاً ، ويقابلون كل رئيس حزب بوجه غير الوجه الذى قابل به منافسه ، يروى لكل واحد مايرضيه . . .

ظل الدكتور يقول للرسول مستطرداً بعد أن وصل إلى دار الرئيس قبل نزوله : « ها أنا قد وجدت كما تنبأت ، وقدّرت الذين ينتقلون من معسكر حزب على وشك أن يغادر الحكم ، إلى معسكر الحزب الذى سيتولى الحكم . أو يظن أنه . . ها نحن أولاء قد وجدنا هؤلاء الذين يكونون دائماً فى الطليعة والمقدمة ، يحرقون البخور ، ويطبلون لكل حاكم ، ويجعلون أنفسهم حجاباً لكل رئيس حكومة مادام فى الحكم ، أو الحكم فى طريقه إليه . فإذا أحسوا أن نجم الحاكم آيل إلى الأفول سبقوا النجم فى الاختفاء ، وإذا لمحوا من بعيد نجماً آخر وشيك اللمعان ، فسرعان ماتراهم يسبقون النجم بالانتقال إلى معسكر من أقبلت عليه الدنيا ووصل صولجان الحكم إليه . وعجبى الذى لايزول أن الزعماء يتقبلون هؤلاء ويستمعون إلى وشاياتهم ويصغون إلى مفترياتهم ، ويتأثرون بنفاقهم ويتعامون عن صغر نفوسهم ! . والأعجب أن الزعماء يمعنون فى تناسى أن أولئك الذين أقبلوا عليهم سبق أن أدبروا عنهم حينما أدبرت الدنيا : أى الحكم ، وأقبلوا

حينما أقبلت : أى المنصب ، فلا الزعماء يتذكرون ويتعظون ، ولا أولئك يستحيون ويخجلون ! ! . . ولا جدال فى أن أسباب النفاق ، والرياء ، وصغر النفس ، ودناءة الطبع ، تلك الأمراض الاجتماعية التى أخذت تسرى فى جميع الطبقات والبيئات سريان الأمراض الوبائية التى تفتك فى كيان المجتمع المصرى . سببها ومنشؤها تقبل الزعماء لذلك النوع الرخيص من الناس ، والاستماع إليهم . نعم تلك هى الأسباب المباشرة لما نلمسه ونراه من الانحطاط الخلقى ، إن اتخاذ الزعماء لهؤلاء بطانة ينظرون إلى الدنيا بعيونهم ، وقد يفكرون بعقولهم قد قلبت نهضتنا إلى كبوة ، ولا مرية فى أن الزعماء هم المسئولون عن تفشى هذه الأمراض ، إنى لأتساءل : كيف فاتهم أن الأمراض الوبائية من المستطاع مقاومتها بالوسائل الطبية الحديثة فيزول خطرها . أما هذه الأمراض التى تتفشى فى بلادنا ، ويشجع فى انتشارها الزعماء باحتضانهم المرائين ، فلن يكون من السهل على المصلحين مقاومتها ، وعلاجها ، ووقاية البلاد من شرها المستطير ، نعم الزعماء هم المسئولون . وكذلك تقع المسئولية الهائلة على أمثالنا إذا لم ننتهز الفرص ، بل نخلقها خلقاً لمحاربتها والانذار من النتائج الوخيمة التى ستترتب على عدم محاربة ناشرى عدوى الأمراض الاجتماعية والتغلب عليهم . إن فرائصى لترتعد من عظم المسئولية » .

ثم قال وهو يرنو بنظره إلى الجهة التى سيجىء منها الرئيس ، وهو يتصفح وجوه الموجودين : « كم من وطنى ، مخلص ، نزيه ، أبىّ ، عيوف ، مفيد لأمته ، محب لها ، يتقد غيرة ، ويحترق فى سبيلها . وكم من جدير

بأن يتخذ قدوة صالحة. وكم من حرىّ أن يكون نبراساً للمثل العليا، قد نأى بجانبه عن الزعماء، بعد أن اتعظ بمن أصبحوا ضحايا وشايات الأدنياء، وهم الشجعان الذين يجاهرون بآرائهم، يبذلون نصائحهم للزعماء خالصة لوجه الله . . ثم لوجه الوطن . . وهم هم الأعفاء الذين يأنفون أن يجاروا أولئك فى وسائلهم، فتقدم النوع الرخيص مادياً وتأخر النوع الغالى العالى الذى كان وما زال نار الحركة الوطنية ووقودها .

فالأدنياء يشبعون ويتخمون، وعلى كل مائدة يأكلون، والنبلاء الوطنيون فى كل عهد يضطهدون، وفى أرزاقهم يحاربون، وعن حقوقهم يذادون، وكل ذنبهم أنهم أباة الضيم يضحون ويعفون . . إننا إذا سكتنا على هذه الأوضاع المقلوبة، وتركنا المتصدرين للزعامة فى بلادنا يجوّزون ما لا يجوز، ويقرّون ما لا يصح أن يستقر، ويضعون الشىء فى غير محله . يرفعون الوضعاء الرقعاء الذين لا تخلو من أمثالهم أمة، ويخفضون الشرفاء المجاهدين الأعفاء الذين لا يقبّلون الأيدى، ولا ينافقون، ولا يحسّنون القبائح . . أجل إننا إذا سكتنا على هذه الحالة وتركنا هذه الأمراض الفتاكة تجد مرتعاً خصيباً فى أندية الزعماء، ثم تأخذ طريقها إلى دور الحكومة، كما هو الحادث فعلا والواقع حقاً، خشينا أن يصبح شعار أبناء الأمة ودثار الشباب «فلننحط لنرتفع، ولنتصاغر لنكبر، ولننافق لنرقى إلى الوظائف، ولنتدنّ لنعلو وتروج بضاعتنا لدى الزعماء» . . نعم إذا سكتنا على هذه الموبقات، ولم نجد الشجاعة الكافية لمكافحتها فى إصرار وشدة

مصحوبين بالعزم والحزم ، فالويل لمستقبل هذه الأمة التى عشنا نجاهد فى سبيلها ، ونضحى لأجلها » .

ظل الدكتور يتحدث بما تقدم إلى أن نزل ذلك الرئيس ، حينئذ قال لرسول الرئيس إليه : « ستسمع الآن منى عجباً » .

ولعل من المفيد أن أوضح كيف كان الدكتور إذ يحارب تلك الناحية من الضعف الخلق - يمزج الجد بالدعابة ، وفى القليل بالتهكم - ولكنه كان أخيراً يقول كلمة الحق ثائراً ، ويحارب الدس والوقيعة دائباً .

قلت : « إن الدكتور كان قد تنبأ للرسول الموفد إليه أن الدار ستكون حاشدة بالمنافقين والدساسين الآكلين للحوم الغائبين » . ولقد كانت الدار مكتظة - كما توقع الدكتور - بالمتزلفين كما تقدم .

تلك أمثلة من الذين يلتفون حول الأحزاب فى مصرنا العزيزة . . وينظر رؤساء الأحزاب إلى الناس بعيونهم ، ويبتون فى شئون الوطنيين المخلصين بما يسمعونه من ذلك الطراز ، من دسّ ووشاية ، ولزاماً علينا أن نقول : « إن رؤساء جميع الأحزاب قد يتساوون فى هذا ، أولئك هم الذين كان محجوب يدعو إلى محاربتهم ، ويجعلها فريضة على الأكفاء الأعفاء الشرفاء المخلصين .

* * *

وهكذا حارب محجوب ثابت الدس والوقيعة ، وجاهد فى سبيل تقويم اعوجاج الزعماء قبل الطغام والدهماء .

هذه صورة دقيقة من جهاد الدكتور محجوب . . . فعلى الأبناء أن يقتدوا به . . وفى هذا فليتنافس الوطنيون المخلصون . . .

مشروعات وآراء مختلفة

كانت مرحلة من حياة الدكتور محجوب ثابت قضاها فى مجلس النواب كان السباق فيها إلى الانتاج ، والكفاح ، والتبشير ، والدعاية ، تحملها مقترحات له أحاط فيها بكل ناحية من نواحى الاصلاح الوطنى . فكان له أن تضفى عليه صفة الرجل الذى ضرب أعلى رقم قياسى فى النشاط ، والانتاج بين أنداده النواب .

كان محجوب ثابت مبشراً بالإصلاح من طراز عزيز فى هذا الزمن ولا بد أن يذكر له فى دائرة هذا الاصلاح كيف كان الزعيم السليم لحركة العمال ، وعلى حسابها أضيفت إلى شخصيته صفة نائب العمال فى البرلمان . . . . وهنا يجمل بنا أن نزيح قناعاً أسدله القدر على صفحة من مآثر الدكتور محجوب فى قيادته للحركة العمالية ، ليشهد الناس كيف تتوارى الحقائق خلف سحب الباطل والأضاليل ، فيمسى الفضل منكوراً على صاحبه .

كان الدكتور محجوب ثابت رئيساً لأقوى نقابة من نقابات العمال فى مصر ، بل أبقاها وأبعدها عن التيارات السياسية والحزبية ، ووضع مشروعاً يرمى إلى إنشاء مؤسسة صناعية يستخدم فيها أكبر عدد من العمال المصريين الذين يزيدون على حاجة المصانع الحكومية والأهلية ، وأن يجمع « رأس مال » المؤسسة من « قرش » تساهم فيه الأمة ، وبعد أن استقرت الفكرة وأعدت لها طوابع تحت قيد التنفيذ

والعمل لأمر ما ، قد أرجئت الفكرة إلى أجل . . . وبقيت معداتها وطوابعها لدى رئيس النقابة الدكتور محجوب ثابت فى عيادته إلى أن يحين الأوان ، فإذا بدجال يختلس هذا المشروع العظيم .

* * *

كان من بين المترددين على عيادة الدكتور محجوب شاب دعىّ مشعوذ يزج بنفسه فى زمرة الذين كانوا يحبون الاستماع إلى اقتراحات الدكتور ومشروعاته التى كان يبشر بها بلا كلل ولا ملل ولا سأم . لأنها رسالة امتزجت بدم الدكتور ، ونادى بها فى مجلس النواب كما أسلفنا . . . ثم نادى بها فى عيادته ، وفى اجتماعاته العامة ، وفى كل جهة مأخوذاً بخير مصر وإصلاح المجتمع . وهى مشروعات أشقته وحملته أعباء الرحلات التى كان يقوم بها فى أوربا لدراسة ما لهذه المبادىء الإصلاحية من نظير لها فى الأقطار الأوروبية .

كان ذلك الشاب الذى أشرنا إليه ، يجلس أمام الدكتور محجوب جلسة التلميذ من أستاذه يستمع إلى ما يلقى من أفكار ومبادىء .

على أنه كان يحرص دائماً على الانفراد بالحضور دون إشراك أحد من أبناء بيئته ، ليستأثر بالاستفادة من دراسات الدكتور وتعاليمه الاجتماعيه العامة ـ وأوسع من ذلك فى التعبير ـ ليكون مستتراً مختفياً حين ينسب إلى نفسه ما يدعى من مقترحات وأفكار يتلقاها فى ندوة الدكتور الفيحاء . . .

* * *

وسمع ذلك الشاب من ضمن أحاديث الدكتور أمنية كانت تجيش فى

صدره وهى : ما دام رؤساء الأحزاب قد اتخذوا الوطنية ذريعة يلتمسون بها الوصول إلى الحكم ، مع اتهام كل منهم صاحبه فى وطنيته لينفرد أمام الرأى العام بمظهر الوطنى الطاهر بعد أن يشغل الشعب بتلك المهاترات ، وتبادل الاتهامات ، الأمر الذى قد حطم السليم من أخلاقنا قبل ثورتنا وقبل نهضتنا الأخيرة التى استحالت إلى كبوة بسبب هذا التطاحن الحزبى ، ثم نتيجة اضطهاد رئيس كل حزب لمناصرى الحزب المنافس له كان ضعفاً وتخاذلاً أمام الأجنبى ، وتظاهراً بالوطنية خارج الحكم ، وتدجيلاً على الأمة داخل الحكم ، وتقريباً للضعفاء والسفهاء واتخاذهم أنصاراً وأعواناً ، وكلما كان النصير جامعاً لهذه الصفات يكون أكثر حظوة لدى زعيمه ، حتى أصبحنا نقول : إن « رؤساء الأحزاب » بتصرفاتهم قد شجعوا ضعاف النفوس على أن يتخذوا شعارهم : « انحطوا لترتفعوا » وأن يكون دثارهم : « نافقوا لتترقوا أو توظفوا » . . .

كان ذلك الشاب يستمع إلى الدكتور محجوب مصفقاً ومعجباً ويدوّن تلك المبادىء التى ظهر بها فى مصر فيما بعد ـ فى مظهر حزب سياسى له مبادىء ـ كأنها من عنده وبنت تفكيره ! وهى المبادىء التى كان يبشر بها الدكتور ، وخلاصتها تأليف هيئة من الشباب الذين لم يصابوا باللوثة الحزبية . لإرغام الزعماء على العمل الخالص لمصلحة البلاد ، أو لإجبارهم على الانزواء فى عقر دورهم . بعد أن حولوا دفة الحركة الوطنية عن هدفها ، وطريقها المستقيم .

فإذا بذلك الشاب يطلع على الناس بتلك المبادىء المختلسة . مدعياً أنه رب ذلك المشروع الذى كان يبشر به الدكتور ، وهو إقامة مصانع

فى مصر لمنافسة الشركات الأجنبية ولتشغيل الأيدى العاملة « بقروش » تجمع من كل مصرى . نسب ذلك المشروع إلى نفسه ، فكان السارق للفكرة ، والمستغل لها ، والظاهر بها أمام الرأى العام .

جاء هذا الشاب إلى عيادة الدكتور فى خلال الأيام التى تنكرت له فيها بعض الجرائد المنتمية لبعض الأحزاب . وفى أثناء تلك الحملة التى كانت تحمل لواءها مجلة مملوكة لشخصيات ماجنة ما كانت لتحترف الصحافة بعد أن عاشت فى بيئة الرذيلة على صورة تتجافى مع الكرامة وشرف الصناعة الصحفية . ومن هذا الطراز من جعلوا أنفسهم ندامى مجون بهلوانى لرجال السياسة وزعماء الأحزاب ، يمشون فى كل ركاب ، ويأكلون على كل مائدة . . . هؤلاء هم الذين كانوا يتندرون على الدكتور محجوب ، ويوجهون إليه وإلى غيره من الوطنيين الأحرار التهم جزافاً ، وهم الذين يأبون إلا أن ينظروا إلى الدنيا بعيونهم زاهدين ، ولا يطمعون إلا فى أن يكون الناس لهم منصفين ، أو على الأقل أن يتركوهم فى حالهم ليخرجوا من دنياهم لا عليهم ولا لهم .

إنصاف وطنية الأقباط

فى تلك الأيام كانت إحدى المجلات تحمل على الدكتور محجوب حملات كلها الكذب الخالص والافتراء المحض . وكان يقابل تلك المفتريات ساخراً بغير مبالاة .

* * *

زعم ذلك الشاب الذى كان يتظاهر بالوطنية المتطرفة ، أنه

يشق سبيلا للزعامة ، وظن أن الدكتور سهل القياد ، سريع الانخداع والتصديق ... فجاء يحاول أن يدخل فى روعه أن الأقباط هم الذين يحضون عليه الطلاب للنداء بسقوطه فى الاجتماعات ، وإنهم يوحون إلى الصحف بالنيل من سمعته والحملة عليه ... فإذا بالدكتور يغضب غضبة جبارة ويقول : « إنى لا أقبل أن تُنكر على الأقباط وطنيتهم . . حد عن هذا الطريق يافتى ... » .

كان الدكتور قد تنبّه إلى دخيلة نفس ذلك الشاب وخِبّه . و فطن إلى أنه يختلس أفكاره ومشروعاته . ومع ذلك فقد أغضى عن مواجهته بإدراك هذه الحقيقة رجاء أن تكون هذه الأفكار قد وجدت سبيلها إلى قلوب الناس ، فعملوا على إذاعتها - ولو عن طريق ذلك الشاب - وما دامت الغاية تُدرك ، فقد تنتهى المسألة بعد نجاح المشروع بإقصاء ذلك المدعى السارق عن الساحة التى لم يدخلها بريئاً ولا مخلصاً . وقد كان هذا الذى رجاه الدكتور محجوب وتكهن بوقوعه فصحت فراسته بعد مضى زمن طويل ، فأُبعد هذا الشاب عن المشروع بعد أن ظهرت خبيئة نفسه . وبان للناس مختلساً سارقاً .

لم يكد ينته ذلك الشاب من وشايته الصبيانية حتى اعتدل له الدكتور وألقى عليه هذا الدرس القاسى قائلا : « تلك نغمة فى أذنى تشبه نعيب البوم ، ونعيق الغربان ، ونباح الكلاب ، وعواء الذئاب هذا كذب يابنى »

وهذا الشاب حين يطعن فى وطنية الأقباط أمام رجل كبير النفس عظيم الشخصية كالدكتور محجوب كان لا بد للرد عليه وعلى عبثه الصبيانى من محاضرة يلقيها علينا ، قال : « اسمعوا يا أبنائى إن

فاخرنا بعروبتنا ، فالأقباط أخوال العرب »، ثم أخذ يروى لنا الحقائق التاريخية عن ذلك فقال : « اسمع يابنى ، ماذا يقول شوقى فى وصفه لقنال السويس :

هنا وضع للنبوة المهد وابتدأ بها العهد ، فأقبل صاحب المقام ومحطم الأصنام ، وبناء البيت الحرام ، خليل ذى الجلال والاكرام ، هاجر من مصر أكرم من هاجر ، وانقلب بأم العرب هاجر » . . . ألم تقرأ هذا يا شاب ؟ إذن ما هذه النغمة الكريهة ؟ إن كنا نفخر بأننا أبناء الفراعنة ، فالأقباط هم أبناء الفراعنة ، وإن كنا نفخر بعروبتنا فهم إخواننا . إلخ . اسمع ياهذا ! كيف تبيح لنفسك أن تنقل إلىّ هذه الوشاية ؟ « لمبلغك الواشى أغش وأكذب » . . أنا لا أفرق بين الشيخ والقسيس ، بل أحتقر كل مسلم يطعن فى الأقباط ، احتقارى للقبطى الذى يردد هذه النغمة من جانبه . . . أنسيت يا هذا وطنية سينوت حنا ومقالاته « الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا » ؟!!

لما لم يتورع ذلك الشاب عن الرد بقوله : « إن سينوت حنا إنما كان « يوقّع » ولم يكن هو الكاتب » . فرد الدكتور محجوب غاضباً : « هب أن هذا صحيح ، أليس مجرد التوقيع يجمع بين الشجاعة والموافقة وتحمل تبعة تلك المقالات الرائعات ؟ ألم يوافق عليها أقطاب المجاهدين وعظماؤهم ورجال الدين ؟ أنسيت تلك المقالات فى جريدة « الأخبار » فى أعنف أيام الحركة الوطنية ؟ أنسيت خطب القمص سرجيوس فى الأزهر ؟ وكيف كان كل هذا رداً قوياً ودحضاً مفحما لما زعمته الجرائد الانجليزية وقتئذ من أن الأقباط

يناهضون الاستقلال ؟ . . فما هذه النغمة الممجوجة . إنى أعتبر كل من يردد ما تقوله متاجراً بالدين ، وهو لا يعرف الدين ولا يتصل به بسبب ولا نسب . ولقد لاحظت أن الذين يرددون هذه النغمة لايدخلون مسجداً ولا يغشون كنيسة لأداء الشعائر الدينية . فكل متحدث بهذا يجب أن يكون موضع احتقار الجميع . . »

ثم ذكر الدكتور اسمى : « ويصا واصف ، ومرقص حنا » وكيف قاما وهم طالبان يطلقان فى إحدى المناسبات الوطنية الجياد من عربة الخديو عباس ، ويسحبانها بنفسيهما تكريماً لوطنيته ، حيث كان الخديو يظاهر الحزب الوطنى . . .

كان ذلك قبل أن يقلب لمؤسس الحزب الوطنى ظهر المجن ، بعد أن اتفق مع السير غورست صاحب سياسة الوفاق الخبيثة وتعتبر موافقة الخديو على سياسة الوفاق من كبائر أخطائه ومحاربته للحزب الوطنى من أشد ضروب الغدر والنكول وعدم الثبات على المبدأ ، وكان موقف مصطفى كامل حيال الخديو وعدم محاربته إياه يجمع بين بعد النظر وعمق الفكر وحسن السياسة .

ثم استرسل الدكتور محجوب فى حديثه فقال : « أنسيت أيها الشباب المردد لهذه النغمة المرذولة ، كيف أن مرقص حنا عندما تولى وزارة الأشغال لأول مرة ، وفى أثناء طوافه فى الباخرة « محاسن » لتفقد حالة الرى ، لما أن قدم إليه الطعام فى أوان كتب عليها اسم « وزارة الأشغال » باللغة الانجليزية قذف بهذه الأوانى فى النيل ، وأمر أن تستبدل بغيرها يكتب عليها باللغة العربية ،

لغة البلاد؟ أمثل هؤلاء يطعن فى وطنيتهم ؟ ما هذه العقلية السخيفة . لايذكر الانجليز فى بلادهم أن هذا مسيحى وهذا يهودى ، ومن رؤساء الوزارات والوزراء عندهم من لايبحث أو ينظر إلى صبغته الدينية إلا يوم موته للقيام بشعائر الدفن المتبعة » .

وما كان ذلك الشاب ليرتدع عن عبثه بل راح يمعن فى دسه فذكر اسم الدكتور نجيب اسكندر ضمن من ادعى تحريضهم للجرائد على الدكتور محجوب . ولكن ما أن لفظ الشاب باسم الدكتور نجيب اسكندر حتى ارتفع صوت الدكتور محجوب فى غضبة كريمة مصحوبة بالاستنكار وهو يقول : « حتى هذا الملاك الطاهر المفادى بأجلى ما فى كلمة المفاداة من معان لا يسلم من وشايتك ؟ يقيناً أنه لن تقوم لهذه الأمة قائمة ما دام فيها أمثالك الذين يتاجرون بالوطنية وبالدين ، يبذرون بذور الريب والشكوك والفتنة لا يتعففون وهم فى سن مبكرة عن تشويه أسماء الوطنيين الأطهار » ، وكان الدكتور محجوب يلقب الدكتور نجيب اسكندر بالقديس المظلوم ، وبالمثل الأعلى للخلق الكريم ، وشرف النفس الشفافة ، وبسليم النية .

ولما انتهى الدكتور من هذا ، لاذ الدجال الواشى بالفرار مغادراً المجلس . فاتجه إلىّ الدكتور قائلا : « ما رأيك فى هذا الشاب ، وماذا تعرف عنه . صفه لى حتى أتبين أأنا على حق فى حكمى عليه ؟ ولكن قبل أن تدل إلىّ بمعلوماتك عنه أحب ألا تنسى أنى لاحظت عليك شيئاً لم أتعوده منك من قبل ، وهو أنك ما كنت تشترك معنا فى كل ما جرى من حديث مع هذا الشاب ، وكنت تبتسم حينما تراه

يتكلم ابتسامة التضجر والسخرية ، وهى ابتسامة لها معناها ، وكنت ترنو إلىّ وإليه حينما كان يتكلم وتحملق فيه بنظراتك ، ثم لاحظت أنه يخشاك خشية الوجل ، مع أنه صفيق الوجه ، وفى عينيه فجر . أوضح لى هذا ، وما هى معلوماتك عنه بصراحة؟ . .

فقلت : « رويدك . . استجوبنى كأنك وكيل نيابة وأنا أجيب . وحدد السؤال وعيّن الاستفهام » .

فقال ضاحكا ، وأنا مطمئن لهذه الطريقة :

س ـ ما هى معلوماتك عنه ؟

ج ـ إنى أعلم أنه حينما كان طالباً بالمدارس الثانوية ، كان يجتهد فى أن يتصل بالموسرين من زملائه فى الدراسة ، مظهراً لهم زائد الود ، حتى إذا تمكن من خداعهم ونيْل ثقتهم ، يتوجه إلى منازلهم زائراً ، مدعياً أن أحد أبناء البيوتات الذين قد أخنى عليهم الدهر قد توفى ، وخلف أطفالا لم يترك لهم من حطام الدنيا شيئاً ، وهم لا يملكون قوت يومهم ، ويزعم أنه جاد عليهم بنفقات مدرسته ومصروف يومه . كان يقول ذلك بصوت متهدج ، مجتهداً أن يشعر أهل زميل الدراسة بصحة ما يزعم استدراراً لشفقتهم .

الدكتور محجوب ـ وى . وى . أتريد أن تقول إنه لم يكن هناك ميت إنما كان زعمه نصباً وتحايلا ؟

ج ـ نعم .

س ـ وكذلك احتال علىّ واختلس مشروعاتى . زدنى بياناً واذكر لى اسماً ممن لى بهم معرفة .

ج ـ أستطيع أن أذكر لك شيئاً من قبيل ما تقدم يتصل به بسبب . أنت يا دكتور تعرف الأستاذ حسن صبحى ؟ .

س ـ نعم . هو زعيم شبان الأحرار الدستوريين ، وما شأنه بخريج كلية الآثار وأبى كليوباترا ؟ لم يكن لى سابقة علم بأن للأستاذ حسن صبحى إبنة سميت بكليوباترا .

ج ـ توجه هـذا المشعوذ إلى الأستاذ حسن صبحى ، منتعلا حذاء باليا . واستدر عطفه بقوله : إنه عاجز عن شراء حذاء ، وعن دفع رسوم المدرسة ، وانه مهـدد بالطرد من المدرسـة . ومع أن الأستاذ حسن صبحى لم يكن ميسور الحال فى تلك الأيام ، فقد دفعته الأريحية إلى أن يقترض من أحد أصدقائه خمسة جنيهـات وأعطاها للشاب لوجه الله . وصادف أن توجه الأستاذ حسن صبحى فى نفس اليوم إلى بنك مصر لعمل له ، فما كان أشد دهشته حينما رأى صاحبنا يدفع إلى الخزانة عشرة جنيهات لضمها إلى رصيد له فيها .

ـ وى . وى ! استمر . . .

ـ وكما كان هذا الشاب يحتال على الزملاء ليأخذ منهم أموالا بدعوى المساهمة فى دفن موتى مزعومين ، والطواف على أمثـال الأستاذ حسن صبحى مدعياً حاجته إلى حذاء وإلى نفقات الدراسة فإنه قد ترقى فى فن الاستجداء من الزعماء . . فقد ذهب يوماً إلى منزل محمد محمود باشا ، ملتمساً مقابلته ، وكنت موجوداً ، فلما طلب المقابلة وكان جالساً بالسلاملك الكبير ، الذى لا يستقبل فيه غير الخـاصة من زائريه ، كافنى استطلاع ما جاء من أجـله ، وأن

أتصرف معه لأعفى دولته من هذه المقابلة . فلما قلت لذلك الشاب إن دولة الباشا متعب من جهة ، ومن جهة أخرى فهو مشغول . فقد أنابنى بأن أتصرف معك فيما جئت من أجله . فألح علىّ إلحاحاً شديداً لتمكينه من المقابلة ، وقد حاولت أن أستميح الباشا لمقابلته ولكن دولته أصر على رفض هذه المقابلة . وفعلا لم يقابله .

ـ أو لم تعرف السبب الذى حمله على الالحاح فى مقابلة الباشا ؟ .

ـ علمت بعد ذلك بأيام بخطاب موجه منه إلى دولة الباشا يعرض عليه فيه أنه يستطيع بواسطة العمال والطلاب أن يهدم الحزب المعارض له ، وقد ألقى دولته بالخطاب على المنضدة قائلا : ليذهب وليهدم . وليس لى شأن بهذا .

وفهم دولة الباشا أنه يريد المعاونة المادية من هذه السبيل .

والعجب أن دولة الباشا الذى عرف حقيقة هذا الشاب ولم يقبل ـ حتى مجرد مقابلته ـ فى سنة ١٩٢٩ . حينما أن جاء إلى الحكم سنة ١٩٣٨ كان يعطيه من المصاريف السرية مبلغاً كبيراً ! .

وقلت : « ارجع بنا إلى تاريخ سابق ، لأذكر لك أنه فى سنة ١٩٢٨ عندما كان محمد محمود باشا فى أوربا أثناء مفاوضته المستر هندرسون كان احمد فطين باشا قد افتتح « مكتباً » فى ميدان العتبة الخضراء « الملكة فريدة » على حساب المصاريف السرية لتجنيد طبقات الأمة من العمال والطلاب للترويج لمشروع المعاهدة ، فتقدم إليه هذا الشاب وأفهمه بأن فى استطاعته أن يقدم له من كل مدرسة ومن كل كلية طلاباً . فإذا به يتقاضى عن كل شخص يقدمه « عمولة » .

ولما قامت الحرب الأخيرة واعتقل ، ثم هرب من أحد المستشفيات سأله المعتقلون معه بعد القبض عليه : « لماذا هربت ؟ » . قال : « لأستقبل الألمان ، وأحكم مصر عن طريقهم » . والعجب العجاب أن وزارة الوفد بعد ذلك قد أحالت اعتقاله اعتقالا صورياً لغاية خاصة ، فأسكنته على ذمة الاعتقال فى مسكن أحد مأمورى أقسام البوليس بعد أن أخلاه بأمر الحكومة ، وكانت تلك الوزارة تسمح له بأن يستقل سيارة على حساب الحكومة يومياً للرياضة مع حرمه وأولاده ، بلا رقيب ولا حسيب ... كما كان يتقاضى المرتب السخى ويتوجه إلى منزل أحد الوزراء ويتناول معه الطعام . فلما أن علمت بذلك من المرحوم الأستاذ حامد المليجى ، كتبت مذكرة ضافية عن حقيقته ومدى شعوذته وتاريخ حياته ، وبعثت بها إلى فؤاد سراج الدين باشا متحدياً ومحتجاً ...

وبعد خروجه من المعتقل مباشرة ، أبرز ما خبأه من مال ويسار ، فاشترى عزبة ، وهو الذى لم يعرف له كسب ظاهر فى المحاماة أوغيرها . وهذا دليل على غفلة بعض الزعماء من جهة ، وعلى أنهم محدودو التفكير من جهة أخرى .

ولما كان هذا المقتنص للمال بكل الوسائل ، يعلم أن حزب الوفد قد خرج من الحكم وهو متخم الخزانة ؛ وكان فى أول الأمر يهاجمه ليستفيد من يساره حتى إذا بلغ بغيته هادن الوفد وأغضى عن مهاجمته فى صحيفته ، وقد وضع نفسه تحت إرشاداتهم ، يستخدمونه فى كتابة العرائض والمذكرات طعناً فى الحكومة التى تولت الحكم بعد وزارة

الوفد . أما صنوه المعروف ، فقد كان وهو معنا فى معتقل الزيتون يحتكر استغلال « مطعم » المعتقلين ، ومطعم قوات المعتقل والبوفيه ويستورد الخدم من الخارج ، ويستغل مزرعة طماطم وخضر حديقة المعتقل . وكان يجعل من نفسه « عهدة » وخازن أدوية المعتقلين وفى هذا الخير الكثير فى وقت كانت الأدوية فيه نادرة عزيزة المنال .

وكانت هذه الوقائع المعتمدة على المساندة الحكومية موضوع تحقيق جرى فى ذلك الوقت (١) .

كان المؤلف معتقلا ، فلما رأى أن صنو ذلك الدجال يتاجر بأدوية المعتقل بالاتفاق مع بعض أشباه الضباط ، من ضباط إدارة المعتقل ، قدم شكوى إلى رئيس الوزارة وإلى جميع الجهات الرسمية متحدياً وطالباً التحقيق ، فاضطرت الحكومة إلى إجرائه بواسطة جلال عبد الرازق بك مفتش البوليس .



(١) هذا حديث يستحق الافاضة وطول الشرح ، وأن يكون محل دراسة وتحليل . ولهذا أوردناه موجزاً وسنتناوله بالتفصيل الكامل فى كتابنا « حوادث مصر السياسية » .

الوكيل الأمين

بين مستر جريفز والدكتور محجوب

صفحة من صفحات الأمانة والزهد
والقناعة فى أشد أيام الضيق المادى .

قبل أن نبرز هذه الصفحة الزاهية من تاريخ الدكتور محجوب ثابت ، يجب أن نقدم لها بصورة لها حقها من الجلال والروعة ، ترتبط كل الارتباط بهذا الموقف الذى سنكشف عنه ، بين الدكتور محجوب وبين مستر جريفز مدير مكتب العمل (فى ذلك الحين) ، ذلك أن الدكتور محجوب كان قد أوغل فى أريحيته وعطفه على العمال والطبقات الفقيرة إلى حد أنه كان قد آثر مرضاهم بعيادته وصيدليته ، فكانت العيادة موئلا لهؤلاء فى زحام حاشد أقصى عنها « الزبائن » القدامى الذين كان يعتمد عليهم الدكتور محجوب فى عيشه بعد أن ترك الوظائف الحكومية احتجاجاً على تفضيل الأجنبي على المصرى فى مستهل عهده بالوظائف .

وما هى إلا بضع سنين حتى أفنى فى هذه السبيل ما كان عنده من مدّخر ... علاج بغير مقابل ، ودواء من صيدليته بغير ثمن . . . ودَخْلٌ آخر لا وجود له . . . إذن ذهب المال ، وعجز الدكتور محجوب عن مواصلة صرف الدواء ، مكتفياً بمجرد العلاج ، وهو يعتذر

لمرضاه ـ فى حياء ـ بعدم وجود الدواء بعد وصف العلاج . . وليتها كانت كل التضحية من جانبه ، فقد لاحقته الضائقة من جراء هذه الأريحية فتوقف عن دفع إيجار عيادته ، ومسكنه ، وصيدليته المغلقة ، وكلها فى عمارة واحدة تملكها وزارة الأوقاف ، ولم يتجمل معه قسم الإيجارات حينما أوقع الحجز على محتويات العيادة والمسكن من أجل ما تجمع عليه من إيجار فى عمارة يقيم فيها منذ سنة ١٩١٠ ، دفع ما يساوى ثمنها أو يزيد فى مجموع هذه السنين التى قضاها (فى شارع الكومى بالسيدة زينب) حتى لاقى ربه .

وهنا يجمل بنا أن نعقب على هذه الصورة بحديث قديم كان قد أفضى به إلينا الطيب الذكر والصديق الحميم ذو الخلق الكريم « داود بركات بك » شيخ الصحافة ورئيس تحرير الأهرام فقد حدثنى قائلا : « إن الدكتور محجوب الذى يعانى هذا العسر ، كان لا يجد وقتاً لتناول الطعام ، من تزاحم المرضى على عيادته ، ومن طلبات المحاكم والمجالس الحسبية لتقاريره الطبية الشرعية . وكانت هذه العيادة تدر عليه ما يزيد على خمسين جنيهاً يومياً ، وحينما كان يقضى السهرة معنا فى « الأهرام » أو فى « بار اللواء » قبل سنة ١٩١٩ ، كانت أسلاك التليفون تهتز من كل جهة تطلب الدكتور محجوب لعيادة مرضاه فى منازلهم من جميع أنحاء العاصمة . وكان يعود إلينا أثناء السهرة و « هميانه » منتفخ بالنقود . . وكثيراً ما كان يقيم لنا المآدب فى عيادته . فإذا اجتمعنا حول مائدة الغداء ، كان قلّما يجد من وقته متسعاً كافياً لمشاركتنا فى الطعام . كانت « زبائنه » من الأغنياء فى وفرة واسعة يجمع منهم المال

لينفق منه على فقراء المرضى والعمال ، ويدخر ما يتبقى . فلما قامت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ خرج الدكتور محجوب إلى شوارع القاهرة بعربته التي كان يجرها « مكسويني » حصانه العزيز المنتحر [١] ،

---

(١) كان للدكتور محجوب عربة يجرها جواد أصيل خاض معه المعركة الوطنية تحت وابل من الرصاص ، وكان إذا جن الليل ، عرج الدكتور محجوب على محل (صولت) الحلواني لتمضية السهرة مع صفوة أصدقائه ، وكان من بينهم محمود فهمي النقراشي باشا وشوقي أمير الشعراء ، وكان الحصان يقضي ليلته رهن انتهاء السهرة بغير طعام انتظار الأوبة إلى الاسطبل . . . وقد أطلق المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى على حصان الدكتور محجوب لقب « مكسويني » تشبيهاً له بمستر « مكسويني » الايرلندى محافظ (كورك) الذى أضرب عن الطعام شهرين احتجاجاً على السلطات البريطانية .

قال شوقي مداعباً الدكتور :

لكم في الخط سياره حديث الجار والجاره
« أوفرلاند » ينبيك به القنصل طاره(*)
كسيارة شرلوت على السواق جباره
إذا حركها مالت على الجنبين منهاره
وقد تحرن أحيانا وتمشي وحدها تاره
ولا يشبعها عين من البنزين فواره
ولا تروى من الزيت وإن عامت به الفاره
ترى الشارع في ذعر إذا لاحت من الحاره
وصبيانا يضجون كما يلقون طياره
وفي مقدمها بوق وفي المؤخر زماره
وقد تمشي متى شاءت وقد ترجع مختاره
قضى الله على السواق أن يجعلها داره

(*) الشيخ حلمي طهارة إمام مفوضية مصر بامريكا .

يخوض بها المعمعة تحت وابل من رصاص البنادق والرشاشات الإنجليزية يصم أزيزها ودويها الآذان .. فكنت تراه هنا للطلاب ولشباب الأمة مداوياً، ولجراحهم مضمداً .. وهناك لقلوب المجاهدين

يقضى يومه فيها ويلقى الليل مازاره
أدنيا الخيل يامكسى كدنيا الناس غداره ؟!
لقد بدلك الدهر من الاقبال إدباره !
فصبراً يا فتى الخيل فنفس الحر صباره
أحقاً أن محجوبا سلا عنك بفخاره
وباع الأبلق الحر (باوفرلاند) نعاره
ولم يعرف له الفضل ولا قدر آثاره
قد اختار لك الشلح (١) وما كنت لتختاره
فسله ما هو الشلح عسى ينبيك أخباره
كأن لم تحمل الرا ية يوم الروع والشاره
ولم تركب إلى الهول ولم تحمل على الغاره
ولم تعطف على جرحى من الصبية نظاره
فمضروب برشاش ومقلوب بغداره
ولا والله ما كلفت محجوباً ولا باره
فلا البرسيم تدريه ولا تعرف نواره !
ولا تروى على صولت إذا نادمت سماره !
وقد تسكر من خود وعلى الافريز معقاره
وقد تشبع يا ابن الليل من دنة قيشاره
عسى الله الذى ساق إلى يوسف سياره
وكانت خلفهم دنيا لهم فى الأرض كباره

---

(١) يقصد أن يقول للدكتور : إنك شلحت الحصان كما شلحك الوفد .

خطيباً مغذياً يحفز الهمم ، ويبعث الحماس ، ويثير الشعور . فإذا بالمترددين على عيادته لا يجدونه لانشغاله عنهم فى ساحة الجهاد الوطنى ، والذين يسألون عنه من منازلهم لا يجدونه لاشتغاله ليلا بالكتابة فى الصحف ـ وبنوع خاص ـ جريدة الأهرام ، يغذى القلوب بيراعه كاتباً ، فإذا أحرجه أحد من ذوى المرضى وذكره بأنه طبيب العائلة الخاص ، وأن الوالد والوالدة قد اعتادا طبه لأنه أعرف بتاريخ الأسرة متتبع لما هو متداول وموروث فيها من أمراض استعان بطبيب آخر يدلى إليه بتاريخ العائلة ، ويكلفه بأن ينوب عنه فى عيادة المريض ، متنازلا له عن أجر هذه الزيارة » .

يهيء لك هـواراً كريماً وابن هواره
فان الحـظ جـوال وأن الأرض دواره

* هذه دعابة من دعابات المغفور له شوقى أمير الشعراء صاغها لمناسبة عزل الدكتور محجوب لجواده مكسوينى حين اقتنى سيارة فاخرة من ماركة أوفرلاند (Overland) . ثم حدث بعد ذلك أن انطلق الجواد مكسوينى من (الاسطبل) فى البغالة وأخذ يعدو ولم يستطع أحد الوقوف فى وجهه حتى صعد فوق تلال زينهم فكان أن سقط فى حفرة عميقة فدق عنقه . وقد اتخذ أصدقاء الدكتور محجوب من هذا الحادث مادة للدعابة فقالوا إن مكسوينى قد عزت عليه نفسه فانتحر . . . والحقيقة أنه نفق ضحية الهوى إذ كان يقصد انثى من نوعه فى خيل تملكها امرأة صاحبة عربات وكانت مرابطها فوق تل (زينهم) . . . وكان الدكتور يقول إن حصانه العزيز قد انتحر بسبب العشق بعد أن برح به الشوق والهيام بصاحبته ومعشوقته الفرس التى كانت تملكها « ربة اسطبل حى زينهم » .

ويسترسل المرحوم « داود بركات » فى حديثه معى فيقول : « إنه كان يخاطب الطبيب الذى ينتدبه تليفونيا فيسرد له حالة المريض فى الأيام السابقة حتى ليحتسب الطبيب المنتدب نفسه فى وضع من يتلقى درساً بل دروساً فى الطب » . وختم المرحوم داود بركات كلامه « بأن الدكتور محجوب خسر مرضاه والمترددين على عيادته فى سبيل الحركة الوطنية ، وها هو يعانى العسر المادى بعد أن كان ملىء الجيب موفور الرصيد فى البنك » .

هذا حديث المرحوم « داود بركات » رواه لنا منذ سبعة عشر عاما ، ساعة أن كان الدكتور محجوب يعانى محنة الفاقة وبلاء الدين ، والعجز عن أداء المكرمات لمتطلبى عونه وملتمسى رفده من العمال الفقراء وهو المحجوز على عيادته .

محجوب ثابت ومستر جريفز

فماذا ترجو أن يكون بين الدكتور محجوب ثابت وبين مستر جريفز الذى يبسط أمامه — وهو الغريم المعسر — صفحة من الأمل ، بل فسحة من الغنى واليسار ؟

فى سنة ١٩٣٠ كان مستر جريفز مديراً لمكتب العمل فى مصر ، دعا إليه الدكتور محجوب ثابت ، فلما اجتمعا قال له مستر جريفز : « نريد أن نتكلم فى شئون العمال بعد أن تهيأت مصر للنهوض بعمالها إلى مستوى عمال الأمم الأخرى » .

ودار الحديث بينهما حول محور معين أدرك منه الدكتور محجوب إلى

أى هدف يرمى إليه مستر جريفز وإلى أية غاية يهدف ، يريد أن يتخذ من الدكتور محجوب آلة يستغلها فى تجنيد العمال لتأييد الحكومة ، ظاهراً ، ولمصلحة السياسة الانجليزية فى الحقيقة ، واستغلال الدكتور محجوب نفسه . وكان الدكتور محجوب وقتئذ هو الزعيم الحقيقى المصلح المخلص للعمال فى مصر .

ولهذه الرواية مصدر آخر ممن يعتد برواياتهم وهو موظف مصرى كبير عمل ثلاثين عاما مع المستشارين الانجليز فى الحكومة المصرية فى عهد الاشراف الأجنبى ، يصف هذا الموظف الكبير موقف الدكتور محجوب ثابت مع مستر جريفز بأنه كان رائعاً فى رده ، وكان مثال الإباء والوطنية والاعتزاز بالكرامة وأمانة الوكيل حيال موكليه . ولا يزال هذا الموظف محل احترام كبار الإنجليز الذين تركوا خدمة الحكومة المصرية لأنه كان يحترم نفسه ووطنيته معهم فقد كان يؤدى واجب عمله بالنزاهة والأمانة مضافاً إليها المقدرة ، وهو يصح أن يكون قدوة يقتدى بها .

كان مستر جريفز يعلم حق العلم أن الدكتور محجوب ثابت فى حالة مادية سيئة ، وأن رصيده فى البنك قد تلاشى ، وأن عيادته لا تكاد تفى بنفقاته ، وأن قسم الإيجارات بالأوقاف ظل يرسل إليه الإنذار تلو الإنذار . . . فرآها مستر جريفز فرصة سانحة لاستغلال ضائقة الدكتور ومساومته ، فذكر له مستر جريفز (عارضاً مغرياً) بأنه على تمام الاستعداد لقضاء ديونه وإعطائه إعانة دائمة مع تعيينه فى منصب حكومى ، على أن يظل حراً غير مقيد بقيود الوظيفة ،

منصب يبيح للحكومة أن تحوّل إلى عيادته من يمرض من عمال الحكومة وموظفيها (كذا) ! وهذا سيدر على الدكتور محجوب المال الوفير والخير الغزير ...

ظل الدكتور محجوب يستمع لعبارات المساومة والإغراء يلقيها بين يديه مستر جريفز فى سخاء ورخاء والدكتور محجوب ينظر إليه فى صمت تغالبه ابتسامة لها معناها ، ولا تنفك أنامله تعبث بلحيته . حتى أتى مستر جريفز على آخر حديثه ، فرد الدكتور بقوله : « سمنى وكيلا أو نقيباً أو مرشداً أو معلماً أو محامياً للعمال ، المهم إننى أصبحت موضع ثقتهم . وأمانة الوكيل تقضى عليه أن يعمل لمصلحة موكليه ، وإلا كان غير أمين ولا نزيه ، بل يكون ميت الضمير . فيا مستر جريفز أنا أطلب سن تشريع للعمال يحميهم من الشركات وأصحاب رؤوس الأموال ، تشريع يكفل لهم المعاش بعد أن تتقدم بهم السن ، تشريع يقضى بتعويض العامل إذا ما أصيب بعاهة أثناء العمل ، تشريع يلزم أصحاب الأعمال بأن يصرفوا للعامل لباساً خاصاً (العفريتة)[1] فيه وقاية لهم من خطر الآلات . تشريع يحتم على أصحاب المعامل والشركات التكفل بمعالجة المريض من العمال . هذا هو الذى أطلبه لمن نصبونى عليهم زعيما وعنهم مدافعاً . أما ما تعرضه علىّ من معاونة ، فإنى فى غنى عنها . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإن هذه المعاونة لا يصح أن تجىء على حساب « العمال » . ومع ذلك فإن الذى لا تنفذونه اليوم من المطالب الحقة ، فى سبيله

(١) البدلة ذات القطعة الواحدة التى يلبسها العمال .

سأقف منكم موقف المقاوم المطالب بالوسائل المشروعة فى دائرة القانون وإنى سأخاصم الجهة التى أطلب منها حقوق العمال عند تمنعها عن تنفيذ طلباتى العادلة ، وإذاً ليس من الأمانة يامستر جريفز أن يقبل مثلى أية معاونة تجىء من الحكومة فى أية صورة من الصور وبأية طريقة من الطرق ، على أنى أستطيع أن أقول إن الحكومة مهما تلكأت أو أهملت ، فإنها حتما ستنفذ هذه المطالب عاجلاً أو آجلا » .

وإلى هنا تنتهى المحادثة ويستأذن الدكتور محجوب فى الانصراف مرفوع الهامة متغنياً بقول الجرجانى :

وما زلت منحازاً بعرضى جانباً ... عن الذل أعتد الصيانة مغنما
إذا قيل هذا منهل ، قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
وإنى إذا ما فاتنى الأمر لم أبت ... أقلب فكرى إثره متندما
ولكنه إن جاء عفواً قبلته ... وإن مال لم أتبعه هلا وليتما
وأقبض خطوى عن أمور كثيرة ... إذا لم أنلها وافر العرض مكرما
وأكرم وجهى أن أضاحك عابساً ... وأن أتلقى بالمديح مذمما
وكم طالب رقى بنعماه لم يصل ... إليه ولو كان الرئيس المعظما
وكم نعمة كانت على الحر نقمة ... وكم مغنم يعتده الحر مغرما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه حنظلا ؟ ... إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

ثم يأخذ سبيله هابطاً من (سلم الوزارة) مسترسلا فى تغنيه بنغمته الخاصة حين يتمثل بالشعر الرصين الذى يصور عزة النفس وكرامة العلم فيردد قول أبى الحسن الجرجانى :

على مهجتى تجنى الحوادث والدهر فأما اصطبارى فهو ممتنع وعر
كأنى ألاقى كل يوم ينوبنى بذنب وما ذنبي سوى أننى حر
فإن لم يكن عند الزمان سوى الذى أضيق به ذرعاً فعندى له الصبر
وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى وما علموا أن الخضوع هو الفقر
إذا قيل : هذا اليسر أبصرت دونه مواقف خير من وقوفى بها العسر
وبينى وبين المال بابان حرما على الغنى ، نفسى الأبية والدهر
إذا قدموا بالوفر قدمت قبلهم بنفس فقير كل أخلاقه وفر

وأخيراً يقول : « لن ألوث هذه اليد بمال حكومى غير مشروع » .

وما أن يصل إلى بيته حتى تتراءى له المناسبة التى يراها للرد العملى على مستر جريفز ، وهى وجود (مستر بتلر) مندوب مكتب العمل الدولى فى زيارة مصر قادماً من جنيف (وقد أعد له العمال حفلة تكريم فى دار سينما « الكوزمو » لم تشهد مصر لها مثيلا من قبل فى إبراز قوة العمال المصريين) .

طلب الدكتور محجوب سكرتيره الخاص ، وأخذ يملى عليه خطاباً بالإنجليزية يدعو فيه مستر جريفز وأحد كبار الموظفين المصريين لحضور حفلة للعمال لتكريم « مستر بتلر » . . . فلبى مستر جريفز الدعوة ومعه ذلك المصرى الكبير الذى يشغل الآن فى الحكومة المصرية مركزه الممتاز (وهو مصدر هذه الرواية وهذه المعلومات التى كنت أعرفها من قبل) .

وبعد خروج مستر جريفز من الاحتفال ، إذا به يقول لذلك الموظف الكبير : « لم أر فى مصر رجلا قابضاً على مقود الزعامة

وهو محل الإجلال والثقة من الجماعة التى يتزعمها مثل الدكتور محجوب »

فما أعجب هذا الخلق الإنجليزى ! فهؤلاء الانجليز قد يحتضنون من يتساهل فى حقوق بلاده لحسابهم ويكافئونه ويملأون يده ، ولكنهم فى نفس الوقت يحتقرونه ، وإلى جانب هذا فهم يحترمون المخلص لبلاده ويجلونه ، ولو أنهم يحاربونه ، مع توقيرهم له واحترامهم لوطنيته والاعجاب به فى داخل نفوسهم .

وعقب انتهاء الحفلة قال مستر جريفز لمرافقه - المصرى الكبير - مرة أخرى : إنى أجل هذا الرجل — الدكتور محجوب — إنه من القلائل فى هذا البلد الذين يعفون فى أوقات ضيقهم المادى .

* * *

هذا هو الدكتور محجوب ثابت ، الوطنى للوطنية ، والوكيل الأمين للأمانة ، والنزيه العيوف للنزاهة . . . وتلك صفحته الناصعة فى الزهد والقناعة فى أشد أيام الضيق .

لقد حاول بعض رجال السياسة تسميم أفكار العمال ، فى الوقت الذى كان فيه الدكتور محجوب يرفض بشمم وإباء واحتجاج مهذب لطيف ، ذلك العرض السخى وهو يعانى الضيق والمعسرة .

اعتصم بأمانته للعمال ، وصان كيانهم ، وجنبهم أعاصير السياسة ، حتى غادر الدنيا إلى جوار ربه وفى مصر نقابة (١) قوية الدعائم ، لها رصيد من المال يبلغ ستة آلاف من الجنيهات ، هى النقابة التى مات محجوب ثابت وهو رئيس لها تعتز بذكراه وتحفظ له الجميل .

---

(١) نقابة عمال القطر المصرى وشركتها التعاونية ومستوصفها الخيرى ووكيلها الدائم منذ ٢٥ عاما هو الأستاذ على حسن فرحات .

الدكتور محجوب ثابت

المصلح الجامعى

هو المجـاهد الباذل النفيسين « النفس والمال » العالم الجامعى ، الأستاذ الموجه ، المربى الاجتماعى ، الأب الشفوق ، الوالد المصرى ، الكريم الأريحى ، المحلل النفسى ، المدرب العسكرى ، الباذل الجهد والوقت فى سبيل الوطن ، ثم مطعم الطعام فى سخاء الأجاويد .

* * *

كانت عاطفة وفاء من اسماعيل صدقى باشا ـ الذى يعرف وطنية محجوب ثابت من عهد صديقه المغفور له مصطفى كامل باشا (١) مؤسس الحزب الوطنى ـ أن عين الدكتور محجوباً طبيباً لجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٠

ولقد كان التوفيق الإلهى رائده ، وكان من حسن حظ مصر والجامعة المصرية أن كان مراد سيد احمد باشا (٢) وزيراً للمعارف فى ذلك الوقت ، وهو الذى اقترح على اسماعيل صدقى باشا تعيين الدكتور محجوب طبيباً لجامعة فؤاد الأول ، فوافق صدقى باشا على هذا الاقتراح

---

(١) ويحسن أن نذكر أن صدقى ومصطفى كامل كانا صديقين فى الوطنية

(٢) كان مراد سيد أحمد زميلا للدكتور محجوب فى الدراسة بمصر وبجامعات سويسرا ويعرف لمحجوب قدره فى الوطنية ومكانته العلمية .

فى ترحيب ملؤه الرضا والسرور ، ثم اتصل مراد سيد احمد باشا بالمرحوم داود بركات بك رئيس تحرير الأهرام وقتئذ ـ وهو صديق محجوب الحميم ـ وكشف له عما انتوى عمله للدكتور محجوب . وتناولت المحادثة موضوع المرتب فرآه داود بركات من التواضع بحيث لا يوازى قدر محجوب العالم الكبير ، والمجاهد الوطنى ومكانته العلمية . فلما أن ذكر مراد باشا أن هذا المرتب هو المحدد فى ميزانية الجامعة عن تلك السنة ، وأن المسألة مؤقتة ولا بد لها من تعديل مرضٍ فى أقرب فرصة ، اقتنع داود بركات بوجهة نظر مراد باشا ، وكل هذه المباحثة كانت فى غيبة الدكتور محجوباً ، وعلى غير علم منه .

فلما أن أبلغ المرحوم داود بركات صاحبه محجوباً بالأمر ، وجد منه إعراضاً وتعففاً ، ولكن داوداً كان يلمس دقة الموقف ويدرك اتجاه المرمى ، فرأى أن يضع الدكتور محجوباً أمام الأمر الواقع ، ففاجأه بإذاعة خبر تعيينه طبيباً للجامعة بجريدة الأهرام قبل موافقته النهائية .

وكانت بين داود بركات وبين محجوب فى مساء ذلك اليوم مناقشة حادة (بين الصديقين الحميمين) فاستطاع فيها داود بركات أن يقنع الدكتور محجوباً بأنها الفرصة التى تهيأت له لأداء رسالته التى يعمر بها قلبه وينادى بمبادئها السامية فوجوده فى الجامعة هو السبيل لأداء رسالته .

ثم قال له داود بركات : هذه هى الفرصة الثمينة التى بواسطتها تتصل الاتصال المباشر بزهرة شباب الوطن وهم طلاب الجامعة فتبث فيهم الوطنية وتغرس فى نفوسهم تلك المبادىء الرفيعة التى طالما ناديت

بها كتابة فى الصحف وخطابة على أعواد المنابر وحديثاً مروياً قوياً فى المنتديات العامة . . . ولتكن مفاداة من محجوب الذى مرن على التضحيات وتعشق الأداء السخى فى سبيل أمته .

وعندئذ هدأت غضبة الدكتور محجوب ، فأغمض عينيه ثم فتحهما مبتسما ابتسامة الرضا والقبول ، وقبض على راحة داود بركات وهزها هزاً فيه معنى الموافقة ، وقد كانت كما رغب داود بركات إذ أدى محجوب رسالته على الوجه الأكمل كما سيجىء .

ولقد كان قبوله — رحمه الله — لهذا المنصب بمرتبه الضئيل موضع تساؤل وعجب عند الذين يعرفون لمحجوب تاريخه الوطنى وماضيه فى الجهاد الخالص البرىء . . . ولكنهم قد أكبروا فيه هذه التضحية التى ارتضاها لأنها سبيله إلى إنشاء جيل جديد من شباب الوطن فى أرجاء الجامعة وساحاتها الفيحاء (١) .

٭ ٭ ٭

فلما عين محجوب ثابت طبيباً للجامعة — وكبيراً لأطبائها — لم يقتصر على تأدية مهام وظيفته كما ينبغى ، وفوق ما ينبغى ، فقد أرضى الله وأرضى الوطنية ، وأدى الأمانة أوفى أداء .

٭ ٭ ٭

(١) وما هى إلا بضعة من الأشهر حتى وفى صدقى باشا بما اعتزم فى نفسه لمحجوب فأضاف اليه منصب مستشار مكتب العمل ثم أراد ترشيحه لمجلس النواب عن دائرة بولاق لولا أنه تنحى لأسباب لا محل لذكرها هنا الآن . وقد ذكرنا رأى الدكتور محجوب فى صدقى باشا فى « الفصل » (بين محجوب ومحمد محمود باشا)

لقد حمل محجوب ثابت فى الجامعة لواء الوطنية عالياً خفاقاً فإذا بطبيب الجامعة ، يصبح مدرساً للوطنية فيها يؤدى رسالته قولا وعملا.

لم يكن محجوب يؤدى وظيفة كبير أطباء الجامعة فحسب ، بل كان ينتهز فرصة توقيعه الكشف الطبي على الطلاب ، فيوجه إلى الطالب « أسئلة العالم النفسى المخلص » ويظل يناقش الطالب ويستمع إليه ويغمز مفاصله[1] دون أن يشعر الطالب أنه يتفهم عقليته ومدى استعداده ومبلغ ذكائه الذهنى وكل ذلك فى موقف الكشف الطبي .

فكان محجوب من هذه الناحية نعم الأب ونعم الموجه ونعم الوطنى المصرى البعيد النظر الثاقب الفكر القوى الفراسة ، المخلص لأمته الاخلاص الذى ليس بعده إخلاص .

من قبيل إعطاء الفكرة لا الحصر

أذكر أن الكثيرين من الطلاب الذين تقدموا للكشف الطبي للالتحاق مثلا بكلية الزراعة ، كان الدكتور ينصحهم بالالتحاق بكلية الطب لأن استعدادهم للزراعة ضئيل ، فكم من طالب كاد يلتحق بكلية الطب فإذا بالدكتور محجوب يوجهه إلى الكلية الحربية أو البوليس ، وكان إذا قامت فى سبيل الطالب عقبة ذللها وأزالها .

جاء إليه الطالب عبد المنعم أفندى السيد رشوان سنة ١٩٣٦ للكشف الطبي عليه توطئة للالتحاق بكلية التجارة ، فقال له الدكتور محجوب : « لماذا تريد الالتحاق بكليـــة التجارة يابنى ؟ أنت رائع

---

(١) كما يقول الشاعر :

وإن تغمز مفاصلنا تجدها غلاظا فى أنامل من يصول

العضلات وتظهر على وجهك آيات الشجاعة ، أنت قوى النظر ، شديد البنية ، لماذا لاتلتحق بالكلية الحربية لتنفع الوطن ويفيد منك الجيش وتساهم فى رفع مستواه . يابنى اسمع نصيحتى ! سيكون لك مستقبل عظيم فى الجيش المصرى وارث مجد الفراعنة وعظمة العرب ... يابنى لن تنجح تاجراً ، إنما ستفيد أمتك جندياً ، ومثلك قمين أن يكون القدوة الحسنة فى الجيش » .. فإذا بالطالب يقول : « إنى أرغب فى الالتحاق بالجيش وأنا كما تقول يا دكتور أحب الجيش من صميم قلبى . ولكن الكلية قد استوفت وليس بها مكان » فصاح الدكتور محجوب صيحة مبتهج كأنه ظفر بشىء ثمين : « سأوجد لك مكانا ، سأخرج من الكلية الحربية غير الجدير بها وألحقه بالكلية التى تلائمه عقلاً ، واستعداداً . أنت يابنى أولى من غيرك أن تنتظم فى سلك جيشنا .. هيا يا بنى » . . وقد كان .. فلم يهدأ لمحجوب الوطنى بال إلا بعد أن ألحق الطالب عبد المنعم السيد رشوان بالكلية الحربية ، وعبد المنعم هذا هو الآن ضابط فى سلاح المدفعية بالكتيبة الجوية .

وهناك ضابط من طيارينا البواسل وهو الطيار الأول « محمد الدمرداش » الذى أخرجه الدكتور من معهد التربية وحول اتجاهه إلى سلاح الطيران فكان فيه من البارزين لأن الدكتور محجوباً كشف فيه هذا الاستعداد الملائم للطيران دون معهد التربية .

هذا قليل من كثير من جهاد محجوب ثابت فى توجيهه الشباب وقد حدثنى الضابط المدفعى عبد المنعم السيد رشوان فقال : « إنه لما علم الطلاب

بما عمله الدكتور محجوب معى ومع غيرى كانوا إذا صادفتهم عقبة فى طريق التحاقهم بالكليات الجامعية التى تتفق مع استعدادهم يلجأون إلى الدكتور محجوب حصنهم الحصين[1] ، وحينئذ كنت ترى محجوباً يدأب على الاتصال بأصحاب الشأن ولا يهدأ له بال إلا إذا انتظم الطالب فى الكلية التى تلائم طبيعته واستعداده ، فيعود قرير العين ، وكثيراً ما كان يزأر زئير الأسد فى وجه أى موظف يصعّب السهل من الأمور ليتظاهر بأنه يستطيع أن يحل أو يربط ، وهذا مرض اجتماعى فى بلادنا يجب أن نعالجه ، ولو بطرد المرضى من عداد موظفى الحكومة ، على اعتبار أنهم ليسوا سادة للشعب بل خدامه ، فمن لا يريد أن يفهم ذلك يجب أن يستأصل استئصالا وذلك لأن بعض الموظفين فى وزارة المعارف وفى المصالح والوزارات الأخرى يصعبون السهل من الأمور ليفخروا بتلقى الشفاعات والوساطات ، فكان الدكتور محجوب يصرخ فى وجه هذا النوع الرخيص من الناس ، وقد كان فى مثل هذه المواقف نعم الوطنى ونعم الموجه ونعم الثائر للحق والاصلاح » ثم قال : « كم من طالب انقطع عن مواصلة الدراسة أو عن التقدم للامتحان لعجزه عن دفع ما يطلب منه من رسوم لفقره أو ضيق ذات اليد عند أهله . وحينئذ كان محجوب — إذا لم يكن ملء الجيب — يتصل اتصالاً

(١) على أنى كنت أعلم هذه الحقائق قبل أن يذكرها لى الضابط عبد المنعم السيد رشوان وغيره.

مباشراً بمن بيدهم الأمر ، فلا يهدأ باله حتى يعفى الطالب ما يطلب منه ، فيستأنف دراسته مطمئناً . ولطالما غيّر محجوب مجرى دراسة كثير من الطلاب فنجحوا فى العملية والعلمية .

أريحية

كان الدكتور محجوب قد افتقد أحد الطلاب الأذكياء استئناف الدراسة . فلما قيل له إن الطالب انقطع عن ا لعجزه عن دفع القسط المطلوب منه لأن والدته فى عسر للطالب قريباً من الوزراء اعتصمت الوالدة بعزة نفسها عز إليه أو اظهاره على ضيقها . هزته روعة الإعجاب بإباء وشممها وأخذت الدكتور الأريحية فأشفق على مستقبل هذا الأبية والدته ، وأخذ يترنم ، على لسانها ، بقول الشاعر :

أعف لدى عسرى وأبدى تجملا
ولا خير فيمن لايعف لدى العسر
وانى لأستحي إذا كنت معسراً
(صديق) واخوانى بأن يعلموا فقرى
واقطع اخوانى وما حال[1] عهدهم
حياءً وإعراضاً وما بىَ من كبر

ثم قال : « إنى أعرف نفسيات العناصر الكريمة الطي تنزل بهم النوازل ويتعرضون للعسر المادى وهم الكرماء

---

(١) حال : أى تغير .

يعفون ويتجملون فى أيام العسر ، وضيق ذات اليد ، وهؤلاء يجب أن يجدوا من أمثالهم العنصر الطيب من الناس من يأخذ بأيديهم ويتحايل على اقالة عثراتهم مع حفظ ماء وجوههم » .

فما كانت أعظم فرحة الطالب حين تلقى البشرى من الدكتور محجوب بدفع القسط وبقرار الجامعة بإعفائه من المصاريف حتى يتخرج . فما أنبل مشاعر الدكتور محجوب وما أبعد نظره ، ولا عجب ، فهو المحلل النفسى والطبيب الشرعى حقاً .

لم يكن الدكتور محجوب يؤدى مهمة الطبيب الذى يوقع الكشف الطبى على الطلاب ليقرر قبولهم بالجامعة أو عدمه ، بل كان فى نفس الوقت ، يعالج المريض منهم . وإذا وجد أحدهم من المعوزين ، كان يعاونه مادياً ، ويسر إليه فى أذنه بأن يتناول الأغذية الرخيصة الثمن المفيدة للصحة ، والمقوية للجسم (كالفول والعدس والطماطم والكبد المشوى . . . وهكذا) الخ .

كان محجوب ثابت للطلاب الطبيب المعالج والأب الشفوق والمعلم المخلص فى تلقينه وإيحائه وتوجيههم إلى مايفيدهم ليفيد منهم الوطن .

منشىء التدريب العسكرى

ظل الدكتور محجوب يدعو إلى تدريب الطلاب تدريباً عسكرياً سنين عديدة ، ولم يهدأ له قلب حتى أجيبت دعوته ، ونفذت فكرته ، وأصبح ضابط اتصال بين المدربين العسكريين للضباط الاحتياطيين

الجامعيين ، وبين الجيش ، فوق وظيفته . وظل يرعى حركة التدريب ويفخر بها وبالطلاب الجامعيين إلى يوم وفاته . وكان مثله مثل الوالد الشيخ الذى أنجب أبناء فبارك الله فيهم ووفّقهم وأقرّ بهم عين والدهم . كان ذلك شعور محجوب حيال حركة التدريب العسكرى .

حدثنى أحد طلاب الجامعة أن ستين فى المائة (٦٠ ٪) من طلبتها انضموا إلى التدريب العسكرى تلبية لدعوة الدكتور محجوب ودعايته وتشجيعه ، وكثيراً ما كان يوحى إلى الطلاب الموسرين بإقامة الحفلات للترفيه عن المعسرين من زملائهم دون أن يشعروا حتى يحفظ عليهم ماء وجوههم .

موجد الوحدات العلاجية

وللدكتور محجوب الفضل فى إنشاء الوحدات العلاجية التى عادت على الطلبة بجم الفوائد ، هذه الوحدات التى كانت دائماً على أهبة واستعداد لمعالجة الطلاب من مختلف الأمراض ، يشرف عليها جهابذة رجال الطب وأقطابه . ونحيل القارىء إلى تقارير إدارة الجامعة عن الفوائد التى حصل عليها الطلاب وجنتها البلاد من سلامة أجسام شباب الجامعة ، شباب اليوم ورجال الغد .

الممتحن الجامعى

الكلام على الدكتور محجوب فى هذه الناحية يطول شرحه وتفصيله فيحسن إيجازه . كنت تراه وهو يمتحن طالب « علم النفس

الجنائى ، فى موضوع من الطب الشرعى مثال العالم الوالد الذى يتحدث مع ولده ، فكان امتحانه الشفوى فى الواقع مناقشة رسالة صغيرة ، وهذه بغير شك هى الروح الجامعى الحق ، وهى الطريق المجدية لتلقين العلم على غير طريقة من يمتحنون لتعجيز من يمتحنونه .

المناظرات الجامعية

لما أقيمت مناظرة فى ردهة الاحتفالات الكبرى بجامعة فؤاد الأول كانت المناظرة تبحث فى : هل الأفضل أن يتعلم طلبة الجامعة التعاليم العسكرية أم لا ضرورة لها ؟ وبعد الانتهاء من المناظرة والتصويت لأحد الرأيين ، رأى الدكتور محجوب أن كفة الجامعيين ضد الفكرة العسكرية بنسبة (٥٥٪) فثار فى حماس وغضب ونهض فى الحاضرين خطيباً شارحاً لهم المزايا العسكرية فى الأمم وشدة حاجة مصر إلى المتدربين تدريباً عسكرياً من المثقفين ، فسرعان ما تجلى الرجحان فى كفة المؤيدين لفكرة التدريب العسكرى . . . وعندئذ تهلل وجه الدكتور محجوب بشراً وسروراً ، وكان مثله كالقائد الذى عاد من ساحات القتال بعد أن أدى واجبه كاملًا . هذا هو محجوب العالم وراعى الجندية والداعى إلى إشاعتها فى كل قلب وعند كل طبقة فى الأمة وإنه لمن الخالدين .

المعلم المربى

لم يكن نشاط الدكتور محجوب مقصوراً على العناية بالطلاب « داخل الجامعة » بل كان يرافق الطلبة إلى زيارة المستشفيات والسجون والإصلاحيات

ويشرح لهم خلال استجوابه المحبوسين والسجناء ، الحالات المتباينة من طبائع المجرمين مفرقاً لهم بين حالة المجرم الذى ارتكب الجريمة اضطراراً ، والذى ارتكبها عن طبع فيه ، وكان حينما يشرح لهم هذه الحالات المختلفة ، كأنما يقرأ لهم فى موسوعة علمية أو كتاب مفتوح .

وإذ أكتب عن الدكتور محجوب صاحب المواقف الوطنية العديدة أقول : إن للدكتور محجوب نواحى متعددة جديرة بالاهتمام والدراسة ليتخذ قدوة ، وكم أود أن يعلم الناس أنى أوجز حتى لا أمل ، ولا أجد غضاضة أن أقول : إنى إذ أضع هذا الكتاب ، أرى أنى أجتاز صعاباً وعرة من صعاب الحياة ونضوب الاقتدار المادى وافتقاد المعين .

العالم اللغوى

يطول الكلام على الدكتور من نواحيه الكثيرة الجوانب ، الغزيرة بالمواد اللغوية ومتونها وغريبها .

* * *

أخبرنا الأستاذ حسن السندوبى [1] وهو من الأدباء النابهين قال : «كان الدكتور محجوب ثابت عضواً فى لجنة الاصطلاحات الطبية بمجمع فؤاد الأول للغة العربية سنة ١٩٣٤ ، فأراد أحد الأعضاء ـ وقد كان سمجاً ـ أن يتندر فى أول جلسة على الدكتور ، لزعمه أنه إنما اختير لأنه الدكتور « محجوب ثابت » الصديق والزميل للزعماء لا لقدره العلمى وما يتعلق بفنه واللغة العربية ، فأغضى[2] الدكتور عما قصد إليه ذلك العضو ، وانبرى يتدفق من علمه بفيض غزير ، ومعلومات خصبة واسعة ، وملاحظات دقيقة ، فيما يربط اللغة العربية بعلم الطب ومتفرعاته ومصطلحاته ، حتى بهر الأعضاء ، وهم من الجهابذة الأعلام ، فصاروا أمامه كتلاميذ يتلقون ما يفيدهم من علم أستاذهم

---

(١) وكان إذ ذاك أميناً لمجمع اللغة العربية .

(٢) كان الدكتور يقبل التندر والدعابة من الأنداد الظرفاء بصدر رحب ويبادلهم تندراً بتندر ، ودعابة بدعابة . أما إذا بادره أحد الثقلاء المتظرفين بالتندر وابتدره بالدعابة ، فكان يغضى عنه ، وكان عضو اللجنة من هذا النوع الثقيل

المخلص فى تلقينه ، ومن تلك الساعة انتهى إليه زمام قيادة اللجنة . . والقبض على ناصيتها ، متجهاً بها نحو الغاية المرجوة ، وإذا هو بعد ذلك هدف النظرات المأخوذة إعجاباً به ، تسترق التطلع إليه فى رهبة وإكبار وإجلال » .

القضاء والفصل بين قطبين فى مساجلة لغوية

كان العلامة محمد مسعود بك من مشاهير رجال اللغة فى مصر ، بل فى العالم العربى كله . وكان نابه الذكر ، عالىَ المكانة ، قوى المعارضة ، شديد المراس ، مرهوب الجانب ، وله بحوث لغوية كونت مادة دسمة تداولتها الصحف والمجلات العلمية الكبرى ، ثم تناولتها المجتمعات والأندية الأدبية ، فاقتبس منها كثير من علمائنا وأدبائنا . وكان لشيخ العروبة « أحمد زكى باشا » نفس هذه المنزلة العالية التى كانت لمحمد مسعود بك ، وكان له نِداً وصِنواً وقريعاً .

كان هذا فى الوقت الذى كان فيه الدكتور محجوب ثابت يملأ سمع الدنيا بمواقفه الوطنية وخطبه السياسية ، وبحوثه الاجتماعية ، ومشروعاته ، واقتراحاته الإصلاحية ، ونقداته التى كان يوجه بها الرأى العام ، ثم يوجه إلى تنفيذها ولاة الأمر فى الدولة .

وربما كان الناس يعلمون عن الدكتور محجوب أنه الطبيب النطاسىّ ، والخطيب السياسى البارع ، والوطنى المجاهد . وربما كان القليل من غير خلاصة الخاصة هم الذين يعرفون ناحية أخرى للدكتور له فيها قدم راسخة وأعنى بها تضلعه فى اللغة ، وفقهها ومتنها ،

واختلاف لهجاتها ، واطلاع واسع على فصيحها وعامها .

فإذا بالمساجلة التى حدثت بين القطبين اللغويين تكشف للناس جميعاً أن الدكتور محجوباً حجة فى اللغة ومن أبطالها وفرسانها . وذلك أن محمد مسعود بك نشر بحثاً لغوياً ، فجاء فيه بكلمة « السباهى » فى لهجة المغاربة الدارجة — أوردها محمد مسعود بك على غير المعنى المقصود — وبطبيعة الحال كان موقف مسعود موقف العالم المجتهد الذى قد يخطىء قليلا ويصيب كثيراً « هفوة العالم وكبوة الجواد » . فإذا بالدكتور محجوب يدخل فى المعمعة مناظراً ومساجلا ثم حكماً وفيصلا . وكان ميدان المساجلة هو كبرى الجرائد، والأندية الأدبية ميادين فرعية لها . فإذا بالدكتور فارس الميدانين المنتصر المجلى المشار إليه بالبنان وهدف نظرات المحبين والحاسدين .

يشار إليه فى النادى ويرمى بعينىّ مَن أحب ومن تعامى

لقد أثبت الدكتور صحة نسب كلمة « السباهى » وحقيقتها ، ثم أصلها العربى الذى اشتقها منه الفرنسيون ، وهى « الإصباحى » وأطلقوها على فرقة من المجندين أو الجنود التونسيين أو الجزائريين .

أخيراً انتهت المناظرة بأن جاء محمد مسعود بك لدى الدكتور زائراً وشاكراً وألقى سلاحه ، معلناً أن النصر حليف الدكتور . . فإذا بالدكتور يكشف بسعة علمه ومعلوماته وتفوقه فى التاريخ ، تاريخ المغرب والعوامل الاستعمارية التى عبثت بلغة العرب فألقت عليها رداء قاتماً مشوهاً من اللهجة الأجنبية الدخيلة . . .

ومن المعلوم أن محجوباً كان يدأب على إزالة الصدأ عن الألفاظ

العربية الجميلة من الألفاظ الأجنبية الدخيلة «وقبح الله كل دخيل» ويبعد العبارات المشوهة الغريبة. ثم كان يزيل ما تراكم على الألفاظ العربية الكريمة من التحريف والأخطاء ، فكم من كلمات عربية وتعبيرات قوية كانت مطمورة كشف عن كنوزها ، ولطالما أحيا ألفاظاً عربية غضة كانت مدفونة مهملة فى زوايا النسيان وفى بطون الكتب ، فأشاعها وبيّن جمالها كتابة وتلقيناً فى أحاديثه ومسامراته .

ورحم الله شيخ العروبة أحمد زكى باشا ، فقد التقى بالدكتور عقب هذه المناظرة وبادره قائلا : «يامحجوب ياأخى وأستاذى لأنت الجدير بشياخة العروبة ، لأنك فارس لغة العرب والمؤرخ الثّبْت ، أنت أولى بها منى وأحق . أقول ذلك مخلصاً ومنصفاً» . فأجابه الدكتور : «لست والله بالطامع ولا بالمتطاول على سلطانك ، لأنك أنت حقاً وصدقاً شيخها وماجدها وركنها وفارسها المغوار» . فالتفت أحمد زكى باشا متأثراً إلى من كان حوله وقال : «أشهدكم أننى إن كان لى أن أبايع أحداً بشياخة العروبة وأمارة الأدب العربى وسلطنة التاريخ ، فلأخى ، بل مرشدى محجوب ، هذه البيعة فهو ابن سينا عقلا وعلماً ولغة وفلسفة وطباً وأدباً . ومن الإنصاف أن أقول لكم يا إخوانى إن محجوباً يدأب على إرشادى وتوجيهى إلى أكثر ما تشهدونه منسوباً إلى ، وإنه ينكر ذاته ويؤثر غيره ، وإن محجوباً من حسنات جيلنا هذا» .

رحم الله زكياً ومسعوداً ومحجوباً ، ورحمنا نحن الذين نعمنا بعشرة تلك الشموس الغاربة والنجوم الآفلة ، نخصهم بالذكر العاطر ، مسجلين

حسناتهم وجهادهم وإخلاصهم ليقتدى بهم رجال المستقبل .

وإذ نتحدث عن الدكتور محجوب العالم اللغوى ، يحسن أن نذكر له لمحة بارقة فى مجلس النواب ، وهى أنه لما اعترضه أحد الزملاء من المتعالمين فى أثناء إلقائه إحدى خطبه البرلمانية فى كلمة أنكر صحتها اللغوية وردت على لسان الدكتور . . ـ طبعاً جهلا من المعترض المتعالم ـ فكانت مساجلة سمعنا فيها صوت الدكتور المتمكن من علمه وهو يقول : « إذا تحدث متحدث عن اللغة فأنا من فرسانها » ، وكان صادقاً فى اعتزازه وثقته بنفسه وعلمه إذ أيده العلماء من النواب .

وكان الدكتور قد فطن إلى أن النائب المعترض أراد أن يفهم الناس بأنه متمكن من اللغة إلى حد أنه نِدٌّ للدكتور ، كان هذا النائب من طراز المتعالمين الذين ينسبون إلى أنفسهم ماليس فيهم من علم وحذق واطلاع .

من أجل ذلك قال له الدكتور ساخراً ضاحكا : « اللغة بحر خضم تغرقك أمواجه وتبتلعك حيتانه ، على إنك إذا حاولت أن تصحح الألفاظ اللغوية لمحجوب فإنك عن اللغة لمحجوب ، فتفضح نفسك وتكشف عن جهلك وتكون أشبه الناس بمن نزل البحر ليبارى السباح الماهر فغرق ، فنصيحتى لك ألا تعود إلى مثلها ، قل : موافقون » . وكانت غمزة .

وحدثنى المواطن الأستاذ « توفيق أحمد البكرى » الكاتب الشاعر المؤلف السودانى الوطنى أنه كان ذات يوم فى مجلس الدكتور ، فأقبل طبيب مصرى يتحدث إلى الدكتور فى خصائص جرثومة من الجراثيم

لولبية ذات «شراشير» — باللغة العامية — وفى النهاية أراد لها تعبيراً عربياً صحيحاً دقيقاً فلم يعثر عليه، فآثر أن يتحدث فى ذلك إلى الدكتور لعله يمده بمعنى من هذه المعانى الدقيقة يصلح لأن يكون وصفاً دقيقاً شاملا لتلك الجرثومة، فأطرق محجوب وأغمض عينيه قليلا وهو يعبث بلحيته، ثم فتحهما وابتسم ورمى برأسه إلى الخلف وقال: «نعم ياسيدى.. نعم إنها تماماً كما يقول الشاعر الجاهلى:

«كهُدَّاب الدمقس المفتل».

وفى الحق أنه المعنى الدقيق الشامل.



الدكتور محجوب

الوطني • السياسي • الكاتب

أنموذج مما دبجه يراعه في السياسة الانجليزية

في السودان

من المهيمن على مياه النيل

بحيرة تسانا وأوغندا منابع النيل الاستوائية
الحرب القطنية بين أمريكا وانجلترا وموقف السودان حيالها

(الأهرام فى ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٨)

— ١ —

تقوم حرب ضروس وتطاحن بين دول العالم الكبرى وأمم شتى يتوالى تأجج نيرانها فى الجبهة الاقتصادية ، ويحول دون الاتفاقات العادلة التى لا تنكر فيها الحقوق الشرعية التاريخية ، كما حاول الانجليز فى كل مشروع لاتفاقيتهم ، وكما ظهر بجلاء فى كل مفاوضاتهم مع زعماء مصر ورؤساء حكوماتها ، ومن بين تلك الحروب الاقتصادية الحرب الكبرى القائمة الآن بين الإنجليز والولايات المتحدة على التحكم العالمى فى الإنتاج القطنى والبترول والكاوتشوك . . .

وليس ما قامت به انجلترا من طرد جيشنا المصرى والضباط السودانيين فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ والاستئثار بمليون ميل مربع تقريباً لجعل السودان مزرعة قطنية لمصانع لنكشير ، إلا ظاهرة من ظواهر هذه الحرب الاقتصادية .

وإليك إحصائية عن محصولات قطن السودان من نوع السكلاريدى لسنة ١٩٢٧ — ١٩٢٨ نقلا عن جريدة حضارة السودان التى تصدر

فى الخرطوم فى أحد أعدادها وهى كالآتى :

فى الجزيرة — ٣١٥,٠٠٠ قنطار إلى ٣٦٠,٠٠٠ قنطار

فى طوكر — ٥٠,٧٩٣ قنطاراً

فى كسلا — ٥٣٠,٠٠٠ قنطار

وفى شمبات والكاملين — ١٤٩٥ قنطاراً

وفى مديريتى بربر والخرطوم — ٥٢٨٢ قنطاراً

فيكون المجموع ٤٢٥,٥٤٠ أو ٤٧٠,٥٤٠ قنطار !!!

وليس ما تتمسك به انجلترا من إنكار حقوق مصر الطبيعية والشرعية فى السودان برفضها تغيير الحالة التى أصبح السودان عليها واعتدائها الصارخ على قلب الوطن المقدس ، إلا تتميا لوضع يدها على السودان بسكوتنا الذى إذا دام ولم تحدث له غِيَرٌ عد الغاصب قبولا للحالة الحاضرة ورضا بالأمر الواقع .

وهاك فى البيان الآتى ما يرفع لك النقاب عن بعض أوجه تلك المعركة القطنية نتقدم به لمواطنينا أبناء وادى النيل الأعزاء .

فى أوائل نوفمبر الماضى حمل البرق إلينا أن حكومة الحبشة فكرت فى أن تعهد إلى شركة أمريكية ببناء خزان على بحيرة تسانا عند خروج النيل الأزرق منها لحجز مياهها وبيعها لمصر والسودان .

وكانت لإذاعة الخبر هزة فى البلاد ، وذعر فى الرأى العام المصرى ولكنه لم يقابل بالاستغراب من الرأى العام الدولى الذى هو بطبيعته ميال للإعجاب بأمثال هذه المشروعات الهيدروليكية (مشروعات الهندسة المائية) وغيرها من المشروعات الاقتصادية

الـكبرى وعلى الخصوص ماكان منها فى البلاد البكر .

ولقد كانت الحبشة فى الواقع هى إحـدى الحـكومات النادرة التى تتمتع باستقلالها الـكلى فى افريقيا ، بل الوحيدة المحاطة بممتلـكات الدول العظمى . ولقد حافظت على استقلالهافى معركة (عدوة) فى وسط تلك الدائرة الاستعمارية ،كما حافظت على كل حريتها السياسية . فقدجرت اتفاقيات دولية أمضيت فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٠٦ بين انجلترا وفرنسا وإيطاليا اعترِف فيها باستقلال الحبشة وبمقتضاها دخلت عصبة الأمم بمساعدة فرنسا التى عقد ممثلها (لاجرد) مع النجاشى (منليك) معاهدة فى سنة ١٨٩٧ ودافع فيها المسيو (هنرى دى جوفنيل) الذىفضل سياسة التعاون الودية على سياسة الفتح والإذلال الاستعمارى ، رغم محاولة انجلترا منعها من الالتحاق بعصبة الأمم ، وحملة اللورد كرزون فى استجواب من الـكونت (بوشان) ورمى حكومتها بالضعف وتساهلها فى تجارة الرقيق وعدم مراعاتها معاهدتى برلين وبروكسل الخاصتين بمنع هذه التجارة .

وأخذت تخطو خطوات كبيرة موجهة فى طريق التقدم ، ونشر العمران فى داخليتها بفضل عاهلها « الرأس طفرى ماكونين » ذلك الأمير النجيب ، والمحب لاعتناق وترويج المدنية الحديثة .

ولـكن الحبشة التى صدت بكل بسالة هجمات الجيوش الإنجليزية والمصرية والإيطالية من أعلى جبالها وهضباتها شمالا وجنوبا ، وحفظت كيانها السياسى بمعاهدة ١٨٩٦ مع الدول المحيطة بها ، وبمعاهدة سنة ١٨٩٧ التى أمضاها (السير رتل رود عضو لجنة ملنر المعروفة) عن انجلترا مع النجاشى (منليك) لتحديد التخوم ولتوثيق الروابط التجارية والودية

وفتح زيلع وبربره للتجارة الأثيوبية أى الحبشية . وكانت هذه المعاهدة لفسخ ما جاء فى اتفاق ٢٤ مارس و ١٥ ابريل سنة ١٨٩١ الذى عقد بين إيطاليا وانجلترا ، وأرسل إذ ذاك الأمبراطور منليك منشور احتجاج عليها ، تجد مع ذلك صعوبة فى التخلص من النفوذ الاقتصادى للدول التى تحيط بها أو من تلك الدول التى تدافع عن سياسة (الباب المفتوح) فى المسائل التجارية والاقتصادية .

فإذا ماألقيت نظرة على تلك المملكة الحبشية (سويسرة افريقيا) تجد سكة حديدية أنشئت بالفرنسيين تتسلق جبالها من ثغر (جيبوتى) لتصل عاصمتها (أديس ابابا) بالبحر الأحمر لتصرف فيه أغلب التجارة الحبشية (٨٢ ٪ منها) .

وترى الانجليز يهتمون بجلب تلك التجارة أو جزء منها إلى النيل والسودان بواسطة خطوط حديدية بين بحيرة تسانا وبعض خطوط شرق السودان الحديدية فى منتهى فروعها بسكة كسلا ـ القلابات ـ القضارف سنار ، التى مدت حديثاً وأوصلت إلى مكوار وسنار .

فى حين أن إيطاليا الفاشستية تهتم وتوجه قواها نحو الاستعمار كما كانت فى عهد وزيرها الشهير (السنيور كرسبى) الذى أهدت إليه انجلترا من أرض مصر الأريترية وثغر مصوع والصومال المصرى المعروف بالصومال الايطالى الآن ، مقابل سكوته على احتلال وادى النيل بانجلترا وأخذها زيلع وبربره و (هرر) التى أعطيت فيما بعد للحبشة بمد خط حديدى داخل الحبشة ليصل الأريترية بالصومال ويوصل البحر الأحمر بالمحيط الهندى بواسطة خط حديدى

يخترق قلب الهضاب الحبشية بين « مصوع » و « قسمايو » على مصب « جوبا » الذى صعده ورفع عليه (شابى لونج) العلم المصرى عام ١٨١٥ ، كما رفعه أيضاً على (موجادتش) ضابط البحرية المصرية (ماكلوب) وتنازلت انجلترا للحكومة الفاشستية عن (الجوبالاند) وقسمايو ، كما ساعدتها فى جغبوب مقابل سكوت السنيور موسولينى عن تصرفات انجلترا وموقفها حيال مصر فى سودانها .

ولقد طلب الطليان بعد اتفاقهم مع الإنجليز ، الحصول من حكومة الحبشة على منطقة نفوذ اقتصادى لتنفيذ مشروع سكتهم الحديدية (سكة الأريترية إلى الصومال) .

ولقد تطلعت روما الفاشستية إلى أن ترى مهاجريها يستوون على هضبات (النجرة) المعتدلة المناخ لينقلوا الماشية الحبشية إلى الثغور الايطالية .

وليس للحبشة فقط تلك الأهمية التجارية ومطامع اختراقها طرق المواصلات الحديدية والتطلع إلى الهجرة إليها وإقامة الصناعة فيها ، بل لها أهمية حقيقية فوق ذلك وهى أهمية الساعة الحاضرة ، وهى أنها خزان كبير للمياه ، بل قلعة مائية مهيمنة على مصر ، فجبالها التى يتجاوز ارتفاع بعض قممها أربعة آلاف متر ، هى فى الواقع مركز لتجمع المياه وخزان مائى طبيعى كحالة سويسرا التى يخرج منها الرين والرون .

منطقة تجمع المياه الحبشية

قلعة المياه الحبشية المسيطرة على نيل مصر المخصب

يسيل من هذه السويسرة الحبشية جملة نهيرات بل أنهر لتصب فى النيل أو متجهة نحو البحر الأحمر أو المحيط الهندى ، وأن هذه الأنهر والنهيرات ليست صالحة للملاحة ، ولكن الأنهار التى تتجه نحو السودان تعوض هذا النقص المهم فى قيمتها الاقتصادية بسبب الطمى المحمول بمياهها إلى نيل مصر . فبينما نرى نهر (بركة) يسيل من الهضاب الحبشية ليخترق الأريترية كى ينعش منطقة (أغوردات) فى الأريترية ثم أراضى طوكر جنوب سواكن ويسقى قطنها ، نرى نهر الجاش المار بأبواب كسلا قبل أن يفقد فى الصحراء أو يصب فى الأريترية يتفرع منه بعض الفروع ليكون دلتا داخلية ، يسمح بزرع القطن فى السهول الشرقية لنهر عطبرة الذى يبلغ طوله ٨٠٠ كيلو متر قبل أن يصب فى النيل ، والهابط من الهضاب الحبشية غربى غندار (إقليم الأماهرة) الذى عليه مدينة القلابات عند تركه الحدود الحبشية السودانية على بعد ١٦ كيلو متراً شمال تسانا . ولكن أهم أنهار هذه السويسرة الأفريقية هو النيل الأزرق والدندر والرهد اللذان يصبان فيه خارج الهضاب الحبشية الذى يسيل من بحيرة تسانا من ارتفاع ٢٧٦٠ متراً فيرسم منحنيين ليصب بعد ذلك فى النيل الأبيض حيث فى ملتقاهما تقوم مدينة الخرطوم ، وهذا النهر إبان فيضانه صيفاً يحمل مقادير عظيمة من الماء مختلطاً بمختلف ذرات من الصلصال ، وأخرى معدنية من الهضاب الحبشية . وهذا النهر هو الذى يحفظ

منسوب النيل عالياً مدة الصيف، ويعطى هذا اللون الأحمر للنيل مدة الفيضان فى ذات الوقت. ومن سنة ١٩٢٥ بعد بناء خزان مكوار يقوم هذا النهر برى السهول العظيمة الواقعة بينه وبين النيل الأبيض المعروفة بأرض الجزيرة، حيث اهتم الإنجليز بزراعة ثلاثة ملايين فدان بواسطة شركات غنية أعظم من أى شركة أو نقابة زراعة قطن بأمريكا.

ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن بحيرة تسانا والمنحنيين للنيل الأزرق وكلها واقعة فى الأراضى الحبشية، تكوِّن الخزان الطبيعى للمياه اللازمة لمصر والسودان إذ يتوقف على فيضان هذا النهر وكمية الماء السائل فيه والطمى المخصب المأخوذ من تربة جبالها البركانية، ثروة وادى النيل القطنية فى مصر وسودانها.

وفى الحقيقة يرى أن الرأس طفرى عاهل الحبشة يهيمن على هذا الخزان الطبيعى الهائل، بل بيده (مفتاح الرى) أو (مفتاح الحياة) لهذه الأقطار، كما كان بيد فراعنة مصر الذين كانوا قياصرة الوادى دون شريك. ولا يزال رمز ذلك المفتاح شاخصاً للأبصار بأيدى أولئك الفراعنة العظام بمختلف المعابد والآثار. وإن الخزان الذى يعمل عند مسير النيل من بحيرة تسانا يسمح بحجز جزء عظيم من مياهه، كانت تذهب بدون الانتفاع بها، وتذهب سدى دون أن يفيد السودان أو مصر منها. فهذه الأعمال الهندسية الادروليكية تزيد من أهمية تلك القلعة الحبشية المائية، وتقوى سلطة رقابة من بيده ذلك المفتاح «مفتاح الأمن والحياة» - أى الرأس «طفرى» مكونين الذى يكون بيده حياة القطن المصرى.

وسيشمل المقـال التالى العراك القائم على بحيرة تسانا بين غزالى منشستر ونيويورك وكلمة عن هينمة أوغندا أو منابع النيل الاستوائية على ميـاه النيل .

من المهيمن على مياه النيل؟

بحيرة تسانا بين غزالى منشستر و نيويورك

(الأهرام ٨ نوفمبر سنة ١٩٢٨)

— ٢ —

لا تقبل انجلترا مركزاً كهذا ، وأن تـكون بحيرة تسانا وما يعمل عليها من أعمال ادروليـكية بغير هيمنتهـا . وأن وضع انجلترا مصر تحت شبه وصاية كما يقول الـكتاب الفرنسيون ورجال السياسة بالرغم من تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ المقول فيه باستقلال (مقيد بتحفظات) مما جعله فى حكم السيادة والسيطرة ، وتقييد حرياتها ، حتى أن حاكم السودان رفض إعطاء أى بيـان عن شبه الضريبة التى ضربتها انجلترا على مصر لقوة الدفاع السودانية وتدرج فى ميزانية وزارة الحربية البالغ قدرها ¾ مليون جنيه تنفيذاً للمادة (١٧) من مشروع اللورد كيرزون المقدم لصاحب الدولة عدلى يكن باشا فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢١ مقابل تعهد بريطانيا بضمان نصيب مصر فى مياه النيل كأنها تدفعنا ثمناً لمياه النيل أو على الأقل (جمرك ترانسيت) لمرور المياه الواردة إلينـا من السودان أملاك أجدادنا الفراعنة والعرب حرة !!!

الماء ماء أبي وجدي ونبعي مذ حفرت ومذ رويت

فكأنها ضمت السودان فعلا إليها بإلغائها الحكم الثنائي لصالحها وما كانت مصر ولا تركيا ولا الدول المختصة أقرت معاهدته الباطلة (اتفاقية سنة ١٨٩٩) فأقامت من الأعمال الهندسية الكبرى بمختلف جهاته: خزان مكوار على النيل الأزرق وقناطر كسلا على نهر الجاش والخط الحديدى الذى مد عام ١٩٢٤ بالجيش المصرى قبل إخراجه ووصل كسلا (بتمايم) على خط السكة السودانية بين بور سودان وعطبرة على سكة الحديد النيلية التى مدت جميعها بفلاحى مصر وأموالهم، والتى كلفت مصر مع مرفأ بور سودان أربعة ملايين ونصفاً من الجنيهات، وتلك المنشآت فى المناطق القطنية لزيادة عمارتها وإنمائها ونقل محصولاتها والمشروعات الكبرى التى تدرس لعمل خزان على بحيرة (ألبرت) والنيل الأبيض وغيرها من المشروعات لتحسين حالة الرى، كل ذلك من خزينة مصر، ترى منه أنه لفائدة لنكشير الساعية إلى تحويل السودان بإكثار مساحات القطن فيه لتغذية مغازلها، إلى مصر أخرى قطنية.

ولما كان خزان (تسانا) يقضى على هذه الآمال إذا لم تتول انجلترا الرقابة عليه، لذلك فكرت انجلترا فى ضرورة هذه الرقابة إذ عقدت من ربع قرن (١٩٠٢) مع الإمبراطور (منليك) معاهدة تنص على أن الأعمال الهدروليكية (الأعمال الهندسية المائية) التى يفكر فى عملها فى أعالى النيل الأزرق، يلزم أن تكون باتفاق الحكومة الحبشية والسلطات الإنجليزية والمصرية. ولما كان الإنجليز ليسوا فقط

هم الذين يحتاجون إلى قطن المنطقة الشمالية الشرقية بإفريقيا ، ولكن هناك أيضاً أمريكان الولايات المتحدة التى بلادهم أكثر بلاد العالم زراعة للقطن ونساجيه ، يطالبون أيضاً بنوع القطن المصرى ذى التيلة الطويلة ، إذ من هذا النوع فقط يتسنى لهم نسج الأقمشة القطنية العالية ومنسوج قماش الكريب ، وخصوصاً غلافات الأنابيب الهوائية لعجلات الأتومبيل وغلاف أجنحة الطيارات التى تتطلب نوعاً جيداً من نسيج القطن يعول على مقاومته ، وأن الصناعات القطنية وصناعة الأتومبيلات بالولايات المتحدة تتوقف إلى حد ما على محصول القطن بوادى النيل .

لأجل ذلك نرى أن مصالح الأمريكان الخاصة تقضى عليهم بأن يتبوأوا مكاناً علياً على بحيرة تسانا مساعدين الرأس طفرى على صنع « المفتاح الحبشى للرى » فى السودان ومصر ، ليتحكموا بذلك دون انجلترا الغاصبة فى حق مصر فى ذلك فى مختلف الخزانات والسدود المقامة من مكوار إلى القناطر الخيرية وبذلك يضمنون القطن ذا التيلة الطويلة الذى يحمله النيل الأزرق فى ثنايا مياهه من مبدأ ينبوعه الحبشى .

لهذا كانت بحيرة تسانا كذلك منبع النزاع بين القوتين الصناعيتين الهائلتين لمنشستر ونيويورك ، ولا بد أن يتقابل ملوك القطن من وراء الاطلنطيقى والبحر الأبيض المتوسط لتنشب موقعة يتقاذفون فيها بملايين الدولارات والجنيهات والامدادات السياسية الدبلوماتيقية الكبرى لإقامة صرح ممرد (مائى) على تلك البحيرة التى يحكمها ومفتاح قلعتها المائية بيد أمير حبشى .

ومن هنا يتبين أن المسألة المصرية ازدادت عقدة بالتنافس الأمريكى الانجليزى للهيمنة على خزان تسانا ، وأن انجلترا لا محالة واصلة إليه تمسكا باتفاقية سنة ١٩٠٢ ولو كلفها ذلك التنازل للحبشة عن مرفأ يوصلها إلى البحر وتسليمها ثغر زيلع فى الصومال على خليج عدن (الذى أخرجت منه الجيش المصرى سنة ١٨٨٤ [1] واحتلته مع ثغر بربرة وأنزلت العلم المصرى ورفعت العلم البريطانى) مقابل هيمنتها على منبع النيل الأزرق ، كما هى مهيمنة على منبع النيل الأبيض فى أوغندا التى احتلتها وباقى مديرية خط الاستواء سنة ١٨٩١ بعد أن أخرجت قوة أمين باشا مديرها باسم الشركة البريطانية الشرقية الافريقية لتتحكم فى مصر أبداً ولا ينجلى جيشها عنها .

ولقد تنبأ المستر ديبوى إلى تلك المشكلات السياسية وما يلزمها من مختلف الوسائط الدبلوماتيكية وغيرها وأشار إلى متعدد الصعوبات التى تعترض تنفيذ هذا الخزان الذى به تسع البحيرة ثلاثة آلاف مليون متر مكعب حينما يكون مطرها معتدلا . وإليك ما يقوله عن المشكلات والمصاعب السياسية فى مقاله عن بحيرة تسانا وأنهار السودان الشرقى ضمن كتاب السير وليم جارستن مستشار نظارة الأشغال العمومية (كتاب الدليل فى موارد أعالى النيل ص ٦٠٩) : « إننا قد ألمعنا فى هذه المذكرة من وجهة التصميم إلى المشاكل السياسية التى تعترض سبيل إقامة وصيانة عمل من الأعمال يراد منه إدارة أو تحكم فى استخدام مياه البحيرة والارتفاق بها ، وعند التخصيص

(١) السنة التى غادر فيها محجوب وهو طفل مسقط رأسه فى السودان كما قال المؤلف

والتفصيل يقتضى التيقظ والانتباه الكلى لئلا تباشر مثل هذه الأعمال قبل تسوية المفاوضات التى تقوم فى سبيل إجرائها تسوية سياسية ، ولا أظن أنه يصح الاعتماد والتعويل على موالاة الأهالى وميولهم ولا يؤمل بمؤازرتهم . ولا خفاء أن تلك الأصقاع قليلة العمارة وأهلها ذوو استقلال وأنفة لايحفلون بالنزلاء إذ ينظرون إليهم بعين ملؤها الريب والظنون . أما الحاجات من الميرة والمؤونة إذا كانت بمقادير جزئية فهى رخيصة متى أراد القوم أن يبيعوها ، وأما جلب عملة فقد يكون غير ميسور فى تلك الأرجاء وبغير مؤازرة النجاشى ودياً ومناصرة الرؤوس المحليين ، وتأييد ذلك بشىء من القوة ، يكون العمل مستحيلا على الاطلاق ، ولا يكون من الحزم والسداد النزوع اليه إلا بعد الاتفاق على الأمر من جميع وجوهه ونواحيه »

وصرح « بأن الأمر يكون موجباً للأسف العظيم أن تخصص مصر لنفسها وسائل طبيعية يكون من ورائها إحياء أراضى السودان الذى يهم مصر كثيراً بدون الاستفادة من هذه الوسائل حق الفائدة » « دليل النيل للسير جارستن ص ٦٠٧ »

وهناك مفتاح آخر طبيعى للنيل موجود « بأوغندا » « أى بحيرات منابع النيل الاستوائية » أفضنا فى التكلم عنه فى افتتاحية الأهرام فى ٩ يوليو سنة ١٩٢٠ تحت عنوان — للذكرى والتاريخ — مصر والسودان . أوغندا مفتاح النيل الطبيعى . دحض نظرية القائلين بأحقية ملكية بريطانيا لأوغندا وأعالى النيل ، دفع الإشكال بالمطالبة بمنابع النيل الاستوائية ، نكتفى منها الآن بتذكير مواطنينا بما قاله السير جريالد

بوزنال عن أوغندا بالكتاب الأزرق المنشور فى ١١ ابريل سنة ١٨٩٤ أى بعد إجلاء الجيش المصرى عن مديرية خط الاستواء بأربع سنين تقريباً حيث يقول: « أوغندا من الوجهة السياسية هى أقوى إقليم فى افريقيا الشرقية إذ أن منابع النيل فى قبضتها وتحت رحمتها (ومسألة أوغندا ومركزها فى مصر لا ينفصلان عن بعضهما)، إذ أن كل من يكون فى قبضته أعالى النيل يتحكم بالتالى فى مصر كما يشاء ويختار، فيجر عليها الويل والدمار بمنع الماء عنها، ونظراً لتطور افريقيا الحالى ليس من السهل التسليم بأن أوغندا، وهى المفتاح الطبيعى لوادى النيل، ومن أغنى أقاليم افريقيا الوسطى، تبقى بدون بسط حمايتها عليها »

وإليك ما قاله الكولونيل السير كولن منكريف وكيل نظارة الأشغال العمومية سابقاً من خطاب له فى المجمع اللغوى الملوكى (أول أكتوبر سنة ١٨٩٥): « إذا ما وضعت أمة متمدينة يدها على أعالى النيل فبطبيعة الحال ستقيم سدوداً فى سدود فكتوريا نيانزا (النيل) لتنظيم مائه وضبطه، كما تنظم منشستر قنـــاة (منشستر ـ ليفربول) إلى ليفربول. وتلك أعمال سهلة الاجراء إذا ما حققت مرة فما يجرى فى النيل من الماء يكون وفقاً لرغبة هذه الأمة المحتلة فإذا ما جَر سوء الحظ مصر التعسة لحرب مع هذه الأمة، فإنها تكون عرضة للغرق أو للجدب والقحولة حسب ما يشتهى خصمها وغريمها ».

وأختم أقوالى بأبيات استدعاها ونطق بها لسان الحال التى نحن فيها الآن وماعرض أخيراً وقبل ذلك فى السنين الأخيرة من الانجليز بالاكتفاء « بضمان المـاء » والسكوت عن السودان فى

مشروع اتفاقياتهم المعروضة كمّا لأفواه المتخرصين (١) والمتقولين علينا الأباطيل بأننا تغاضينا عن ذكر السودان فى حين أن مضابط مجلس النواب تدحض تقولاتهم ومهازل مفترياتهم بتلك الأبيات الأبيّات .

يقولون إنى قد تناسيت ذكرها
لعمرى هذا فى الفروض بعيد
وكيف التناسى واعتقادىَ اننى
إذا صح هذا غادر وجحود
ولو قلدونى دون ذاك إمارة
لأنقض عهدى قلت لست أريد
فكيف وشريان الحياة « بحلفة » (٢)
وفى « أم درمان » لمصر وَريد
و « فكتوريا » و « ألبرت » بعدها
هما و « جبال الأولياء » « سدود »
وفى أرض سودان كرام أعزة
أعاريب بيض أو أشاوس سود

(١) يقصد أولئك الذين كانوا يحملون على الدكتور من الصحفيين المأجورين من بعض الزعماء الذين ارتفعوا على أكتاف الدكتور، وأمثاله من الوطنيين، ومن هؤلاء الزعماء أو المتزعمين من توسط لهم بمحجوب لاجراء مرتب ضخم، فتأمل نكران الجميل .

(٢) حلفا مدينة على النيل مشهورة ولد بها المؤلف .

يقولون لاتخشوا على المـاء حُبْسة

ففيـه زيادات لـكم وورود

فـكيف ودعوى بالقناة[1] زعمتمو

وإن وشجت منكم لمصر عهود

فلا أمنَ مالم تحمه مصر حرة

وتخفـق رايات لهـا وبنـود [2]

---

(١) القناة : قنال السويس التى يتشبث بلزوم حراستها الانجليز بجيوشهم فلا يقبلون عن ذلك بدلا حتى ولو لحليف مع أن أساليب الحرب الحديثة لا تقر هذه الدعوى ما دامت البحرية البريطانية خير كفيل لحماية مواصلاتهم .

(٢) لم يكن محجوب يقرض الشعر ولـكنه نأم بهذه الأبيات على السليقة يعبر بها عن تمسكه بالسودان الجزء المتمم للوطن المقدس .

الدكتور محجوب يقدم الشيخ عبد العزيز جاويش

إلى مصطفى كامل باشا

حدثني العالم والمصلح الاجتماعي الشيخ محمود أبو العيون - وهو من أبطال الحركة الوطنية وخطبائها الذين اعتقلوا وشردوا - قال : « إن للدكتور محجوب ثابت ماضياً طويلا في مناصرة الحزب الوطني ، فكان الوطني منذ نشأته ، وهو طالب ، ثم وهو في عنفوان شبابه ، ثم في كمال رجولته ، ثم إلى أن تقدمت به السن حتى لاقى ربه الكريم ، وله مواقف وطنية ومساهمة مسجلة في صفحة مصر الوطنية مع المغفور له مصطفى كامل باشا مؤسس الحزب الوطني الذي أسمع صوت مصر المدوي للخافقين » .

ثم قال : « أذكر لك ما قد يغيب عن ذاكرة الكثيرين بل إن الكثيرين لا يعرفونه ، وهو أن الدكتور محجوباً هو الذي قدّم المغفور له الشيخ عبد العزيز جاويش إلى المغفور له مصطفى كامل باشا حينما استشاره واستطلع رأيه فيمن هو جدير بأن يتولى رياسة تحرير « اللواء » بعده ، وذلك حينما شعر بأن قواه قد هدها الجهاد ، وأنه يدنو من الموت فكان إشفاقه على إكمال رسالته

الوطنية ، وحرصه على مستقبل وطنه ، أكثر مما كان يفكر فى صحته وتعلقه بحياته من أجل ذاته . . . وقد كان الشيخ عبد العزيز جاويش حين رشحه محجوب عند مصطفى كامل لرياسة تحرير « اللواء » فى بعثة علمية بانجلترا . . . . وهذا مثال ، بل آية على ما كان للدكتور محجوب من قدر وطنى كفل له الثقة الممتازة عند مصطفى كامل باعث النهضة الوطنيـة الثانية بعد أحمد عرابى » .

عطف الدكتور على عبد الفتاح عنايت

فى سجنه

لم ينس الدكتور محجوب أحداً من الذين سجنوا فى الحركة الوطنية أو الذين ذهبوا ضحية فكرة سياسية بريئة فى الدافع لها ، فكان دائب السؤال عنهم والاستعداد لمعاونتهم بقدر طاقته ، بل فوق طاقته . . فقد كان لكل مجاهد فى الحركة الوطنية وضحاياها نصيب موفور من عنايته وعطفه وبذل شتى المعاونات له .

ونذكر هنا على سبيل المثال ، أن الدكتور محجوباً قد ذهب مع طلبة المعهد الجنائى فى دراسة علمية إلى ليمان طره لتطبيق بعض الحالات فى علم النفس والشذوذ العقلى على المجرمين . وهناك التقى الدكتور محجوب بالأستاذ عبد الفتاح عنايت الذى طوحت به حادثة السردار إلى السجن ، وقطعته عن مستقبله الدراسى فى كلية الحقوق ، فما أن التقى به الدكتور محجوب حتى أخذ الحديث بينهما شجونه وشعوبه . فبدت له رغبة عبد الفتاح عنـايت

فى إتمام دراسته للحقوق ، وهو فى سجنه ، فأعجب الدكتور محجوب بهذه العزيمة الصامدة الصابرة . وما أن وصل إلى الجامعة فى اليوم التالى حتى كان أول نشاطه واهتمامه ، اتخاذ الإجراءات وتمهيد الوسائل لتمكين عبد الفتاح من أداء امتحان النقل إلى السنة الثالثة الحقوقية ، على أن يواصل الدراسة حتى ينال إجازة الليسانس ، وقد تم له ذلك بموافقة الجامعة وموافقة مصلحة السجون (بواسطة محمد حيدر باشا مدير عام مصلحة السجون) .

ثم أخذ الدكتور محجوب يعد له سبيل الحصول على الكتب التى يحتاج إليها فى سجنه .

وقد كان لمسعى الدكتور محجوب نتائجه العملية ، حين رأينا عبد الفتاح عنايت قادماً من ليمان طره ليؤدى امتحانه حتى أحرز إجازة الحقوق ، وكان لا يزال على ذمة السجن الطويل المرهق . . .

وكم للدكتور محجوب من أياد بيضاء على كثيرين من الطلاب الذين كانوا يعجزون عن مواصلة دروسهم ، فكان لهم منه العون الأبوى الصادق . ولم يكدر بالمن جميلاً زرعه لأحد . . .

على أننا نذكر أن بعضهم قد لفت نظر الدكتور محجوب إلى ما فى معاونته لعبد الفتاح عنايت من تقوّل وتساؤل بالنسبة للجريمة المعروفة ، فكان جوابه : إن هذا عمل إنسانى بحت لا دخل له ولا علاقة بأصل الجريمة ولا بدوافعها . وأنا لم أكن يوماً ما من محبذى الوطنية المصحوبة بمثل هذا العمل .

* * *

والآن نختتم الجزء الأول من كتابنا ، ونقدم الجزء الثانى منه وهو يحتوى على ترجمة خاصة بحضرة صاحب الجلالة (فاروق الأول) وترجمة أخرى للمغفور له الملك (فؤاد الأول) وتراجم بعض الشخصيات التى اتصل بهم الدكتور محجوب أثناء دعوته للحركة الوطنية ، ويحتوى أيضاً على الأسرار التى اكتنفت وصاحبت مأساة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .



جلالة الملك



الجزء الثاني



تراجم بعض الشخصيات

الملك فاروق الاول

لما سألت الدكتور محجوب رأيه فى جلالة الملك فاروق ، قال :

« ذكاء طبيعى ممتاز ، وبعد نظر ، ومعرفة تامة باقدار الرجـــال فى ملـكه ، إلمـام تام بمـا يجرى فى مملـكته ، تشرفت بمقـابلته عقب عودتى من أوربا فى بعثة رياضية ، وقد تأخرت فى الحضور عن الميعاد المحدد ، فاغتفر لى جلالته هذا التأخر بواسع حلمه ، حتى شعرت بأن تأخرى قد أزجى إلىّ العطف الذى سر نفسى ، فـكنت كمن يتمنى نيل الرضا بذنب يرتـكبه ، فلمـا تشرفت بالحديث مع جلالته دهشت من وقوفه على تاريخ حياتى وإلمـامه بكل أحوالى ، ولمـا سألنى عن رحلتى ، قلت لجلالته : كانت الرحلة يامولاى جميلة ، غير أن أبناءكم الطلاب كانوا حيال بعض البلقانيين كالأقزام من فرط طولهم الجسمانى . فقال لى جلالته على الفور مداعباً ومتلطفاً :

« الحق عليك يادكتور » . . .

فلما وجدنى قد أُخِذت وارتبكت ، تداركنى مستطرداً ومبتسماً :

« نعم الحق عليك يادكتور ، لماذا لم تلبسهم طرابيش طويلة ، وقبعات عالية ، وأحذية بـكعوب مرتفعة ليحصل التوازن فى الطول بينهم وبين الطلاب البلقانيين » . . . عنـدئذ تأكدت ، وأنا فى حضرة جلالته ، أن مولاى سريع الخاطر ، يعرف مواطن الدعابة ومواقف الجد ، كلا فى أوانه وأحواله . وإنه ، إذ كان يتلطف ، كنت ألمح على أسارير

وجهه الكريم هموم الملك ، وأشهد أن مولاى الفاروق سريع الخاطر ، مؤاتى البديهة ، يجمع بين توثب الشاب الفائر الطموح، وحكمة الشيخ المجرب، سيصبح نابغة الملوك، وسراج الشرق المنير وهاديه.

إنى عشت فى أوربا ، ودرست نفسية الشعوب الأوربية ، ولكنى يا بنى لم أر ولى عهد قد ظفر بحب الشعب كما يظفر الفاروق بحب أبناء مصر وسودانها ، والسودان ومصره ، كما أنى لم أر ولى عهد قد أحبه الشعب ، بعد أن أصبح ملكاً وأمسى حاكماً وآمراً ، كما أحب أبناء النيل الفاروق ، بل قد أحبه الشرق كله .

وإنى أذكر لك : أننى حينما توجهت إلى السودان ، مسقط رأسى[1] ، وأول أرض مس جسمى ترابها ، واكتحلت عيناى بمرأى ربوعها ، كان أول سؤال وجهته إلى فتاة سودانية : « كيف حال الفاروق . . ربنا يحميه . انت تنضر (تنظر) الفاروق يا دكتور ؟ » فأجبتها مغتبطاً : « أى نعم » . . فقالت : « يا بختك ، أنا مرادى أروح مصر ، واشم هوا مصر ، وأشوف الفاروق . . لكنى أخاف أن يمنعنى العسكر » .

بهذه العبارات الساذجة البريئة ، عبرت الغادة الجنوبية عما يكنه قلبها من حب لمليكها .

ثم قال : « لمست فى أبناء السودان ذكوراً وإناثاً وشباناً وكهولا

(١) ولد الدكتور محجوب بدنقله . وكان والده المغفور له احمد ثابت بك رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالسودان ، وكان يجمع بين الثقافتين العسكرية والهندسية .

وشيوخاً ، إنهم يحبون الفاروق حفظه الله حبًّا يفوق العد ، ويربو على الحصر ، فوق ما كنت أعتقد وأقدر ، وأن صدور الأمر الكريم بتعيين النجومى ياوراً ، كان له أبلغ مظاهر الاغتباط فى السودان » .

وإذ لاحظت أن الدكتور كاد يشعب حديثه قلت له :

ـــ أريد رأيك فى الفاروق ؟ . .

فقال : ـــ قال لى سعد باشا رحمه الله : « حينما تشرفت بمقابلة الملك فؤاد ، هلّ علينا ولى العهد « الفاروق » ، هاتفاً : « يحيا الوطن ، يحيا الاستقلال التام ، تحيا الحرية » فانعقد لسانى إعجاباً وشعرت أن قلبى يكاد يطير فرحاً واغتباطاً بحيث لا يمكننى أن أصف ما اعترانى من الغبطة . غير أنى بكيت بكاء الحبور والسرور والاستبشار ، فإذا بالملك فؤاد يقول وهو متأثر : « أتعرف سعداً ؟ هذا هو سعد » ـ وأشار إلىّ ـ فإذا بالفاروق يعانقنى ، وعندئذ ، أحسست بما لا أستطيع أن أصوره أو أصفه لمدى تأثرى ومبلغ استبشارى بهتاف ولى العهد اليافع الذى عبر عن الوطنية السامية بأبلغ معانيها ، فلم يسعنى إلا أن قلت لجلالة الملك فؤاد : « إن أمة ينادى فيها ولى عهدها ومناط آمالها بما ينادى به أبناؤها بالاستقلال وبالحرية لابد أن تصل إلى الاستقلال عاجلاً أو آجلاً . حرسه الله يامولاى وجعله الفاروق بين الحق والباطل . سيجىء اليوم الذى يصبح فيه الفاروق ملك النيل ومرشده وهاديه وموئله » .

هذا ما قاله لى سعد يا بنى ، استرجعته ذاكرتى ساعة تشرفى بمقابلة الفاروق ، أرويه لك عن سعد .

* * *

وحينما وقعت مأساة ٤ فبراير ، تلك الجريمة التي لا تغتفر ، والجرح الذي لا يندمل ، كان الدكتور محجوب ثائراً ، وغاضباً غضباً مصحوباً بالألم ، لما مسّ رمز الكرامة الوطنية ، وعنوان عزة الوطن . ففي يوم ٥ فبراير سنة ١٩٤٢ ، كاف ـ الدكتور ـ المؤلف بالتوجه لمقابلة اسماعيل صدقي باشا وأحمد ماهر باشا وأوجب عليه أن يفضي إليهما بما ذكرناه في ترجمة اللورد كيلرن .

حب الوطن صفة من صفات الفاروق

وقال : إن حب الوطن يا بني هو من أخص صفات الفاروق ، يمتزج بدمه وروحه ، وينساب في كل جوانحه . إنه يا بني استهل جلوسه على عرشه بالتنازل عن جانب كبير من مخصصاته عن طيب خاطر ، وغشيان المساجد وأداء الفرائض الدينية ، ليكون القدوة الحسنة لأبناء الشعب .

ولقد رأيت بعيني رأسي طلاب الجامعة يقتدون بمليكهم في أداء فريضتي : الصلاة ، والصوم . وكان عجيباً أن حاول بعض الزعماء بواسطة أحد أعضاء مجلس الوصاية أن يحول بين الفاروق وبين أداء فريضة الصلاة أيام الجمعة في المساجد ، ليتفرغ لدروسه ، يتزود بها لأيامه المقبلة ، وكانت النصيحة غير مقصودة لذاتها ، إنما كان الهدف الذي يرمي إليه من أوفد عضو مجلس الوصاية هو تضرر ذلك المتزعم من إقبال الشعب على رمز مجده ، وإيثاره بالمحبة . فلما توجه العضو لمقابلة أحد أفراد الحاشية للتحدث معه بشأن تلك النصيحة الماكرة ، إذا به يفاجأ بالقول : « لسنا في حاجة إلى النصائح المشوبة ، وليكن في علمك

وعلم موفدك ، أن مولاى ومولاكما ، قضت إرادته السامية بأداء فريضة الجمعة تعبداً ، ثم ليكون قدوة لأبناء رعيته ، إذهب بسلام ، وقل لموفدك : لا شأن لك فى هذا وقف عند حدك » .

ولما سألت الدكتور : « ما الذى كان يضير ذلك الذى حاول أن يعمل على أن يعدل مولاه عن أداء فريضة صلاة الجمعة ؟ » .

أجاب : « إن ذلك الرجل الذى درج على اتخاذ حناجر المأجورين أبواق إعلان له فى ذهوبه وجيئته قد فت فى عضده حب الشعب للمليك العتيد (١) ، واستقباله أنى شرّف بأشد مظاهر الحماس ، وبجميع ضروب الولاء ولا سيما طلاب الجامعتين : الجامعة الأزهرية وجامعة فؤاد الأول ، لما رأى هـذا الولاء المصحوب بالحب ، حاول أن يحول بين سيده ومولاه ، وبين أداء الفريضة بتلك النصيحة الملتوية ، وذلك أنه فى الوقت الذى كان يجعل نفسه فيه رهن إشارة الأجنبي حيناً ويستعديهم على الوطنى الأول حيناً آخر ، قد رأيناه يعمل على أن يكون محل إعجاب الشعب وموضع ثقته ، فإذا لم يظفر بكل ذلك راح يستأجر من ينادى بحياته ، وينعق بوطنيته ، نعيقاً مقروناً بالرقص (نريد الزعيم) ، فيخرج إليهم وقد انتفخت أوداجه ، وهو فى زهو الديك ، وإعجاب الطاووس ، وبعد أن يخدع نفسه يقول لهم : أتريدون أن ترونى وأنا ماثل فى قلوبكم ، وفى حدقات أعينكم ؟ » ثم يقول لهم : « بصفة كونى زعيم الأمة أرحب بكم ، والأمة ترحب بكم ، والدليل على ترحيب الأمة بكم ما تشهدونه على أسارير وجهى » .

---

(١) العتيد ، أى : الجديد .

إلى آخر هذا الكلام الذى تضيق له الصدور وتخنق له الأنفاس .

وقال الدكتور : « سأقول لك ما تعلمه وتفهمه أيها المتخابث والفاهم الذى يقف موقف المتسائل المتجاهل ، إنه يريد أن يكون حب الشعب وقفاً عليه ، على الرغم من دجله وشعوذته ، فإذا سمع هتافاً بحياة غيره ، يجن ، ولو كان الهتاف بحياة سيده ! . . ومركب النقص فيه هو أن النداء بحياة غيره معناه الهتاف بسقوطه ، فاعجب لهذا الرجل الذى يخرج على الوطن ، ويجرح الوطنية ، ويترامى فى أحضان الأجنبى . . وإلى جانب موبقاته يريد أن يكون : رمز الوطنية ، وكبير الزعماء وعظيم العظماء . . يابنى ، إن كان هذا الرجل عاقلا ، فمكانه السجن بعد المحاكمة ، أما إذا كان غير عاقل فموضعه مستشفى الأمراض العقلية » .

وقال بعد كلام كثير جداً : « أما أنه بعد أن كان يسعى لدى الأجنبى ، راجياً ، وملحاً فى الرجاء أن يعمل على أن يحول بين المليك ، وبين مباشرة مهام ملكه إلا بعد بلوغ السن الذى كان يريده بحسب السنين الميلادية لا الهجرية ... ثم يجىء بعد ذلك بسنين بموجب تبليغات وعلى أجنحة الدبابات فى ظلام الليل الدامس ويدعى الوطنية فهذا لا يطاق » .

* * *

حفظ الله الفاروق ، وأحاطه بالأوفياء المخلصين ، وكبت أعداءه ، ورفع أعلامه . ونصره نصراً عزيزاً . . آمين . . آمين .

المغفور له الملك فؤاد الاول

لما سألناه رأيه فى المغفور له الملك فؤاد . قال : — كان الملك فؤاد ملكاً عظيماً ، قد وصفه شوقى بقوله :

وكم شر حسمت وكم بلاء وكنا لا نرى لهما انحساما

حقاً إنه حسم الكثير من الشر ببعد نظره ، وتوقيه مواطن الخطر فى كثير من الأحوال ، وكم كان بعيد النظر ، ثاقب الفكر . لو كان فؤاد ملكا أوربياً لساد العالم بسياسته ، وعبقريته ، واتساع أفق عقله وبعد نظره وحكمته .

* * *

قد ترعرع ابن اسماعيل ، وحفيد محمد على ، فى العز المقيم ، والشرف التليد ، والحظ المؤاتى ، والدهر المقبل ، رأى والده العظيم يكاد يصبح أمبراطور الشرق كما قال شوقى : « وما اسماعيل إلا قيصر لو أنه وفّق ، والإسكندر لو لم يُخفق . ترك لكم عز الغد ، وكنز الأبد ، والمنجم الأحد ، والوقف الذى إن فات الوالد فلن يفوت الولد » . وكما قال أيضاً وهو يخاطب ولديه حين عبورهم قناة السويس فى طريقهم إلى المنفى سنة ١٩١٤ « وتريا اسماعيل حشد الحافرين ، وقرب المسافة للمسافرين . غيّر وجه السفر ، وقيل بلغ غاية الظفر ، وقيل قد وقع الحافر فيما حفر »

عاش الملك فؤاد يا بنى ، ورأى والده مُبْعَداً منفياً عن امبراطوريته مغرباً عن ملكه بفعل مطامع السياسة الأوربية ودسائسها ، وبنوع خاص الإنجليزية والفرنسية ، تلك السياسة الماكرة التى تتلخص فى اقتسام

الشرق العربى السيء الحظ ، رأى الملك فؤاد كل ذلك فى أوقات عصيبة ، ورأى أخاه الخديو توفيق يترامى فى أحضان الإنجليز الذين خدعوه بالتظاهر بمظهر حمايته بادىء ذى بدء ، فيأنس إليهم حينا ، فإذا به يشعر ، ثم يرى فى آخر الأمر أنه أصبح آلة فى أيدى الإنجليز يستغلونه فى تنفيذ سياستهم الملتوية وفرض نفوذهم . ثم إذا به يتنبّه ، ولكن بعد فوات الوقت ، فاستيقظ من نومه العميق ، حينما تلقى إنذاراً انجليزياً يحتم عليه وعلى حكومته أن يكون محامو المغفور له أحمد عرابى باشا من الإنجليز ، وإذا لم يقبل وتقبل حكومته ، فإنه يتحمل التبعة(١).

جلس الملك فؤاد على عرش جده وأبيه ، بعد أن رأى مأساة والده وأخيه وابن أخيه عباس الثانى ، ثم موقف أخيه السلطان حسين مع « ونجت » ممثل انجلترا فى مصر . وبعد أن رأى تلك العبر والعظات من حوادث الدهر وتقلبات الزمن . . جلس على العرش بعد أن أحرجه المغفور له حسين رشدى باشا كما أحرج أخاه السلطان حسين الذى كان رافضاً تولى العرش ،

---

(١) لما طلبت الحكومة الانجليزية من النظارة ـ أى الوزارة ـ المصرية أن يكون محامو عرابى باشا من الإنجليز ، اعترضت الحكومة المصرية وردت بقولها : إننا نفضل أن تأخذوا عرابى وتحاكموه ، من أن نسلم لكم بأن يكون محاموه من الانجليز . فأرسلت الحكومة الإنجليزية إنذاراً إلى الحكومة المصرية تقول فيه : « ليس هذا أوان معارضة الحكومة المصرية ، وإذا لم تُجِبْ طلب الحكومة الإنجليزية فإنها تتحمل التبعة ، وكذلك الخديو » . فما أشبه الليلة بالبارحة ، أليس هذا التبليغ كالتبليغ الذى قدموه إلى مصر فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ؟

وقد قَبِلَ مرغما حينما علم بأنه إذا لم يقبل ، فإنهم سيجلسون هندياً من أقيال الهند على عرش مصر وهو « أغا خان » . عندئذ جلس السلطان على العرش حقناً للدماء ، وحفظاً لعرش آبائه .

ثم قال : « أنجب فؤاد لمصر « الفاروق » الذى سيكون ـ إن شاء الله ـ الفاروق بين الحق والباطل . وأقول إن الله تعالى قد أراد الخير لمصر بأن ينجب الأسد شبلا ، وفؤاد فاروقاً ، وهو فى سن اليأس .

وإنى أقول دائماً لم يكن ذلك وليد المصادفات ، إنما هو لخير قضت به إرادة الله لمصر ، فكان الفاروق أزكى نبات الوادى » .

* * *

دخل المغفور له الملك فؤاد الأول على المدرس الإنجليزى الذى كان يدرس لولى العهد « الفاروق » . وبعد أن أنصت إلى الدرس هنيهة قال للمدرس : « إنى أراك تكثر من إعطاء الدروس الديمقراطية للأمير ولى العهد » فأجاب المدرس بقوله : « إنى أراه بطبعه ديمقراطياً ، محباً للديمقراطية ، وهذا من حسن حظه ، لأنه يريد أن يسبق زمنه ، وهو خير له حتى لا يسبقه الزمن » . فسُرَّ الملك فؤاد من إجابة المدرس الإنجليزى[1] .

حقًّا يا بنى إن ولى العهد بالأمس ، ومليكنا اليوم فاروق الأول قد سبق زمنه فى الديمقراطية ، وحب الوطن قد امتزج بدمه الطاهر منذ نعومة أظفاره . .

---

(١) إنى أثبت هنا عبارات الدكتور محجوب بنصها .

ثم قال : إن المغفور له الملك فؤاداً كان يرهق ساسة انجلترا بعبقريته السياسية وإحراجه لساستها ، وكان يعبث بأغراضهم بذهنه الجبار ، وواسع أفق تفكيره . ولو كان ملكا أوربيًّا لساد العالم فى زمننا هذا .

ثم أخرج من مكتبه جريدة انجليزية ، وقد نشرها بين يديه ، وهو يقول : « هذا ترجمة ما قالته هذه الجريدة الإنجليزية . وقد قالت حقًّا » .

اسماعيل صدقى باشا

هو « كليمنصو » مصر ، بل يمتاز عندى عليه . وإنه لا يقل عن « بسمارك » . ولو بعث اسماعيل صدقى باشا فى هذه البلاد فى زمن تُعرف فيه أقدار الرجال بميزان سليم ، لكان له من الشأن أكثر من شأنه هذا ، ولحرص جميع أبناء الأمة على الاستفادة بنبوغه واستغلال عبقريته . وإنى أستطيع أن أقول إنه لم يصب فى العالم كله زعيم أو عبقرى بما أصيب به اسماعيل صدقى من حسد الزعماء والمتزعمين له . ومع ذلك لم يحسد هو أحداً . ومن حقه أن يتمثل بقول القائل :

حسدوا الفتى إن لم ينالوا فضله

وليس بمحسود فتى وله ندّ

تالله يا بنى ، لو لم يكن اسماعيل صدقى متسنما كرسى رياسة الوزارة وقابضاً على أزمة الأمور فى سنة ١٩٣٠ إبان تلك الأزمة العالمية ، لنكبت مصر بكارثة إفلاس شديد (١) . وإن

(١) راجع فصل الدكتور محجوب ومحمد محمود باشا

دستور سنة ١٩٣٠ الذى ظلوا يشوهونه ، لخير فى نظرى من دستور سنة ١٩٢٣ . وحسبى أن أقول : إن دستور صدقى ينص على أن نظر الطعن فى صحة نيابة النواب والشيوخ تفصل فيه محكمة النقض والابرام ، حتى يقطع السبيل على أغلبية ظالمة من فصل خصومهم من مجلس النواب إرضاء للشهوات الحزبية ، وانتقاماً من مخالفى رئيس أغلبية (كما حدث قبل دستور صدقى وبعده) .

وخلاصة القول ان المنصفين من أبناء هذه الأمة يعترفون بوطنية اسماعيل صدقى وبعد نظره وإن التاريخ سينصفه ، وسيقدره الأبناء والأحفاد بل بدأ الناس يفهمونه ، ألم يحمله طلاب الجامعة على الأعناق تكريماً ؟

الاستاذ محمد محمود جلال بك

وسألته عن الأستاذ محمد محمود جلال بك . فقال :

— رجل فذ فى الرجال . وهو من الوطنيين القلائل فى وقتنا الحاضر الذين أشربت نفوسهم حب الوطن ، وحب الخير للمواطنين. إنه كأستاذيه مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك وطنية وغيرة . يستمد وطنيته من إيمانه بالله وتقواه ، ونظرته إلى المصرى نظرة مثالية عالية . أتاه الله من ثروة القوة النفسية ، مثل ما آتاه من بسطة فى المال ينفق منه فى سبيل الوطنية — وهو المؤمن بها — لا يضن فى هذا السبيل مهما أنفق على الوطنيين وهو من الطراز العالى الممتاز طهارة وصلاحاً وعفة وسمواً بالنفس عن كل ما يشينها . تجلس إليه فلا تحب أن تفارقه . محبوب من كل الناس . وله عند أهل دائرته

الانتخابية التى يمثلها فى البرلمان حق التمثيل مكانة ممتازة ، هو نجم أضاء فى منطقته ، وشمس فى سماء الوطنية ، إنى أعلم أنه يقوم بنفقات عشرات الطلاب من أبناء العائلات التى أخنى عليها الدهر سرا

ثم قال :

إنه عظيم الشفقة والبر بذوى القربى واليتامى والمساكين ، كثير الرعاية لعماله ومزارعيه ومستأجريه يحسن إليهم ويبرهم . وله مواقف معهم مشكورة فى أدق ظروف التموين تحرجاً وضيقاً ، لم يحوجهم إلى طلب القوت والكساء من الحكومة ، فقد كان يوزع عليهم من محصولات مزارعه الواسعة ما يكفيهم ، ويمدهم بالأقمشة ، يشبع جائعهم ، ويكسو عاريهم ، وليس فى مزارعه فلاح يفترش الأرض أو يلتحف السماء .

هكذا يعيش جلال للوطن ولأبناء الوطن . وله ناحية أخرى يتميز بها ولا نظير له فيها ، فهو رباط قوى فى توثيق العلاقات بين شمال الوادى وجنوبه ، وله إلى الجنوب رحلة فى كل عام يجوب فيها ربوع السودان ، يتصل بكافة الطبقات ، يكرمونه ويكرمهم ، لأنهم يحبونه وهو يحبهم . ويدرس فى خلال تلك الرحلة من أحوالهم كل ما كبر وما صغر ، لذلك تراه ملماً بدقائق الحالة الاجتماعية والمعنوية والوطنية عند الأشقاء الذين يحاول الاستعمار المباعدة بيننا وبينهم بشتى الوسائل فى نبل وشهامة وأريحية نادرة فى هذا الزمن .

يفعل ذلك جلال بك بلا إعلان عن النفس ولا ضجة ولا مباهاة . فهو مثال حى للتضحية فى هذا السبيل بالنفس وبالمال وبالجهد ، عرف حبه للسودان والسودانيين بما ليس فوقه مزيد ، حتى

إنه يعتزم أن يزوج أحد أبنائه من السودانيات . وكفى بهذا تنويها لوطنية جلال ، وتقديراً له بين الرجال .

وسيذكر التاريخ لجلال أنه برلمانى من الطراز الأول ، لا يحابى ولا يجامل فى المواقف الوطنية ، ولا ينحرف قيد أنملة عن مبادىء الحزب الوطنى لم يجامل يوماً زعيما أو رئيساً على حساب الوطن داخل البرلمان أو خارجه .

وأقل من القليل هم الذين يجمعون بين الثراء والوطنية ، والعلم . . . ولكن محمد محمود جلال جمع بين هذا كله يجمع فى شخصه بين الوطنية والإخلاص والكرامة والعلم ، والأريحية والشفقة على كل وطنى ، والمبادرة إلى الأخذ بيد الوطن فى أحرج الأوقات ، فهو وطنية وإخلاص ، وهو كرامة وعلم ، وهو أريحية وإحسان . . وهو شفقة بكل مواطن ، وهو المبادرة إلى الأخذ بيد الوطن فى أحرج الظروف ، لا يبالى بالمال ولا بالجهد ينفقهما فى سبيل إخلاصه وتمسكه بمبادىء الحزب الوطنى ... ولو أنه كان ممن يطمع فى الجاه أو المنصب لانضم إلى حزب آخر من الأحزاب ، ولكان فى مقدمة الوزراء وأرباب المناصب العالية ولكنه يسميهم كبراء الميزانية ، أى أنهم كبراء بحكم المرتبات الكبيرة .

وهو دائماً يحيط نفسه بهالة من التصوّن الكريم ، فلا يحاول أن يخلب بوطنيته ألباب العامة ، كما يفعل المتاجرون بالوطنية .

فهو وطنى للوطنية ، كريم للكرم :

وليس الفخر مرتبة تلقى وتؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن منتهى همم كبار إذا ذهبت مصادرها بقينا

أحمد ماهر باشا

صريح جرىء ، شجاع صـــادق ، وطنى مخلص ، حر الرأى والفـكر ، ينصف غيره ، وينتصف لنفسه .

طلعت حرب باشا

كان صديقى طلعت حرب باشا طرازاً فى مصر معدوم النظير ، هو واضع الحجر الأساسى للاستقلال الحقيق بإنشائه بنك مصر وشركاته وفروعه . وبهذا قام بالعمل الجدى المجدى . أدى لوطنه ما لم يستطع الزعماء أن يؤدوا مجتمعين فى صعيد واحد جانباً مما أداه وحده . إنك لن تستطيع أن تعبر أو تصور كيف أن طلعت حرب قاوم وانتصر على محاربة أصحاب الشركات والبيوتات المالية الأجنبية فى مصر ، وكيف تغلب على مثبطى الهمم من بعض المصريين .

وطلعت حرب ـ كما قال صديقى الأستاذ الـكبير محمد كرد على بك الباقعة فى معرفة الرجال ـ : « إنـكم لا تستطيعون إيفاء طلعت حرب ماهو جدير به من التقدير وعرفان الجميل ، حتى لو أقمتما له تمثالا من العسجد ، فلتقيموا تمثالا من التقدير فى كل قلب ، ليس طلعت حرب بطل الاستقلال الاقتصادى وموجده فحسب ، بل هو بطل الاستقلال السياسى أيضاً ، لو كان بجانبه آخر من طرازه لوصلت مصر إلى الاستقلال الحقيق وأنف الزمن فى الرغام .

أمين الرافعى بك (١)

ولما طلبت من الدكتور محجوب الإفضاء برأيه فى الشخصيات البارزة من معاصريه ، كان اسم أمين الرافعى بك صاحب جريدة «الأخبار» فى طليعة هذه الشخصيات قال : « هو وطنى قبل كل شىء ، مخلص لدينه بقدر إخلاصه لوطنه ، لم يخط بقلمه إلا ما يعتقد أنه الحق المحض والصدق الخالص . كان يفادى بكل شىء فى سبيل مبدئه الوطنى وعقيدته ، وكان يؤدى أمانة القلم ولم يكن يأبه بشىء إلا إرضاء ضميره وأداء واجبه ، وما كان يفرضه على نفسه من واجبات .

هيهات هيهات أن يجود الزمن بمثله فى عالم الصحافة .

كان أمين الرافعى يرى أن الصحافى ما هو إلا المدرس للوطنية دون أن يتساهل فى إلقاء هذه الدروس فى شجاعة وأمانة . وقال : كان أمين أميناً لوطنه ، أميناً لرسالته . وظل كذلك إلى آخر نسمة من حياته » .

عبد اللطيف الصوفانى بك

كان رجلا أعتبره من المثل العليا للجهاد فى سبيل الوطن ، أنفق ثروة طائلة فى سبيل القضية الوطنية . كان جُنَّةً لكل وطنى ، ووقاية

(١) كان سؤالى للدكتور محجوب عن رأيه فى أمين الرافعى بعد انتقاله إلى رحمة الله بسنين عديدة .

لـكل مطارد من الوطنيين ، لم يكن للصوفانى ند فى هذه الناحية .

لقد كانت له مخابىء فى جهات شتى وقرى مختلفة لإخفاء الوطنيين عن أعين الرقباء والمطاردين .

محمود فهمى النقراشى باشا

هو سياسى بعيد النظر ، صلب الرأى ، إذا اقتنع برأيه لا يتحول عنه . حر التفـكير ، نزيه ، نظيف اليد . لم يجن لنفسه عن طريق الوظائف فائدة ، ولم يترك فرصة للمتصلين به أن يستغلوه لفائدتهم الشخصية ، فيه شدة وصرامة فى نظر الـكثيرين ، ولـكن يحسن أن نغتفر له هذا الشذوذ بجانب حسناته الأخرى وتاجها النزاهة ، ولا شك أننا فى حاجة شديدة إلى نوعه من المشتغلين بالسياسة فى زمننا هذا الذى طغت فيه الاعتبارات المادية ودوافعها ، والاعتبارات الشخصية وعواملها ، فى هذا الوقت الذى انماعت فيه النفوس ، وانحطت الأخلاق وتجاوزوا فيه عن المثل العليا ، ألا نغض الطرف من صرامته المحمودة ولا سيما بعد أن طرد من النادى السعدى الدخيل على الصحافة (م . ق . ع .) حينما توجه فى صحبة ضيف شرقى كان مخدوعاً فيه ، ثم أنه قد طرد بعده أيضاً (ا . ح .) ؟

العلامة محمد كرد على بك

هو عالم تاريخى أمين فى النقل والرواية ، يعطى كلَّ ذى حق حقه ، حبيب ومحبوب للفقراء ، مشجع للمتعلمين ، عدو للمتعاظمين ، محقـّر

للمتكبرين . وهو بعد ذلك شموس أنوف عيوف ، يكره الشهرة ، ويمقت الذين يجرون وراء الشهرة ، ويمعن فى ردعهم ، ما دخل الحرام فى يده ، ولا قبل من أكل الحرام ولا جالسه ، شفاف النفس ، بعيد النظر ، عبقرى الفكر ، يتأفف من المديح الذى يزجى إليه من المرائين ، غير أنه يقبل المديح من المخلص الوفى فى حياه . ينصف أصدقاءه وخصومه من الكتاب والأدباء على حد سواء ، يظل بعيداً عن الغرض الشخصى ، متنائياً عن الهوى النفسى ، يضع كلا من لأصدقاء والخصوم فى مواضع الإنصاف النزيه . وهو بعد ذلك «نسيج وحده» فى تقدير الرجال ، بل قل : « فريد عصره » .

ولقد كان حينما يعمل فى الصحافة من أساطينها ، أدى أمانة القلم ، فهو من هذه الناحية صنو المغفور له أمين الرافعى .

ابراهيم دسوقى أباظه بك (باشا)

ذو خلق متين ، ووطنية ، وغيرة بعيدة المدى ، جبل على معاونة كل وطنى ولو كان فى صفوف خصومه ، كان أول موظف قدم استقالته من المصريين فى سنة ١٩١٩ احتجاجاً على ضرب القرى المصرية بالمترليوزات الإنجليزية ، وهو من بناة الوفد المصرى فى أثناء تكوينه للمطالبة بالاستقلال . وبعد أن ترك الوظائف الحكومية ظل يجاهد فى سبيل الوطن بالجهد والمال . ومن عجب أن الوفد الذى اشترك فى بنائه — بعد انشقاق أكثريته عنه — ظل يهاجمه بواسطة أصحاب الصحف المشتراة بالمال ، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا

أن ينالوا منه منالا . ولا عجب فقد كان الذين يوحون إلى الجرائد بالحملة عليه يعملون فى الوفد نظير أجر يتقاضونه من مال الأمة وهو المال الذى ساهم ابراهيم دسوقى أباظه بك فى دفعه إلى خزانة الوفد !

وإنى أعلم أن دسوقى أباظه لم يتردد يوماً ما فى معاونة الوطنيين الذين كانوا يلجأون إليه .

قال لى من أثق به : « إن الكثيرين الذين سبق أن أساءوا إليه بإيحاء من خصومه طرقوا بابه ، فألفوا أنفسهم فى حصن حصين من العوز ، ولم يذكرهم بسابق إساءتهم إليه ، بل كان يقف منهم موقف الحيي » .

يظنه بعض الناس ساهياً ، وهو اليقظ الحذر ، الذى لا يخدع ولا يُخدع . وبعد ذلك فهو الصريح الشجاع ، والوطنى بأجلى ما فى كلمة الوطنية من معان ، كانت داره معقلا من معاقل الحركة الوطنية فى سنى ١٩١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ .

وأخيراً ... هو باق على خلاله وسجاياه ؛ لم يغيره نكران الجميل ممن أحسن إليهم .

محمد حافظ رمضان باشا

رئيس الحزب الوطنى

يجمع بين الوطنية والكرامة ، والذكاء ، والإباء ، والنزاهة ، وإنى لأذكر أن شموخ الأنف وعزة النفس كانت تتجلى فى حافظ رمضان فى عهد تلمذته .

كان أصدقاء التلمذة يتذاكرون فى يوم ما ، ولما دخل والده عليهم مجتازاً حجرة المذاكرة ، وقفوا احتراماً لوالد صديقهم ، ولكن الوالد لم يرد عليهم تحيتهم ، فاذا بحافظ يغضب غضباً شديداً ويدخل على والده محتجاً على عدم رده التحية على أصدقائه ، وأنه يعتبر ذلك إهانة لضيوفه وزملائه فى الدراسة ، فسر الوالد من اعتداد ابنه بنفسه واعتزازه بكرامة أصدقائه ، وهو فى تلك السن الباكرة .

أليس ذلك دليلا على سمو أنف حافظ رمضان حتى فى صغره .

وحافظ رمضان الآن فى نظرى لا يبارى فى تضلعه فى فقه القانون الدولى ، وإلمامه الكامل بالعلوم السياسية والتاريخية ، وإنى أعتبره حجة فى السياسة المصرية ، وأنه السياسى المصرى الصريح . وهو من أقطاب رجال القانون والأدب ، إذا كتب ، أو خطب ، أو حاضر .

مصطفى النحاس باشا

هذا رجل كان يمثل الوطنية طالباً فى معاهد العلم ، والنزاهة الكاملة والشجاعة الشاملة قاضياً ، والاخلاص المتفانى وهو عضو فى الوفد وسكرتير له ، وكذلك كان ، حينما كان منتمياً إلى الحزب الوطنى ، ولما كان محامياً كان ذلك المحامى المخلص فى عمله ، والذى لا يترافع فى قضية إلا إذا اعتقد أن موكله على حق .

وإنى أذكر للحقيقة والتاريخ : أن أحد أصدقاء التلمذة قد توجه إلى مصطفى النحاس المحامى ليوكله فى قضية وقدم له مئة جنيه مقدم أتعاب . وكان هذا الصديق هو حسن حمدى بك الشاعر المحجب ، والعالم

المتخفى ، فإذا بالنحاس يرفض رفضاً باتاً أن يترافع فى قضية ابن ضد والدته ، على الرغم من أن النحاس باشا كان يعانى يومئذ عسراً مادياً ، فإنه رفض أن يقبل مثل هذه القضية العائلية . فلما قال له الموكل : إن القضية فى الحقيقة هى ضد الذين يؤثرون على والدتى ، وذلك لأنها أصبحت محدودة التفكير ، سيئة التدبير نتيجة مرض عصبى أصيبت به ، فقال النحاس باشا : « ولو . . . أحب أن تذهب إليها وتقبل يدها ، أقول لك ذلك للإنصاف »

أما النحاس باشا الزعيم ، ورئيس الوفد أخيراً ، وبطل ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، فلأترك الحكم عليه للتاريخ . هذا الرجل الذى رفعته الأمة فأبى إلا . . . . . وسبحان مُغيِّر النفوس ، ومُقلِّب القلوب ، نسأل الله حسن الختام .

حمد الباسل باشا

كان صورة واضحة لشجاعة البدوى ورقة المتحضر ، كان سخياً ، وفى طليعة المجاهدين الأبرار ، ولن أنسى كيف أنه وقف أمام المجلس العسكرى الإنجليزى فى سنة ١٩٢٢ يقول لرئيس المجلس : « لكم أن تحكموا علينا ، وليس لكم أن تحاكمونا » يقصد أن المجلس ليس هو صاحب الأمر الشرعى ، وحينما صدر الحكم عليه بالإعدام نادى بأعلى صوته المتزن القوى : «لنمت ولتحي مصر » .

وحيد الأيوبى بك

هذا رجل كريم بأجلى ما فى كلمة الكرم من معان ، يجمع بين الشهامة والأريحية الوافرة ، والتواضع المحمود حيال من هو أقل منه ، والتعالى والتكبر إلى حد التجبر حيال المتعاظمين والمتكبرين ، لا يتردد عن فعل مكرمة ، ولا يتحرج عن إحراج الطغاة وذوى المراكز العالية الذين يتباهون بمراكزهم .

حفنى محمود بك (باشا)

هو أديب عميق ، رشيق العبارة ، سلس الأسلوب ، واسع الاطلاع ، لا يتكلف فى كتابته ولا يتصنع ، وإنه لكريم النفس ، أريحى الكرم . فلو أنه عُنِىَ بالتأليف لكان فى طليعة المؤلفين المحسنين المجيدين .

أما الشهرة التى لازمته ـ وقد تلازمه ـ وهى « أنه رب المقالب » وأن أحداً لم ينج من مقالبه من المتصلين به ، فإن سبب جنوحه إلى هذا النوع من الدعابة ، هو أنه حينما رأى الزعماء يرفعون الوضعاء من محاسيبهم على ذوى الكفاءة والنزاهة ، ويضعون كل شىء فى غير محله ، حينما رأى ذلك ركن إلى تضييع الوقت فيما سموه بالمقالب ، وما هى إلا دعابة مع الأصدقاء ، وتهكم على الزعماء ومحاسيبهم الإمعّات الذين تسنموا مراكز ليسوا أهلا لها ولا جديرين بها ، وهو العليم بأن كل البضاعة التى أزجاها الرقعاء إلى الزعماء ، هى الرياء ، وهى النفاق ، وهى التقرب الرخيص ، أى تحسين مقابح الزعماء إليهم ، تلك هى

الأسباب التى جعلت حفنى محمود يركن إلى التهكم فى دعابة ، واتخاذه وسيلة للنقد . وأخيراً . . . إنه حر الرأى ، أقول ذلك لأنه الحق بالرغم من أنى أخاصمه كثيراً .

* * *

كان سؤالى للدكتور محجوب عن رأيه فى حفنى محمود بك (باشا) فى سنة ١٩٣٢ ثم فى سنة ١٩٣٦ ثم فى سنة ١٩٣٨ ، فكانت الإجابة واحدة فى كل هذه السنين .

مكرم عبيد باشا

حقاً هو خطيب العواطف ، وإذ يلقى خطبته ، أو يدبج مقاله ، أو يدلى بحديثه ، فكأنه يوقعه على قيثارة ، صديق ودود ، وعدو لدود ، فهو ملاك فى صداقته ، شيطان فى عداوته ، جبار فى خصومته . . .

محمود عبد الرازق باشا

قال الدكتور محجوب : « كان محمود عبد الرازق باشا وطنياً مخلصاً ، رجل أفعال لا أقوال ، كنت أراه فى غاية الهدوء فى الظاهر ، مع أنه فى الحقيقة يحتدم ثورة . كان رجلًا يجمع بين العلم والتواضع المحمود ومكارم الأخلاق . ولا عجب فى ذلك ، فإنه سليل آل عبد الرازق الذين اعتبرهم المثل العليا للبيوتات الكريمة ، وعناوين التمسك بالتقاليد العربية الإسلامية فى أزهر أيام الحضارة العربية . . هو سليل بيت ، يوقر صغيرهم كبيرهم ، ويرحم كبيرهم صغيرهم .

وبيت آل عبد الرازق على العموم بيت علم وفضل وكرم وإباء .
إن لهذا البيت لمكانة سامية فى قلبي .

كان محمود عبد الرازق رجل إدارة ، وكان نزيهاً وحازماً . ولما ترك الإدارة واشتغل فى الحركة الوطنية ، وأصبح سياسيًّا ، كان نزيهاً فى سياسته ، كما كان نزيهاً فى الإدارة . وقد عرضت عليه الوزارة مراراً ، ولكنه زهد فيها . وقد ألح عليه فى وجودى محمد محمود باشا ، ولكنه رفض رفضاً باتاً تولى المناصب الوزارية ، وأنه فى طوال مدة اشتغاله بالسياسة كان عف الضمير لم يهتم يوماً ما إلا بمعالى الأمور .
لم يجرد سلاحاً من تلك الأسلحة غير الشريفة التى يجردها بعض السياسيين ضد خصومهم .

محمد على علوبة باشا

هو وطنى بعيد النظر ، يجمع بين العلم والنزاهة ، والشجاعة الأدبية وحسن الخصال ، وشرف القصد . هو من البقية الصالحة من رجالات مصر العاملين من حيث الوطنية والكرامة ، كما أنه شديد البغْضة للمرائين .

المصرى السعدى باشا

هو ذلك البدوى الذى جمع بين الذكاء الطبيعى والعبقرية الملائمة لبيئته . . اختير رئيساً للوفد فى الوقت العصيب الذى نُفِىَ فيه سعد إلى جزيرة « سيشل » ، وهو الذى قرب بين القصر وبين سعد بطريقته البدوية ، وأزال كثيراً مما علق فى ذهن الملك من ناحية سعد .

وإنى أروى لك ما حدثنى به سعد عنه ، قال لى : « صدقنى يامحجوب إنى أعتبر المصرى باشا كوالد ، مع أننا نكاد نتساوى فى السن ، وإنى أتفاءل بهذا الرجل ، فلولا المصرى السعدى باشا لطالت أيام منفاى إلى سنين عدة » .

وقد قال لى سعد يابنى : « اضطلع المصرى باشا برياسة الوفد فى وقت كان فيه الصائدون فى الماء العكر ، يدسون لى ، ويوغرون صدر الملك العظيم علىّ . فلما نفيت إلى سيشل ، إذا بهذا البدوى النصيح الصريح ، يقضى على كل الدسائس وأنا فى منفاى . ويصورنى لدى المليك فى صورة لعلى كنت أعجز عن الظهور بها . إن عقلية هذا الرجل البدوى لتزرى فى بعد مداها واتساع أفقها بعقلية الكثيرين من خريجى الجامعات ، إنه يامحجوب أحب إلىّ من كثيرين من زملائى » .

هذا يابنى رأى سعد فى المصرى السعدى باشا الذى أرى فيه صورة للبدوى النقى فى شجاعته ووطنيته وفدائيته وإخلاصه ، ووفائه ، وحسن رأيه .

ابراهيم الطاهرى بك

تتجلى فيه صفات المجاهد المخلص فى جهاده ، وهو رجل كامل فى رجولته ، طبيعى فى أريحيته ، سليم فى إنسانيته ، غير أنه يختطف أصدقائى ويضمهم إلى حزب الأحرار الدستوريين ، وإنى أصفه بصفة لا يشاركه فيها آخر ، وهذه الصفة هى أنه متصوف سياسى .

قلت : أريد تفسير ذلك .

قال : كل عضو فى الأحزاب يتحرق على أن يصبح وزيراً إلا إبراهيم الطاهرى بك ، عرض عليه محمد محمود باشا منصب وزير الزراعة حينما وجد المتنافسين الراغبين فى هذا المنصب كثيرين ، فاذا بابراهيم الطاهرى بك يرفض . ولما سئل عن سبب الرفض ، أجاب : إنى لا أعرف النفاق ولا الرياء ، لذلك أخشى إن قبلت الوزارة أن أخرج منها وكل أصدقائى قد أصبحوا خصوماً لى . ثم قال لمحمد محمود باشا : إنى عضو فى حزبك محبة فيك ، لا طمعاً فى أن أصبح وزيراً أو أظفر بمغنم .

إن ابراهيم الطاهرى بك ياولدى متصوف سياسى ، ثم هو دمث الخلق ، أريحى ، كريم النِّجَار .

فكرى أباظة بك

وطنى كما ينبغى أن يكون الوطنى ، مخلص لفكرته ، أمين لمبدئه وعقيدته ، كاتب عبقرى ، ينفرد بأسلوب خاص به ، على أنه يميل إلى الدعابة المقصود بها الجد ، إنه لو تسامح فى مبادئه ووطنيته بعض الشيء لكان وزيراً من زمن بعيد . قارن ، إن جازت المقارنة ، بينه وبين بعض من تولوا الوزارة ، أفلا ترى أنه أحق وأجدر بها من كثيرين ؟ !

وقال الدكتور محجوب : « أتذكر ما كان يكتبه فى الأهرام بلسان المرشحين أنفسهم للنيابة ، متهكماً ومحذراً إياهم من عاقبة التنافس . هذا يقول أنا (عدليست) أى نسبة إلى عدلى باشا ، والآخر يقول

أنا (سعديست) نسبة إلى سعد باشا ، أما الذى أنفق ماله ولم يظفر بكرسى النيابة فيقول أنا (فلست) نسبة إلى الإفلاس ، وهكذا له هذا الأسلوب البارع .

فكرى أباظة يا ولدى ، فى مجلس النواب نعمة وبركة على الوطنية وعلى التقاليد البرلمانية ، فإنك تراه عند ما تجنح أغلبية برلمانية إلى الطغيان وخنق الرأى — فى أى عهد — سرعان ما يقف غاضباً ثائراً للحق والحرية ، ثم محذراً ومنذراً ومدافعاً عن التقاليد البرلمانية ، وتاج نزاهته ، وعنوان شجاعته ، هما إنه لم يجامل رئيس حكومة أو أغلبية على حساب الوطن والرأى ، كما أنه لم يخش سطوة أية أغلبية قط ، وفوق ذلك تراه المتحدى اللبق الباقعة فى التحذير ، وإنه الكاتب البارع ، والخطيب المِصْقع المقْنِع .

بدوى خليفه بك (باشا)

قلت : — ما رأيك يادكتور فى بدوى بك (باشا) .

قال : — هو نزيه مخلص فى عمله الحكومى ، يرهق نفسه وهو من الطراز الممتاز من رجال الإدارة ، على أنه يحاول أن يرضى الناس جميعاً مع عدم الجنوح عن النزاهة : نزاهة اليد ونزاهة الفكر ، ولكن هل يستطيع ، وحساده كثيرون ، أن يرضى الناس جميعاً .

قلت : زدنى إيضاحاً .

قال : حسبك هذا .

الأستاذ (م . ا)

قلت : — ما رأيك يا دكتور فى « م . ا » الصحفى وصاحب جريدة ؟

فأجاب : — الذوق يمنعنى أن أبدى رأيى فيه لتصفه ، والقانون يحول بينك وبين ما يصح أن تثبته ، إنه من تجار الوطنية ، ومضللى العقول وشطار الضحك على ذقون المتصدرين للزعامة ، وهو فى المجتمع المصرى وصمة وفى جبين الصحافة بصقة ورمز وعنوان للمتاجرين بالقلم والرأى .

عبد الستار الباسل بك

هذا زميل السجن والتشريد ، ورفيق الاعتقال والنفى ، هو رجل فى مواقف الرجولة ، أريحى فى مواطن الكرم ، وكثير من أعماله المجيدة ينسبها إلى أخيه الأكبر « حمد الباسل باشا » ليضيفها إلى مكرماته . وهذا عجب فى الإيثار لم نر له مثيلاً ، بل هو إجلال الأخ الأصغر لأخيه الأكبر ، وهكذا كان القدامى من العرب وكلاهما البدوى المعتصم المعتز ببداوته ، غير الذاهل عن الحضر ، وكلاهما صورة مثالية لبقايا السيوف من العرب الذين أنشأوا دنيا الفتح فى شمال أفريقيا ، وكل ما آخذه عليه أنه لا يزال حزبياً .

محمد رياض باشا

قانونى بارع ، نقى الذمة ، نزيه ، وهو فوق علمه فى القانون من علماء الآثار ، جميل الخُلُق ، وفّى لأهله ولأصدقائه .

هو محدث ، واسع الاطلاع ، حر الفكر ، من أكثر الناس شفقة على الناس (محمد رياض كان المستشار الملكى لقلم قضايا وزارة الأشغال وكان وزيراً لها) .

محمد توفيق دياب (بك)

كاتب مبدع ، أسلوبه السهل الممتنع ، وإنك لتقرأ ما يدبجه يراعه ولو كان ضد فكرتك ، ولكنك لا تمله ، ولا يسعك إلا أن تقرأ كتابته راضياً أو غاضباً ، وهو إذ يكتب قوى الحجة ، وإذ يملى تراه حاضر البديهة ، ليته يجمع بعض ما دبجه يراعه فى كتاب مرقوم ، وعندئذ سيضاف إلى المكتبة العربية والأدب سفر له قيمة تضارع ما خلفه الجاحظ وأبو حيان التوحيدى على الأقل . وأسلوبه هو الأسلوب المعجب المطرب .

وإن الأستاذ « توفيق دياب » هو الخطيب المبدع ، أوتى السلاسة والسهولة ، وإنه لمحدث ، حلو الحديث من الطراز الأول ، قرأت لكتاب يقوون ويضعفون ، أما توفيق أجده يقوى دائماً ويحسن أبداً ، إنه فى أمسه أقوى منه فى غده .

أحمد عرابى باشا

ظُلم أحمد عرابى حياً وظُلم ميتاً لاعتبارات داخلية وخارجية . ومهما يكن من أمر ، فإنه كان وطنياً مخلصاً ، خانه الحظ ، وخانه الناس !

ولقد عرفت الكثير من أسراره السياسية بعدعودته من المنفى ، وإنى لأذكر كيف أنه ، كان كلما مررنا بحى عابدين واجتزنا ساحته ، تعاوده ذكرى مظاهرته العسكرية التى تظاهر بها غضبة لمصر وللقومية المصرية ،

فكان يزمجر كالأسد الغاضب ، متوجعاً من مرارة الذكرى ، ذكرى الغضبة التى أراد بها الخير لمصر والوطنية المصرية ، فانقلبت عليه نكراناً من بعض المؤرخين الذين شوّهوا ـ عمداً ـ وطنيته التى شقى بها غرساً ، وجناها مراً ، وجنتها معه مصر حنظلا بفعل الدسائس الأوربية ، ومكائد قناصلها فى مصر . ولا مراء فى أن عرابى هو واضع حجر الأساس للاستقلال القومى الصحيح لمصر بعد محمد على الكبير .

ولكن الإنجليز الذين كانوا يُعِدون أهبتهم لاحتلال مصر من زمن بعيد ، قد أتوا على ثمرة هذه النهضة بهزيمة عرابى الباسل فى معركة التل الكبير التى كان سبب هزيمته فيها خيانة الآبقين المتخاذلين من بعض عرب الشرقية .

ولما كنت جد مشوق للاستماع لحديثه عن ذكريات المعركتين البارزتين فى الحرب العرابية : معركة كفر الدوار ، ومعركة التل الكبير . قال : أما معركة كفر الدوار فقد تجلت فيها بسالة عرب البحيرة من قبائل أولاد على ، وبطونها ، وأفخاذها ، وأخواتها ، من بنى عونة ، والهبجة والجميعات فلم يستطع الإنجليز زحزحتهم عن مواقفهم ومنوا بالهزيمة التى ردتهم خاسرين ، وهى الموقعة التى صاح فيها جد حسين عبد السميع بك من أعيان تلراك شرقية : « عيب يا عرب اثبتوا » وقد ثبتوا كما ثبتت الفرقة السودانية .

أما معركة التل الكبير ، وهى المعركة التى تدنس فيها البعض بمغنم الرشوة ، فكانت من أسباب نكبتنا بالاحتلال الممقوت .

وخلاصة القول : فإن عرابى كان وطنيًّا وكان مخلصاً ، ولكنه

كان سيء الحظ ، وقديماً قالوا : « ولأم المخطى الهبل » .

وقال الدكتور : إن عرابى باشا قال له : « لو أن معظم فرق الجيش وقفت موقف الفرقة السودانية التى ظلت تدافع مستميتة فى القتال حتى فنوا عن آخرهم ، لرددنا الإنجليز عن ديارنا » ، (يؤيد ذلك ما ذكره احمد شفيق باشا فى كتابه : مذكراتى فى نصف قرن ـ ج أول ص ١٩٥)

الأستاذ « ع . . . »

قلت : — ما رأيك يا دكتور فى الأستاذ « ع . . . » ؟

قال : — هو كاتب لا شك فى أنه واسع الاطلاع ، له أسلوبه الخاص ، على أنه أهوج غضوب ، يغضب بلا سبب ، مغرور ، مادى ، أنانى ، حقود ، إذا رأى شاباً يكتب فى جريدة أو مجلة ، إذا لم تكن كتابته مصحوبة بالمدح فيه والقدح فى خصومه ، أنكر عليه القدرة على الكتابة ، وهو ملحد ، يقول الشعر سخيفاً ، وسمجاً بارداً لاروح فيه ولا حرارة ، ثم يزعم أنه بذ الأولين والآخرين . هو من حملة ألوية الكذب والاختلاق ، شؤم على نفسه ، وعلى غيره ، حقد على شوقى حياً ، وأنكر عليه شاعريته ميتا ، هو مغتر بنفسه ، يدعى أنه شاعر الكون الذى لم يُخلق مثله ، وليته يعتقد أن الذى خلقه هو الله ، فلعله يزعم أنه خلق نفسه .

أمثال هذا المغرور هم الذين ضللوا الأفهام وأفسدوا الأخلاق ، وقلبوا الأوضاع ، وأفسدوا بعض الأذواق .

على أيوب بك

حينما انتخب الأستاذ على أيوب بك وكيلاً لمجلس النواب سألنا الدكتور رأيه ، فكان رأيه هو رأيه فيه يوم تولى وزارة الشؤون الاجتماعية قال :

ــ هو رجل متين الخلق ، رصين العقل ، رزين الأسلوب ، واسع الاطلاع ، تراه دائماً يضيف جديداً إلى قديم ثقافته وعلمه ، وهو واسع الصدر ، جلد ، أما إذا نفد صبره فهو القوى ، ثم أنه من الطراز الأول فى الرجال . على أنى ما رأيت أحداً مثله يقابل كوارث القدر ومصائب الدهر بصدر رحب ، وصبر جميل .

يابنى ، على أيوب ، هو باقعة فى التحليل النفسى ، وهو القانونى العبقرى ، نابغة فى معرفة الرجال ، إنه يعرف كيف يختار أصدقاءه ، ويعرف كيف يعامل خصومه وحاسديه . إنه شجاع ، وبعيد النظر .

قلت : أود أن تذكر لنا شيئاً من مواقفه .

فأجاب :

ــ إليك نموذجاً من شجاعته وبعد نظره وتنبئه : لما رأى أحد الزعماء من زملائه قبل الانقسام الذى حدث فى أحد الأحزاب قد حاد عن طريقه ، حذره فى دعابة مقصود بها الجد .

ففى أحد الأيام أقام زميله الزعيم مأدبة وأخذ يظهر الإعجاب بتنسيق حديقة داره ، محاولا أن يبهر الحاضرين ، متحدثاً بذوق التنسيق ،

ومحاولا أن ينتزع منهم عبارات الإعجاب .. عندئذ أخذ على بك ينقد تنسيق حديقة الدار انتقاد الخبير بفن الحدائق ، ثم أخذ يبرز مواضع قلة الذوق ، فإذا بالزعيم الزميل يرتاع ويضطرب ويقول : « أنا أتحمل انتقاداتك لسياستى ، ولكنى لا أريد أن أتحمل ما يترتب على نقدك الحديقة وتنسيقها » .

قال لى الدكتور : « إذا قدّر لك أن تتناول ما ذكرته لك تحليلاً وكتابة ، فأرجو أن لاتذكر الأسماء وحسبك ذكر الحادثة تعليما للناس وتذكيراً ، وحتى لا تسجل عليهم هذه الأمور ، وقف عند مواضع العظة ومواطن العبرة ، وابتعد عن مزالق الأخلاق » .

ثم قال : « اقنع بهذا القدر عن على أيوب المحدث العالم ، وهات ما عندك من الأنباء » ولم تكن عندى أنباء ، فقال : « إذن ناولنى الجزء الحادى عشر من كتاب الأغانى ، والجزء الرابع من مجانى الأدب ، ضعهما هنا بجانبى ؛ ولا تنس مختارات البارودى » .

المؤلف : لم أك أعرف على أيوب بك وقتئذ ، فلما عرفته ألفيته كما صوره محجوب ـ رحمه الله ـ . فقد كان المحلل النفسى كما كان الطبيب الشرعى .

الأستاذ عبد الرحمن البيلى

س ـ ما رأيك يا دكتور فى الأستاذ عبد الرحمن البيلى ؟ ..

ج ـ هو من شباب الحركة الوطنية ، ومن زملائنا الذين أججوا نارها ، ومن رفقائنا فى السجون والمعتقلات ، اشترك اشتراكاً فعلياً

فى إدارة الثورة وتوجيهها ، خاطر فيها إلى أقصى درجات المخاطرة ، بل لقد كان من حطبها ونارها ، وكان على اتصال وثيق بالقائد الحقيقى للحركة الوطنية عبد الرحمن فهمى بك ، ولكنه لما رأى أنه قد غمط حقه ، وأنكر فضله ، وأبعد جنوده المخلصون عن القيادة ، وجىء بدلهم بمن كانوا موضع الشك ، ومحل المغمز لدى القائد الحقيقى ، جنح إلى الاستقلال عن الأحزاب ، وركن إلى خدمة بلاده مستقلاً عنها .

محمود الغزالى بك

سألت عنه الدكتور عند ما عُيِّن مديراً للبحيرة . فقال :

— وصل إلى هذا المنصب متأخراً ، وهو إدارى حازم ، وقد يكون فيلسوفاً فى رجال الإدارة ، يظنه الذى ينظر إلى الرجال نظرة سطحية متكبراً مزهواً ، محباً للسلطة والسلطان والأبهة ، يشيع ذلك حساده من أمثال (ا . ص .) ذلك الثعبان البشرى يدس له ويشى به دائماً (راجع فصل الجهاد الشاق).

ثم قال :

— إن محمود الغزالى يعرف واجبات وظيفته وحدودها ، ومتى وكيف يقف حيال رئيسه إذا جنح عن الجادة ، ويجيد معاملة مرءوسيه ، ويعرف كيف يوجه مرءوسيه التوجيه الحسن إذا كانوا أكفاء ، ثم هو حازم صارم مع المهمل .

وهو كريم المنبت ، شريف المحتد ، طيب القلب .

الأستاذ محمود عمار

(الملقب بشاعر الرعاع)

هو من المبكرين فى التضحية ، ومن الذين ساهموا فى الثورة بنصيب كبير ، ومن الذين لم يعلنوا عن أنفسهم ، ولم يملأوا الدنيا ضجيجاً وادعاء ، ومن الذين ارتفع على أكتافهم الكثيرون ، وقد تنكروا له ، بل حاولوا هدمه بعد أن غمطوا حقه ، وقابلوا إحسانه بالإساءة ، واغتالوا جهوده ، بل حاولوا النيل منه جاهدين . وكل ذنبه ، يا بنى أنه صريح واضح ، لا يحسِّن مقابح الزعماء ، ولا يُدَاجى ، ولا يحابى من أحبه ، ولا يتجنى على أحد ، ثم هو شاعر مطبوع من شعراء الحركة الوطنية الذين أشاعوا الحماس فى النفوس ، وهو شريف النفس ، أنوف وأبى ، وإنه من ضحايا الوطن الأحياء .

الدكتور (ز . م .)

قلت : « ما رأيك يادكتور فى الدكتور (ز . م .) » .

قال : « هذا مخلوق أنانى ، حسود ، حقود . آدمى سفيه ، سفاهته ممزوجة بالغرور ، والجنون ، وقبح الادعاء . على أن جهل الجاهل خير من علمه .

إن من عيوب صحافتنا أن تترك مجالاً لمثل هذا الدعى الثقيل الظل ، المتظرف ، والدميم ، المتحالى ، يشتم الناس ليُشتم ليشتهر

ولو يشهّر ، ولو باللعنة عليه وعلى آبائه .. يبذل جهده ليذكر اسمه ولو مصحوباً بأقبح الصفات وأقذر النعوت .

لو أننا أردنا أن نقيم تمثالا للنفاق والرياء ، والانحطاط الخلق لما وجدنا غير هذا المشاء ، الفاسد المفسد ، الذى يدعى فى غير ماحياء ولا خجل : أن له فى كل عاصمة ومدينة وقرية ودسكرة ، وتحت كل حجر وفوق كل شجرة حسناء تهيم به ويهيم بها .

ومن عجب أن يسمح بعض أصحاب الجرائد عندنا لهذا الرقيع بصفحات يسودها بتلكم السخافات الجنونية المائعة المحطمة للأعصاب .

— أليست له حسنة يادكتور .....؟

— إنه الدليل القائم الحى على صدق الحديث الشريف وحكمته : « لا تعلموا أولاد السفلة العلم » .

قلت :

— زدنى إيضاحاً .

قال : — ما دخل بيتاً إلا أشاع الفتنة فيه متستراً بستار العلم ، ومتبرقعاً بقناع الأدب ، ودائماً يحاول أن يلص عرض كل بيت دخله دخول الأمراض المعدية . ليته ظل فى القرية يجر المحراث بدل الثور ، أو يحمل السباخ بدل الحمار ، أو ينبح الطراق بدل الكلب الأكلب ويعوى بين الجداول والمزارع بدل الذئب الأجرب ليته .. أما الآن فهو بعد أن نكبت به الأوساط العلمية ، ورزئت به دور التعليم ، ثم بعد أن كدرت به المنتديات الأدبية والصحفية والثقافية ،

يظل ينبح على كل ذى خلق كريم بكتابات يدبجها تحت تأثير المشروبات الكحولية الرخيصة ، فيجىء الفكر رخيصاً ، والهجو سخيفاً ، مقروناً بالادعاء العريض ، الرقيع ، والزعم الصفيق ، الذى يضارع صفاقة وجهه . أو لم تصب به ، وإنى أعيذك أن تنكب به عقب مقال ينشره فى مجلة أو جريدة ترزىء القراء به . أو لم تسمعه عقب مقال كتبه : إن هذا الذى كتبته ، لم يكتب كاتب مثله ، من يوم أن وجدت اللغة العربية . ولن يكتبه كاتب ، إنه يتمشدق بكل هذه الرقاعات . . يقيناً يا ولدى لولا هذا الذى لا يفيق من الرقاعة ولا من الخمر ، لولا خشيته من غضبة الأزهريين ورجال الدين ، وحتى المنصفين من المسيحيين ، لزعم فى سماجة أن أسلوبه الكتابى أعلى من أسلوب كتابنا السماوى والحديث النبوى .

ثم قال الدكتور بعد حديث يطول سرده :

ــ إن أمثال هذا : هم الذين أشاعوا النفاق والرياء ، هم الأسباب المباشرة فى عدم نجاح حركتنا الأدبية ، ولكن ليس هؤلاء وحدهم هم الذين يتحملون المسئولية ، بل المسئولية الكبرى إنما تقع على أصحاب الصحف والمجلات التى تفسح صدرها لهؤلاء الأدعياء ، وفى الوقت نفسه يحبسون آراء النبلاء من الوطنيين الشرفاء .

وهنا تحمس الدكتور وقال :

ــ قم واذهب إلى صاحب تلك المجلة « القيمة » التى يتخذها هذا الرقيع منبراً ، وقل له : لا يجمل بك أن تجعل مجلتك الثمينة رسول غرام وسفاهة لهذا الكاتب المائع الذى يتظاهر بالشجاعة

وهو الذى طالما تجسس على مواطن السر فى الحركة الوطنية ؟

وقد أدى المؤلف رسالة الدكتور التى كلفه بها ، فاختفت بعدها تلك المقالات المـائعة .

عبد الحميد بدوى باشا

سألت الدكتور محجوباً رأيه فى عبد الحميد بدوى باشا ، فأجاب :

ــ إنه العبقرى فى القانون وفى الأدب وفى بعد النظر وفى سعة الفـكر ... وقد قال لى أحمد ماهر بصراحته : « لما توجهنا فى الوفد المصرى الرسمى ، إلى مؤتمر مونتريه لإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وكان عبد الحميد بدوى باشا أحد أعضاء الوفد المصرى بحكم منصبه . كنا نحن أعضاء الوفد المصرى عالة على عبد الحميد بدوى ، فانه قد أغنانا عن البحوث القانونية ووفر علينا الـكر والفر والمد والجزر وبذل الجهود ، وفى نفس الوقت إذا بعبد الحميد بدوى يصبح إعلاناً حيًّا لمصر وعبقرية المصرى فى المجتمع الدولى العالمى . لقد كان رجال القانون الدولى وأساطين المعاهدات ، وعباقرة المواد القانونية ونبغاء الأمم الغربية ، يحيط بمندوب كل أمة جماعة السكرتيرين النابغين النابهين مزودين بالمراجع القانونية وأضابير المعاهدات التى لا حصر لهـا من عهد الرومان إلى يومنا هذا . أما عبد الحميد بدوى المصرى زميلنا فى وفد الحـكومة المصرية ، فقد كان منفرداً دونهم متسلحاً بعلمه يملأ رأسه سجل حافل وقاموس شامل وموسوعة كاملة فى كل قانون بل كان مرجعاً زاخراً لـكل ما اعتمد على مثله أنداده من مندوبى الدول .

وكم كانت دهشتنا، نحن أعضاء الوفد وأبناء مصر الذين نشأ بدوى بين ظهرانيهم ، حينما وجدنا عبد الحميد بدوى ينبرى من بيننا يتدفق بلاغة وعلماً ومعلومات مع حضور ذهن وقاد ، دون رجوع إلى المراجع القانونية، أو الاعتماد على سكرتير أو الاستئناس برأى مستشار أو معاون .

قال لى أحمد ماهر : «كان عبد الحميد بدوى موضع إعجاب ودهشة وصلت إلى حد الذهول لدى رؤساء وأعضاء ومستشارى رجال القانون الدولى . وقد جاهر رئيس الوفد اليونانى القانونى العالمى بقوله : إن عبد الحميد بدوى نابغة هذا الزمن ، ولا يقدر العظيم إلا العظيم».

ثم قال الدكتور محجوب : « إن جبرائيل تقلا باشا (صاحب الأهرام) الذى كان يرافق الوفد المصرى ، على حسابه ومندوباً لجريدته — قال له : « إنه سأل الدكتور أحمد ماهر رأيه فى عبد الحميد بدوى ، فأجابه : بأنه خير إعلان لمصر فى المؤتمر . على أن أمة تنجب أمثال عبد الحميد بدوى جديرة بأن تتبوأ مكانها بين الأمم ، فلما نوهت بجريدة الأهرام بما أفضى به إلى الدكتور ماهر بصراحته المأثورة ، خاصمنى النحاس باشا نصف عام، وخاصمنى أحد أعضاء الوفد عاماً كاملا ؟ » .

وقال جبرائيل باشا للدكتور محجوب : « لما عاتب النحاس باشا الدكتور أحمد ماهر باشا على تصريحه الذى نشرته الأهرام فلم يقبل أحمد ماهر العتاب ، بل قال للنحاس باشا متأففاً وغاضباً وثائراً : « هب أن عبد الحميد بدوى لم يكن مصرياً وشرف مصر فى مجتمع دولى ، أفلا

يجمل بنا أن ننصفه ولو كان أجنبياً . نحن أمة مظلومة ونطالب بالنصفة . فإذا كنا غير منصفين لبعضنا ، فكيف نطالب ونقنع غيرنا بأن ينصفنا ؟ ! وكيف نقنعهم بأن يعترفوا بفضلنا ، ونحن ننكر لذى الفضل منا فضله ؟ بدوى باشا رجل منا ، شرفنا ورفع ذكرنا وأقام حجتنا فى مؤتمر دولى جئنا إليه لينصفنا ، أفلا نخشى أن يقال لنا إنكم لا تنصفون النابهين النبغاء منكم ، فكيف نطمئن إلى إنصافكم لمن كان أجنبياً عنكم ؟ أم تريد ياسيدى أن يقال عنا إننا أمة تبغض القريب وتحب الغريب ؟ .. اسمع يا باشا ، لو لم يكن عبد الحميد بدوى مصرياً وزميلا لنا ، وكان مثل أى مستشار أجنبى ، لما ترددت لحظة فى الإشادة بعبقريته ، وأنا لا أحب أن ننكر لذى الفضل فضله ولو كان خصماً ، بل ولو كان أجنبياً . . . إنى لفى غاية العجب أنك تؤاخذنى على الحديث الذى أفضيت به لصاحب الأهرام ، بل إنى أحتج على ذلك ، إنى سأجاهر برأيى وسأشيد بعبقرية بدوى ولو أنه غير وفدى »

قلت : « ولكنى أحب أن أعرف رأيك الخاص يادكتور فى عبد الحميد بدوى ، بعد رأى الدكتور أحمد ماهر فيه » .

فقال : « عبد الحميد بدوى رجل عبقرى يعرف كيف يقدم ومتى يحجم ، ومتى يصارح ومتى يداور ، وفى أى ميدان يكر ومن أى موقف يفر ، وفى أى وقت يتغابى ومتى يتناوم ، وفى أى موطن من مواطن اليقظة يكون اليقظ بل الحذر .

عبد الحميد بدوى ياولدى ، هو حسين رشدى القانونى الشجاع

إلى حد ، وعبد الخالق ثروت فى المصاولة إلى حد . هو عدلى يكن فى الرزانة ، وهو اسماعيل صدقى فى هدوئه وبعد نظره وثاقب فكره ودقة تعبيره وذكائه إلى حد . أخذ عن كل هؤلاء العظماء جانباً ... هو أمة فى أمة لا فرد فى شعب » .

أحمد النشوقاتى بك

سألته عن صديقه أحمد النشوقاتى بك . فأجاب :

— هو رمز الوفاء الذى أصبح نادراً فى هذا الزمان ونزراً فى هذه الأيام التى ينقلب فيها الأصدقاء ويتخلف الأصحاب عن الأصحاب ، على أنه وإن مال كثيراً إلى أسلوب من الدعابة معى فهو بلا شك مداعب مهذب ، ويكفى أن تعلم أننى حينما كنت أجنح إلى العزلة متنائياً عن الصحاب والخلان ، كنت أجد منه العزاء الكريم والعطف الأخوى الخالص النقى فى أيام المحنة والشدة .

على الشمسى باشا

هو وطنى بالوراثة ، كان جده وطنياً ، وكان أبوه من المتطرفين فى الوطنية ، والشمسى وطنى من النوع الممتاز .

ولقد قاسى على الشمسى الأهوال فى سبيل الوطن وضحى وتحمل المشقات ، وهو من المجاهدين الذين ناصروا مصطفى كامل باشا موقظ مصر وباعث النهضة الوطنية .

انضم على الشمسى إلى الوفد وظل عضواً بارزاً ومجاهداً بالجهد والمال فى غير منّ يكدر جهاده ولا ادعاء محبوب أو ممقوت ، فلما

ألنى بعض زعماء الوفد من الدرجة الخامسة، ورثوا الزعامة بغير حق وبغير جدارة ، ثم لما رأى خصومهم من الأحزاب الأخرى يسيرون فى دربهم ، عافت نفسه النبيلة الحزبية الممقوتة وطلقها طلاقاً بائناً ونأى بجانبه عن الوفد وعن الأحزاب ، وآثر أن يعمل لبلاده مستقلاً مخلصاً لمليكه ، وليغضب من يغضب وليرض من يرضى .

إنى ياولدى أفهم على الشمسى كما أفهم نفسى، فقد كانت لى معه عشرة فى ديار الغربة حيث كنا فى سويسرا معاً .

طلق على الشمسى الحزبية وعافتها نفسه، كما عافتها نفسى، (ووضعت ليمونة مالحة تحت لسانى) تلك هى الجامعة التى تجمعنى به .

لا يعرف الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها

عبد الخالق ثروت باشا

كان أول مصرى ملأ مركز النائب العام لدى المحاكم ، وهو الذى رفع مستوى القضاء المصرى ووكلاء النيابة الذين أصبحوا مضرب الأمثال من حيث النزاهة واستقلال الرأى وإشاعة العدل بين الناس .

وقد لا يعلم الكثيرون أن ثروت باشا وهو نائب عام ، كان يحرص على أن لا يندمج فى سلك القضاء أحد إلا بعد التحرى الدقيق عن بيئته وعن وأخلاق متطلب الوظيفة القضائية ، وإنى أعلم أنه حينما تقدم ابن مطرب متجول طالباً الالتحاق بسلك وكلاء النيابة ، رفض ثروت رفضاً باتاً الموافقة ، وهدد بالاستقالة لما طلبت منه إحدى الجهات

الفضولية ذات الكلمة المسموعة تعيينه . فكان ثروت من هذه الناحية واضع حجر الأساس فى رفع مستوى رجال القضاء فى مصر .

أما ثروت السياسى الوطنى (راجع بين ثروت ومحجوب)، فقد أدى واجبه الوطنى ، وقاد سفينة البلاد فى أحرج الأوقات ، على الرغم من الحملات الشعواء التى كانت توجه إليه .

كان واسع العقل رزيناً ، ورصيناً ، وحليما جدًّا .

وقد وصفه شوقى بالعقل حينما نعت خصومه بالهوى :

شببتم بينكم فى القطر ناراً ... على محتله كانت سلاما
إذا ما راضها بالعقل قوم ... أجدّ هوى قوم ضراما

عبد العزيز فهمى باشا

هو عبقرى قبل كل شىء، وقطب من أقطاب القانون وجهبذ من جهابذة الوطنية ، وكاتب من الطراز الأول ، قوى العبارة، واسع الاطلاع ، صريح شجاع ، وهو العاصفة الهوجاء والنار المحرقة إذا غضب للحق والكرامة .

وإنه لسريع الغضب ، بطىء الرضا ، إذا أساء الظن يؤخذ عليه أنه ضيق الصدر .

حسين رشدى باشا

كان وطنياً إلى أقصى درجات الوطنية ، وكان من أكثر الناس صراحة . لم تفارقه هذه الصراحة طوال أيام حياته ، والنزاهة وطهارة اليد والجيب هما خلاصة صفاته .

لم يتردد لحظة فى مساعدة أى إنسان التجأ إليه ، وكثيراً ما رأيته ، وهو رئيس للحكومة ، يقترض من مرءوسيه الصغار نقوداً ، ويعاون من أخنى عليهم الدهر من أبناء العائلات الذين لا يسمح لهم استعدادهم بالأعمال الحكومية أو التجارية .

ومحل العجب وموضع الإعجاب عندى ، أن رشدى باشا وهو رئيس حكومة كان يستحى أن يرد طالبى رفده ، وهو الشجاع فى المواطن التى ترتعد فيها الفرائص ، والمواقف الحرجة التى يذهل فيها ذوو العقول والفطن .

حسين رشدى أبو الثورة المصرية :

قال الدكتور محجوب : « أقول لك إن حسين رشدى هو الذى هيأ للثورة وسائلها ، وهو الذى نفخ فيها من روحه وظل يراعيها وليدة ويغذيها يافعة ، ويدفعها فتية .

دبّر حسين رشدى وسيلة يحملنى بها على مقابلته فى الأيام التى كان الموظفون فيها يجتمعون فى منزل كل من الأستاذ ابراهيم دسوقى أباظه وعبد الهادى الجندى ، وقال لى : « سأفضى إليك بسر يا دكتور ما كنت تعلمه ، وهذا السر هو أنى بعثت لك من قبل محذراً لك ومنذراً إياك من نتيجة اتصالك بالموظفين الذين يشتغلون بالسياسة ، ويحرضون على الاضراب (راجع فصل مواقف وطنية) ولعلك أدركت يومئذ من إغضائى عن تصرفاتك أننى لم أكن جاداً ولكنها كانت مناورة لتضليل الذين كانوا يعدون حركاتى فى رئاسة مجالس النظار . »

تولى رشدى باشا رياسة الوزارة مرات ولكنه مات فقيراً ، وهو الذى جاهد فى سبيل بلاده فى أحرج الظروف ، ولم يطأطىء رأسه للمحتل ، بل كان يقاوم ممثل انجلترا بالعقل والروح إلى حد المخاطرة .

أما فى مفاوضات سنة ١٩٢١ ، فقد أدمى كبد اللورد كيرزون ، ومن قبل فقد فوّت على السير برونيات أغراضه الاستعمارية حين حاول قلب أنظمة القوانين المصرية ، فرشدى باشا هو ذلك المصرى الوطنى القانونى العالمى الذى وقف فى وجه برونيات قائلا : مكانك . . . ثم أذاع منشوراً سرياً على الأمة المصرية فكانت الشرارة الأولى لنيران الحركة الوطنية اقتبس منها كل مصرى وطنى .

وخلاصة القول : إن رشدى باشا هو أبو الثورة فى سنة ١٩١٩ .

كرامة وشجاعة :

قال الدكتور محجوب : إليك أنموذجاً من كرامة نفس حسين رشدى وشجاعته فى وقت كانت فيه مصر فى حاجة إلى الشجعان ذوى الكرامة :

كان الأستاذ مصطفى النحاس القاضى قد أصدر حكما عادلا يتنافى مع مصلحة الانجليز ، فامتعض ممثل انجلترا اللورد (كتشنر) ، وأرعد وأزبد . . . ثم أبرق مهدداً ، وطلب من رشدى وزير الحقانية ـ وقتئذ ـ أن يفصل هذا القاضى (مصطفى النحاس) من وظيفته فى الحال ، فأجابه ، كاظما غيظه فى بادىء الأمر :

« أتريد أن أفصل قاضياً لأنه أصدر حكما لا يعجبك ؟ إن كان لديك

دليل على أنه ارتشى فإنى أفصله بجرة قلم، أما أن أفصل قاضياً لأنه أصدر حكماً، وأنا القانونى، فهذا لن يكون».

قال الدكتور محجوب: ومن سخرية القدر أن مصطفى النحاس بعد أن انضم إلى الوفد موظفاً فيه، ساهم فى الحملة على حسين رشدى، فما أقبح نكران الجميل!!

وإليك أنموذجاً من تسامحه:

كان أحد رجال الدين - بإيحاء بعض الوطنيين وبعض الأجانب - يحمل على حسين رشدى حملات شعواء بمقالات كان يبعث بها إلى الصحف المسائية والصباحية، ومن العجيب أن كل الصحف كانت تنشر هذه الحملات الظالمة التى كان يرسلها الشيخ الكبير إليها فى صورة منشورات واجبة النشر، مع أنها كانت من صورة واحدة.

وإذا بالشيخ بعد أن نضب معين حملاته المقرونة باتهام رشدى فى وطنيته ونزاهته، وفى طهارة يده، وتفضيل غيره عليه.. يقصد رشدى باشا، ليعين أحد أقاربه فى وظيفة حكومية ثم يرقى آخر! وإذا برشدى باشا قبل أن يجيب رغبة الشيخ الدينى ويدعوه إلى تناول الطعام على مائدته. ثم إذا به يجلسه على يمينه فى سيارته ويدور به على كثير من منتديات مصيف الاسكندرية وبعض مقاهيها العامة - خلافاً لعادته - وتعمد أن يجالسه فى الأوساط المختلفة، وظل أياماً عديدة يتنقل بصاحب الفضيلة من مكان إلى آخر حتى إذا انتهى من المطاف إلى حيث منزله، فيجلسه عن يمينه على مائدته ويظل يروى له سير رجال الدين القدامى الذين كانوا يرفضون تناول

الطعام على موائد الحكام المرتشين والظالمين ، والشيخ يبتسم معجباً والرئيس يضحك مستغرباً .

ولما اعترض عدلى باشا وبقية زملائه على احتفاء رشدى باشا بفضيلة الشيخ الذى لم يترك له أديماً صحيحاً أجابهم رشدى بقوله : « إن احتفائى به لأنه قصدنى ولجأ إلىّ ، أما طوافى به على المنتديات العامة فلكى يراه الناس الذين قرأوا ما دبجه يراعه ضدى فيحكموا عليه لا علىّ . وإنى سأعين له قريباً فى الحكومة فى حدود القانون ، وسأرقى له ابناً » .

وظل فضيلة الشيخ يتناول الطعام على مائدة رشدى باشا خمسة عشر يوماً ، وفى كل مرة كان رشدى باشا يقول للشيخ : « ثمن هذا الطعام من مالى الحلال ، ولم يدخل فى جيبي طوال حياتى مال حرام ، وإنى أضعت المال الذى ورثته عن آبائى وأجدادى ، أضعته وأنا رئيس حكومة فى مصر » . . فكان الشيخ يؤمن على كلامه ، ويستشهد بالآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة على صدق ما يقول رشدى . وأخيراً قال للشيخ : « إذا عشتَ بعدى فستجد هذا مدوّناً فى مذكراتى أرجو ألا تحمل على رجل بات تحت الثرى وتكذبه » . فبكى الشيخ .

قال الدكتور محجوب : إن رشدى باشا روى له هذه القصة .

كان رشدى باشا رجلا يجمع بين الوطنية والشجاعة ، والكرامة والنزاهة ، وكان من أقطاب رجال القانون فى وقت كانت مصر فيه فى حاجة إلى كل ذلك . . .

تولى رشدى باشا الحكم غنياً ، ومات فقيراً .

عدلي يكن باشا

قال الدكتور :

ــ كان زعيما ، نبيل الخلق ، نبيل الوطنية ، متسامحاً مع أبناء الوطن إلى أقصى درجات التسامح ، فإذا انبرى مَنْ يريد أن يدافع عنه ولو بحق ، فإنه كان يتأبى . فاوض انجلترا فكان شريفاً فى مفاوضته قويًّا فى وطنيته . وكانت تتجلى فيه صفات العظمة . . . أبى أن يطعن فى خصومه الوطنيين أمام الأجانب ، وكان يرفض يابنى أن يستمع إلى طعن موجه إلى خصمه الوطنى من الأجنبى المحتل .

صالح لملوم باشا السعدى البدوى [1]

سألت الدكتور رأيه فى صالح لملوم باشا ؟ . . فأجاب :

ــ كان ذكياً بالفطرة ، وسياسياً بالسليقة ، وعلى الرغم من أنه كان محدود القراءة والكتابة ، فإنه كان أفضل من كثيرين من المتعلمين تفكيراً . كان يتغلب على الحكام ويفرض على أكثرهم آراءه السياسية ، ولا سيما الذين كان يختلف معهم فى الرأى السياسى ، دخل على حسين رشدى باشا يوماً مقتحماً مكتبه ، ولأمر ما كان صالح غاضباً ، وكان رشدى فى هذا اليوم ضيق الصدر . فإذا بصالح يهدىء سورة غضب رشدى بقوله : « إنت زعلان من ابنك فى الوطنية ونادى ، تعال ياولد يارشدى » فأخذ رشدى ظناً منه بأنه يناديه بياولد ، ولكن سُرِّىَ عنه حينما رأى طفلا صغيراً يدرُج[2] إليه مبتسما ، فإذا بصالح لملوم

(١) كان من ضمن أعضاء لجنة الدستور الذين وضعوا الدستور ممثلا للعرب .

(٢) يدرج : مشية الصبى .

يشير إلى الطفل قائلا : « بوس يد جدك الباشا ، أنا ابنك ياباشا ، ومن حبي فيك سميته برشدى ، فأنا ابنك فى الوطنية ، وابنى حفيدك فى الوطنية . وابنى الآخر سميته عدلى ليكون مثله فى وطنيته وإبائه . أأنا أسمى أولادى بأسمائكم تيمناً بكما وعناداً لغيركما وأنتما تحاربانى ؟ » ثم استطرد قائلا : « انت زعلان ياباشا ، أقوم ؟ » فإذا برشدى يرضى وتنبسط أسارير وجهه ويقول : « اطلب ما تريد ياابنى ، على شرط أن يكون طلبك متمشياً مع القانون » . فخرج صالح لملوم مقضى الحاجة راضياً مرضياً عنه من رشدى باشا .

أما الذين كان يختلف معهم فى الرأى السياسى من الحكام ، فقد كانوا يخشون بأسه ويرهبون جانبه ويعملون حسابه .

وخلاصة القول : إن صالح لملوم باشا كان فريد قومه ، لو أنه أوتى قليلا من العلم مع ذلك الذكاء النادر لنافس رؤساء الأحزاب والوزارات فى مناصبهم ومراكزهم ونفوذهم .

لقد كان صالح لملوم باشا ، معاوية زمانه فى منطقته وإقليمه ، فإنه كان يعامل بالعنف من لا يجىء إلا بالشدة ، وباللين ، الكريم العنصر ، وكان يقيل عثرات الكرام ويلتمس لهم الأعذار إذا أساؤا إليه ويخجلهم بالعطف عليهم .

ولقد كان رجلا شهماً ، جاء إلى منزلى عقب اطلاعه على نبأ حجز وزارة الأوقاف على سكنى وعيادتى وصيدليتى فى أشد أيام عسرى وأراد أن يقوم بدفع المبلغ المطلوب . . فشكرته . . . رحمه الله .

رياض الجبالى باشا (البدوى)

رأيته فى إحدى « التشريفات » متأبطاً ذراع الدكتور محجوب فسألته :

— ما رأيك فى هذا البدوى ؟ . فأجاب :

— هو رجل بدوى سمح النفس ، مفكر على طريقة ذلك البدوى الذى سئل كيف عرفت الله فأجاب : « البعرة تدل على البعير » ورياض الجبالى من الذين لم يسعوا إلى رتبة الباشوية ، بل جاءته من غير سعى ولا وساطة » . وقال : « ضمنى مجلس مع رياض باشا وأحد المنافقين المرائين النفاجين الذين يتقربون إلى حملة الألقاب بالقول الذى يجىء على هواهم — ولا سيما إذا كان وزيراً — فلما أخذ المنافق يقول معرضاً بشخصية عظيمة : « مَن هذا حتى نستمع لقوله ، أليس هو مؤلف حزب القش أو الهشيم ؟ » . ولم يكن يعرف شخصية رياض الجبالى فاذا برياض يقول له : « إن القش إذا تعرضت له النار يحرق مدينة » . قال ذلك مبتسما وعرّفه بنفسه . فإذا بالمنافق يعتذر ثم يتراجع . . . ثم يخشى عاقبة قوله . وعندئذ قال له رياض بك (باشا) : « لا تخف إن أحاديث المجالس أمانة عندى ، فاطمئن ولكن يحسن أن تترك النفاق » .

فرياض الجبالى باشا من الرجال الذين يقولون القليل المفيد فى مواطن الكلام ، ومن الذين يؤثرون السكوت احتقاراً للثرثار ، ومن الذين يحسنون إسكات المداجى بابتسامة ساخرة إذا كان المتكلم لئيما ، وبكلمة رادعة إن أغرق فى اللؤم .

فى يوم من الأيام جاءه أحد الذين يأكلون لقمتهم مغمسة بدماء الناس ، وظل يذكر له كل قبيح عن شخص كان خصما لرياض باشا ، فإذا برياض يقول له : « وفر كلامك لحين حضوره وسيجىء » فهرب المغتاب اللئيم .

وهو بدوى ، لم يذهل عن بداوته ، وفى نفس الوقت عرف الكثير عن لؤم الحضر ونعومته ، وضحك منه وسخر ولكن فى لطف .

الشيخ محمد مصطفى المراغى

ـ ما رأيك يا دكتور فى الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ المراغى ؟

« وكان سؤالى هذا عقب استقالته من مشيخة الأزهر حينما عجّزته إحدى الوزارات عن إدخال الإصلاح الذى نادى به فى الأزهر » .

قال : أؤكد لك أن مجرد استقالة المراغى من منصبه الضخم ذى المرتبات الضخمة فى سبيل التمسك برأيه فى إصلاح الأزهر ، هو عمل لا يقدم عليه أحد من مشايخ عهدنا .

الشيخ المراغى الآن درة فى تاج مصر لن تجد له نداً ولا ضريباً . فهو بعيد النظر ، هو رجل الدين والدنيا ، وصاحب فكر ورأى يكونه ثم يمشى قدُماً لتنفيذه ، وقد أفضى إلىّ أنه سيعمل على تنقية التفاسير القرآنية من الإسرائيليات ، وإنى لجد آسف على استقالة الشيخ المراغى بالرغم من أنها مشرفة ، وفيها درس لحملة العمائم .

نعم إنى آسف لأن فى ذلك حرماناً للأزهر من المراغى الذى أصبح

بحق خليفة الإمام « الشيخ محمد عبده » ينسج على منواله، ويسير فى دربه. والعجيب أن الشيخ المراغى يعانى من بعض المشايخ مثل ما كان يعانى أستاذه الإمام « الشيخ محمد عبده »، ولكنهم ينكمشون أمام ذكائه وبصيرته النافذة، وشجاعته. على أنهم كثيراً ما حاولوا النَّيْل منه فى الخفاء، والدس له فى الظلام، وطالما عاونهم بعض المتزعمين الذين لا بقاء لهم إلا بإشاعة الدجل السياسى، وخلب ألباب الطغام بالشعوذة والتضليل. غير أن الإمام المراغى، درج على الاستهانة بهم جميعاً، والقضاء على مفترياتهم ودسائسهم، واضعاً الإصلاح والصراحة والإخلاص نصب عينيه.

لقد تنبأ الدكتور محجوب فى اليوم الذى استقال فيه المراغى أنه سيعود إلى مشيخة الأزهر إذا كتبت له الحياة، وقد تحققت نبوءته وعاد إلى الأزهر مكرّماً إلى آخر نسمة من حياته، رضى الله عنه.

* * *

وإننا نقتطف ما دبجه يراع الأستاذ العلامة « محمد كرد على بك » فى الأستاذ المراغى - ولا يقدر العظيم إلا العظيم - قال:

— ومما نبغ فى مصر من المتأخرين شيخ الأزهر العلامة « الشيخ محمد مصطفى المراغى »، اشتهر لا لأنه تولى أعظم منصب فى الاسلام فقد يتولى المتوسطون بعلمهم أسمى الرتب، وهم لا يَعْدُون حفظ ما جرت العادة بحفظه، ولا تمثلوا ما قرأوه، اشتهر لأنه حريًّاً بالشهرة، جمع إلى الفقه والأصول ما تعوز العالم معرفته من أصناف العلم... ومن أهم ما ساعد المراغى على تفوقه على أقرانه أنه امتاز

بذاكرة قوية ، يذكر ما مر به من خمسين سنة لا يخرم منه معنى .
وقد جمع إلى ذكائه الفطرى استقلال الفكر ، وحب الاطلاع ، فما سد أذنيه وعينيه عن سماع الجديد والنظر فيه . . .

وصديقنا المراغى خلق عالماً ، امتاز بمرونته وما كان فيه جمود من أخملتهم التُّقية . . .

نظر وهو فى سن الطلب فى علوم لم تدخل برنامج الأزهر ، وقد قيل لى أنه تعلم اللغة الانجليزية أيام كان فى السودان قاضياً . . .

أصبح المراغى شيخاً للأزهر فى الثامنة والأربعين من عمره ، ونَدَرَ منهم من تولى هذه المشيخة وهو فى هذا السن ، فأتى بنشاط الشباب وحنكة الشيوخ ، فاهتم الاهتمام كله لإصلاح الأزهر الذى كان واضع أساس الإصلاح فيه شيخه وشيخنا الأستاذ الإمام « محمد عبده » . .

وأتم المراغى وضع أساس كليات التخصص ككلية علوم اللغة العربية ، وكلية أصول الدين ، وكلية العلوم الشرعية . . .

أجمع أنصار السيد المراغى وخصومه على أنه كان من خير من تولى رياسة الأزهر لصفات كثيرة اجتمعت له وقلّ أن تجتمع لغيره ذلك لأنه كان يعرف ما هنا وما هنالك ، ويعد من العلماء العارفين بأزمانهم معرفة ثاقبة . طلب إليه أن يترك رئاسة الأزهر ويعطى ما شاء من الأفدنة والمال فأبى ، وطلب إليه أن ينضم إلى جهة معينة فى الرأى (حزب معروف) ويكون له ولأولاده وذوى قرباه ما شاء من الكرامة فأبى وقال : « إن أولادى وإخوتى فى نظرى أقل من أن أبيع لهم كرامتى » .

ولقد انتخبه المجمع العلمى العربى عضواً مراسلا فيه فاعتذر بكثرة أشغاله قائلا : « انه استقال من المجمع اللغوى فى مصر للسبب ذاته » ودعوته لينزل علىّ ضيفاً فى دمشق ويصطاف فى ربوعه فتعذر عليه البر بوعده لأن حالته لا تمكنه من مغادرة القطر خصوصاً بعد عودته ثانية إلى مشيخة الأزهر .

لو انتفع الناس ببعض ما تفيض به قرائح المصلحين ما بقى فى الناس جهول ولا ضال ، وواجب دعاة الإصلاح ألا يتوانوا فيما تمحضوا له مهما قل المستفيدون منهم .

المراغى كان أوفر نصيب من العلم والعمل ، فهو خير شخصية نادرة بين أهل جيله ، رحمه الله رحمة واسعة .

* * *

المؤلف : وللأستاذ المراغى فوق ما كان يلقيه من دروس دينية ، وما كان يجابه به طلاب العلم بين الفينة والفينة مما يزيدهم معرفة ، ويوسع مداركهم ، تلك الإرشادات التى ألقاها فى إحدى خطبه الدينية نقتطف منها ما يلى :

أمور ثلاثة أيها المؤمنون ، هى أسمى ما يتصوره الإنسان ، جعلها الله جزاء العمل الصالح المنبعث من الإيمان : استخلاف العاملين فى الأرض ، وتمكين دينهم الذى ارتضاه لهم ، وتبديلهم بعد الخوف أمناً وطمأنينة .

والاستخلاف فى الأرض خلافة عن الله فى عمارة كونه ، وتوزيع العدل والاحسان بين عباده ، وهو يعتمد على القوة وشمول

السلطان ونفاذ الكلمة، وهو مطلب تتفانى الأمم فى سبيله، وتضحى بأبنائها وأموالها ابتغاء الوصول إليه .

وما استقامت عقيدة ولا استقر سلطان، ولا وجد مجد وسؤدد ولا شعرت أمة بالعزة إلا إذا حملتها القوة وبسطت عليها أجنحتها. وهذه المثل قائمة، وشواهد الماضى حاضرة فى الذهن ماثلة .

وتمكين الدين والعقيدة نعمة عظيمة ، ومقصد رفيع ، يتبعه استقرار النفوس وراحة الضمائر، والشعور بالعزة والكرامة . ليس أشهى إلى النفس ولا أمتع للقلب ولا أهنأ للروح من أن يرى الإنسان أن عقيدته صاحبة السلطان والنفوذ فى نفوس الناس أجمعين .

والأمن بعد الخوف أعز مطلب للفرد والجماعة . وللخوف آثار تفسد العقل وتذهب بالتفكير ، وتجعل العيش مريراً ، والحياة مضطربة . وما أحلى الأمن يستقر بعد الفرق ، وما أعذبه يتدفق بعد القلق عندئذ يندفع الإنسان نحو العمل صافى القلب ، متجهاً إلى الله ملتمساً خير العباد .

وليس الإيمان أيها المؤمنون تصورات تتخيلها العقول وتجرى عباراتها على اللسان، وإنما هو عقيدة تملأ القلب وتتبعها آثارها .

ومن آثار العقيدة بالدفاع عنها بالنفس، والاستهانة فى سبيل نشرها بالمال . ومن آثارها العمل الصالح . وليس العمل الصالح مجرد صلاة تؤدى بالحركات، أو صيام يؤدى بالحرمان من اللذات ، أو ذكر يجرى على اللسان ألفاظاً ميتة خالية من الخشية والرهبة .

إنما العمل الصالح ما اشتمل على روح الاسعاد : من إخلاص لله ،

ومحبة لخير الفرد والجماعة ، وأداء للحقوق كاملة لله ، ولعباد الله .

عباد الله : لاتسعد أمة تتفرق أهواؤها وتصبح شيعاً وأحزاباً رائدها الهوى ، وقائدها المصالح الخاصة .

لاتسعد أمة لاتعتصم بحبل الله المتين ولا تعتبر بسير الذاهبين الأولين .

لاتسعد أمة تحتكم إلى الشهوات ، وتتعامى عن الآيات ، وتدع النذر ، وتعمى عن العبر .

لا تسعد أمة تنبذ تعاليم الدين وراءها ظهرياً وتزدرى بالأخلاق الفاضلة حباً فى الاستمتاع بالشهوات وباقى الحياة من لذات .

لاتسعد أمة ينغمس أمراؤها وأغنياؤها فى الترف ، ويستعذبون الراحة ويأنفون العمل ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ .

أيها المؤمنون :

نحن بين أمرين : إما أن نستضىء بنور العقل ونهتدى بهدى الشرع ، فنصير فى الدنيا إلى عزة نعلو بها فى أجواز الفضاء ونخترق بها أطباق الأرض ، ثم فى الآخرة إلى جنة عرضها السماوات والأرض إلى مغفرة الله ورضوانه .

وإما أن نعمى عن هدى الله ، ونغمض عما حل بالأمم السابقة أعيننا ، ونغلى مراجل الشهوات فيما بيننا ، فتأكل نيران الأحقاد قلوبنا ، فنصير فى الدنيا إلى ذلة وضعة ، ثم فى الآخرة إلى نار وقودها الناس والحجارة ، إلى خزى من الله وخذلان .

وقانا الله عذاب النار وسوء المصير ، وقادنا إلى الخير وحسن العاقبة ،

وهدانا إلى ما يرضيه ويقربنا من عفوه ورحمته .

وقال فى خطبة أخرى : شب الإسلام عزيزاً لا يعرف الذل ، كريماً لايقبل الضيم ، وحمله كرام بررة رفعوا لواء عزه ، وشيدوا صروح مجده ، وطوفوا به الآفاق ، نافذ السلطان رفيع المكان . ثم خلف من بعدهم خلف فتنوا بعرض الحياة الأدنى ، واتبعوا الشهوات وضلوا السبيل ، حسبوا الأمر مغانم تقسم وأسلاباً توزع ، ودنيا مملوءة بالملذات ، فيها دعة وسكون ، وترف ومجون ، وطال عليهم الأمد فى ذلك فقست قلوبهم ، وصرفتهم الأهواء عن الهدى الإلهى فساءت حالهم ، وصبروا على الذل واطمأنوا إليه .

تحللوا من أصول الاسلام وفضائله ، وسول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الصلاة والصوم والعقائد وما شرع الله من أحكام تهذب النفوس ، وقوانين تنظم الحياة وتسعدها ، ليست إلا بقية من قرون خلت ، لايليق أن يستمسك بها الرجل المتمدين الذى عرف معنى الحياة ، وما فيها من لذة ومتعة .

بهذا أصبح الاسلام فى ناحية والمسلمون فى ناحية ، وبينهما فجوة بعيدة المدى والأطراف . تركوا دينهم واستباحوا الشهوات ، ومهدوا لمن لايعرفون الأديان إلا من حالة أهلها أن يقولوا : إن الاسلام دين لايعرف العزة والكرامة ولا يميز بين الفضيلة الرذيلة ، فهو دين يبيح الميسر والبغاء والخمر ، ولأهله فى ذلك قوانين تنظمها وجرائد ومجلات تعلن عنها . دين يبيح الكذب والزور والرشوة والفجور ، والفوضى فى النظام ، والجور فى الأحكام . دين يتفنن فى الكيد

والنفاق، وأساليب التفريق والشقاق، والبغى والعناد، والإثم والإلحاد.

أيها المسلمون: يقرر القرآن نفى الإيمان عمن لم يرض بأحكام الله رضا يزيل الحرج عن صدره ويملأ قلبه استسلاماً وطمأنينة. ويصف بالنفاق من يصد عن الداعى إلى الله ورسول الله.

إن الدين أيها المسلمون مهما امتدت آفاقه وتأول فيه المتأولون فهو لا يحتمل هذه البوائق، ولا هذا الإلحاد، ولا هذه الإباحية الجامحة، ولا هذه الشهوات التى لا تقف عند حد. وإنما يحتمل مدنية فاضلة تقوم على علم كامل، وعمل صالح، وخلق فاضل كريم. يحتمل التمتع بزينة الله وما هيأ لعباده من طيبات، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث.

هذا هو الإسلام أيها المؤمنون، فسارعوا إلى مغفرة من ربكم، وانقذوا الناس من أسباب الدمار والتهلكة. واعلموا أن الله أهلك الأمم الغابرة لأقل من هذه الشرور والآثام.

كتاب الله قانون، وسنة رسوله قانون، وما اتفق عليه أهل الحل والعقد من المسلمين مما لا يخالف نصاً فى الكتاب ولا فى السنة قانون، والرد عند التنازع إلى قواعد الدين العامة وأحكامه الكلية قانون، وكل هذه القوانين أمانة استودعكم الله إياها، واستحفظكم عليها، وأنزل عليكم فى محكم كتابه: ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا آماناتكم وأنتم تعلمون ﴾.

* * *

هكذا عاش المراغى، وهكذا نهض بتعاليم الدين الإسلامى

وارشاداته تلك النهضة المباركة فى مصر وغيرها ، وقد أدى رسالته هذه خير أداء ، نفع بها الإسلام والمسلمين ، وكان عمله متواصلا حتى آخر رمق من حياته .

توفيق اسماعيل بك

عضو مجلس الشيوخ عن دائرة بنى احمد

هو مجاهد لا يعلن عن نفسه ، ولقد جاهد بالنفس والمال . يجمع بين الرجولة والكرامة والكرم . لما زرته فى سجن مصر بعد صدور الحكم عليه من المحكمة العسكرية العرفية الإنجليزية فى سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ لأسباب وطنية ، ألفيته غير متأفف من السجن ، ولا من الظلم الذى حلّ به ، وهو الكريم المنبت ، مع أن « كرام الطير يرديها الحنين » ، غير أنه روى لى هذه الرواية العجيبة قائلا : « حقاً إن الكفر مخبثة لنفس المنعم ، والشكر مبعثة لنفس المفضل ... أشكو إليك يا دكتور نكران الجميل عند بعض الناس . يوجد هنا فى سجن مصر ضابط برتبة يوزباشى ، يعمل هذا الضابط على اضطهادى ، ويتغالى محاولا إكراهى على إعطائه رشوة ، مع أنه وُلِدَ فى بيتى ، وتربى وترعرع فى منزلى ، وأنا الذى أنفقت عليه فى جميع مراحل التعليم ، وذلك لأن والده كان من خدم والدى .. فيا دكتور ، أنا لايضايقنى السجن بقدر ما يحز فى نفسى لؤم هذا الضابط فوق نكرانه لجميلى ، وذلك لأنه يقابلنى بوجه كالبغى رمى النقاب ، وجهٌ قد غاض منه ماء الحياة .. فما رأيك يا دكتور ؟ » فقلت له : « لن تراه بعد اليوم » .

* * *

سألت الدكتور : « ماذا فعلت لهذا الضابط الذى بالغ فى نكران جميل المحسن إليه فى وقت ضيقه ؟ » .

قال :

— توجهت إلى على طلعت بك المفتش بالسجون لعلمى أنه من أشرف الضباط وأنزههم ، وكان على جانب عظيم من حسن الخلق ، فلما رويت له تصرفات هذا الضابط مع توفيق بك غضب غضباً شديداً وتوجه فى الحال إلى سجن مصر ، وأشبعه إهانة وأوسعه تحقيراً ، ثم نقله فى الحال .

ثم قال الدكتور : « إنه ضحى بمال كثير فى سبيل الحركة الوطنية فى خفاء مصحوب بالحياء ، وعاون الكثيرين من المجاهدين فى سبيل الوطن » .

عبد الحميد البنان بك

يحرص على أن يسمع كثيراً ، ولا يتكلم إلا قليلا وعند الاقتضاء . على أنه يقول المفيد المصحوب بالرأى السديد ، وقد يسخر فى الغالب ممن يقولون سخفا . وعلى العموم فهو يعتبر الكلام كرأس المال يجب أن ينفق منه دون أن يمس الرصيد . ينقد كلام سماره كما ينقد الصراف النقود ، وهو بعد ذلك الكريم الذى تهزه الأريحية ، يسارع إلى المكرمة ، وعمل الخير ، ويجانب الشر ، ويتجافى عن الإيذاء ، واسع الصدر ، بعيد الغضب ، قريب الرضا . ثم هو حاتم زمانه فى مآدبه المتتابعة . يعاون طالبى رفده المعوزين إذا قصدوه ، ويبتدرهم إذا لم يقصدوه بالعطاء الكريم فى سر وخفاء ليحفظ ماء وجوههم

ولكن لم يستطع أحد أن يخدعه من المتصعلكين المتاجرين بالتظاهر بالبؤس .

محمد حلمى عيسى باشا

هذا رجل يمثل طيبة الآباء والأجداد . ويمتاز بالعلم الغزير ، والتواضع المحمود الكثير ، وهو عندى مثل بارز للمروءة ، وعنوان واضح للأريحية . يحدوه دائماً حسن النية ، وفىٌّ لأصدقائه وفاؤه لوطنه ، هو فى الرعيل الأول من الوطنيين الذين غذوا الحركة الوطنية بالمال والجهد ، وقدّر له المرحوم حسين رشدى باشا وطنيته ونزاهته وإخلاصه فكان يستشيره ويعمل بموجب رأيه ، رأيته وزيراً للمعارف سنة ١٩٣٠ إبان الأزمة المالية العالمية ، أى فى ذلك الوقت الذى كان يقول فيه من يملك مائتى فدان : « عندى ٢٠٠ فدان ، وعندى ولدان » ، ومعنى هذا أن القائل كان يقول ذلك ليفهم الناس أنه ينفق على المائتى فدان ، لأن الإيراد لم يكن يفى بنفقات الزراعة لهبوط ثمن المحصول وارتفاع نفقات الزراعة ، وهو فوق هذا ينفق على ولديه كما ينفق على أرضه .

فى ذلك الوقت رأيت بعينى رأسى أن خصوم الحكومة ، بل أعضاء الحزب الذى كان يطعن فى سياسة الحكومة متجنياً ويقبح حسناتها ، يلجأون إلى حلمى باشا راجين أن يقبل أولادهم بالمجان فى مدارس الحكومة . مظهرين عجزهم عن دفع نفقات الدراسة . فكان يقبل رجاءهم ويغض النظر عن خصومتهم الحزبية . وإنى أعلم أن

أحد كبار موظفى الوزارة ـ وقد أصبح وزيراً فيما بعد ـ قد توجه إلى حلمى عيسى باشا يوماً وقال له : « لقد كثرت المجانية وإن فلاناً وفلاناً وفلاناً . . . إلى آخر الأسماء التى ذكرها ذلك الموظف الكبير أغنياء ومنهم أبناء الذين يمولون الحزب المحارب للحكومة » .

فرد عليه حلمى باشا فى حزمٍ بقوله : « إن وزارة المعارف هى لمجموع الأمة على اختلاف أحزابها ، وأنا جالس على هذا الكرسى لا أعرف الحزبية ، إنما يقضى علىّ الواجب أن أعمل لمصلحة جميع أبناء الأمة ، وإن وزارة المعارف ليست وزارة تجارية وإنما هى وزارة للتعليم ، فلا يجوز إذن أن نعطل مئات الطلاب من الالتحاق بالمدارس والمعاهد خشية أن يغشنا عشرات الطلاب ، وسياستى تتلخص فى أن أقبل كل طالب يجيئنى ولى أمره طالباً المجانية ، وبعد ذلك نبحث عمن غشنا » .

انظر يا بنى إلى هذا الخلق وجماله ، وإلى هذه الأريحية وجلالها .

ثم قال الدكتور : « أخبرنى أحد نظار المدارس قائلا : إن حلمى عيسى باشا طلبنى تليفونياً وأمرنى أن أقبل أحد الطلاب بالمجان ، وأن لا يطلع على اسمه أحد من موظفى المدرسة ، وأن أثبت اسم الطالب فى الدفاتر بنفسى حتى لا يتداول الاسم من كاتب إلى آخر فَيُعْرَف اسمه ، وكذلك أمر زميلاً لى وهو ناظر مدرسة أخرى قبول الابن الثانى ، وكان الطالبان ابنَىْ إحدى شقيقات النحاس باشا ، وقال لى هذا الناظر ـ أى للدكتور محجوب ـ لما رويت هذه الرواية لأحد موظفى وزارة المعارف ، أخبرنى بأن شقيقة النحاس باشا توجهت إلى وزارة المعارف وطلبت

مقابلة الوزير ، فلما قابلها حلمى باشا قالت له : إنها جاءت ترجوه فى قبول ولديها بالمجانية . فإذا بالوزير يقول لها مُطَيِّباً خاطرها : كان يكفى أن تتفضلى بإرسال خطاب خاص بدل أن تتعبى نفسك بالحضور ، وعلى كل حال سيلتحق ولداك بالمدارس مجاناً فى هذا اليوم » .

قال الدكتور محجوب : « إن حلمى عيسى باشا ألحق مئات الطلاب بالمدارس بناء على رجائى » .

ثم قال : « لما قيل لمحمد حلمى عيسى باشا إنك تسرف فى قبول أبناء الطبقات الفقيرة بالمجان ! أجاب : إن النابغين يخرجون غالباً من أصلاب الطبقات الفقيرة ، من يدرى لعل من أبناء الفقراء الذين نقبلهم يجىء محمد عبده آخر ، أو مصطفى كامل ، أو أمين الرافعى . إنى لن أحول بين التعليم وراغبه » .

الشيخ عبد العزيز البشرى

كاتب مُصور فى كتابته ، وعالم بالوراثة ، وأديب بالسليقة ، يصيب الهدف بكتابته ، حاضر البديهة فى جده ومزاحه ، بارع النكتة يرسلها عفواً .

عبد الله فكرى أباظة بك

هو موظف كفء ، يعتز بكرامته ، ويصون شخصيته وخلقه أمام رؤسائه ، رأيته يعطف على مرءوسيه عطفاً مقروناً بالعزم .

أنطون الجميل بك (باشا)

هو كاتب مجيد، مقل فى كتابته ، مكثر فى معانيها ، وعلى الرغم من أنه عصبي المزاج ، فإن الكثيرين من الذين يتصلون به لا يفطنون إلى ذلك ، لأنه يكظم غيظه إذا ضاق صدره ، وتراه دائماً يجنح إلى الحلم ، ثم إنه واسع الإطلاع ، عميق التفكير ، يحب الخير للناس ويعمل لهم ما فى وسعه وفوق طاقته ، وإنه كريم النجار ، شريف الخصال ، ظريف الحديث ، لطيف العشرة .

على راتب بك

هو شريف المنبت ، واسع الاطلاع ، جميل الخلق والفعل ، صريح القول ، أبيّ ، يعتز بكرامته ويعتد بوطنيته .

على على بسيونى بك

من نواب البحيرة

وطنى للوطنية ، ذو عقيدة ، وصاحب مبدأ ، عزيز النفس ، ظل يجاهد فى سبيل الوطن حتى أنفق ثروته فى معاونة الحزب الوطنى وهو من تلاميذ مصطفى كامل ، ومع أنه انتخب نائباً فى جميع العهود لم يقف على باب وزير ، ولم يجر وراء مغنم ، ولم يستطع أن يساومه زعيم أو وزير ، إنه (نسيج وحده) فى وطنيته ، تتقلقل الجبال الراسيات ولا يتزحزح على بسيونى عن مبدأ الحزب الوطنى قيد أنملة .

حسن فهمى رفعت باشا

أعرفه من يوم أن كان طالباً ، ثم موفداً فى بعثة علمية إلى الخارج ، كان مثال الطالب المواظب المتعطش للعلم . أما فى الوظائف الحكومية ، فهو نزيه فى عمله ، وإنى لأرى صورته فى ذهنى كالآتى : القانون فى يمينه ، وكتاب إخلاصه لعمله فى يساره ، وسيجارته فى فمه . ولا شك أنه يتظاهر فى كثير من الأحوال بأنه محدود الذكاء ، مع أنه فى غاية الذكاء ، ثم هو عميق الغور ، بعيد النظر .

محمد فريد أبو حديد بك

كاتب عبقرى ، ومؤلف مجيد ، وهو حليم غضوب ، ووطنى مخلص يعرف متى يغضب ومتى يحلم ، يضع دائماً كرامته وعلمه نصب عينيه ونزاهته فوق كل ذلك ، لا يحسد أنداده ، ولا يحقد على حساده ، يشجع من دونه ، وأقل من القليل هم من نوعه وطرازه من حيث الضمير فوق ما تقدم .

محمد لطفى محمود بك

هو مثل طلعت حرب ، ويصح أن يكون فى قابل الأيام القريبة خليفة له ، وليس أجدر منه بملء الفراغ الذى تركه صديقى طلعت حرب باشا إذا حَسُن الاختيار .

وطلعت حرب هو الذى غير مجرى حياته حينما أقنعه بأن ينخرط فى سلك « بنك مصر » ليكون معاونه ومستشاره ، ولولا طلعت حرب وإقناعه بذلك ، لكان الآن أحد موظفى الدولة ،

ولكن ما كان يظهر نبوغه وعبقريته كما ظهر فى المؤسسة القومية التى لها قدرها وقيمتها .

وهو شخص ، جميل الخلق ، دمث الأخلاق ، حسن العشرة وبجانب ذلك فهو يجمع بين الحزم والعزم ، ولا تغرنك ابتسامته إزاء مرءوسيه ، فهو الرجل الصارم فى عدل وحرص ، إذا ما أهملوا . وعندى أنه فى صورة مشابهة لاسماعيل صدقى ، طلق الوجه ، بعيد الغضب ، ولكنه حازم صارم فى مواطن الجد والعمل وفيه جوانب من عبد الخالق ثروت ، وعبد الحميد بدوى .

الأستاذ سليمان فوزى

صاحب الكشكول

كان صحافياً ممتازاً ، وكان شجاعا مقداماً ونهاباً وهاباً . هو أستاذ النقد اللاذع ، والتهكم القاذع ، حسناته أكثر من سيئاته ، هو أستاذ لكثيرين ممن أصبحوا صحافيين ، ولكن أكثرهم قابلوا جميله عليهم بالجحود ، وفضله بالكنود ، بالرغم من أن يده البيضاء عليهم .

ولا مراء فى أن سليمان فوزى كان أستاذ النقد فى هذه البلاد ، ولن يستطيع أحد ممن جاءوا بعده أن يشق غباره . كان سليمان فوزى مدرسة للصحافة الحرة ، ومن عجب أن الذين أساءوا إليه هم الذين أحسن إليهم .

الأستاذ جورج طنوس

صحافى بارع ، وكاتب خفيف الروح مخلص لأخوانه . جميل الخلق عمل فى الصحافة باخلاص ، وكان نزيهاً فيما يكتبه سواء فى المدح والثناء أو فى الوصف والتعبير .

الأستاذ محمد الهيهاوى

كان الأستاذ الهيهاوى أوحداً فى أدبه ، وكوكباً فى وطنيته ، شديد التمسك بالتقاليد الشرقية ، وفذاً فى غيرته الدينية ، ثم هو مر النفس ، حمى الأنف ، كان شاعراً مجيداً ، وكاتباً ممتازاً ، ولقد جاء وقت استؤجرت فيه الأقلام ، فرفع الهيهاوى علم الوطنية فى جريدة الأمة . لم يستطع زعيم أو حاكم أن يغريه بالمال أو يستأجره . ولو أنه سار فى درب الأساتذة (ع ا) و (م ا) لاغتنى مثلهم . كان نديد أمين الرافعى فى وطنيته ونزاهته وقوة شكيمته ، عاش متصوناً عن المادة ، مترفعاً عن كل ما يشين .

كان قوى الحجة ، ذرب اللسان ، شديد العارضة .

قال الأستاذ الشاعر المطبوع محمد الحناوى فى رثائه للهيهاوى :

ياصاحب القلم العصى على المؤمل فى شرائك
يا كاتب الأدب الطلى يزينه وافى أدائك
كم جزت بالرأى المسدد كل صعب الخوض شائك
وشقيت والأوشاب فى النعماء تضحك من شقائك
يتندرون بما تفشي بينهم عن كبريائك

زعموه داء موهنا ، ياليتهم مرضوا بدائك
جهلوك إذ حسبوا المتارف والمناعم من دوائك
أنت الذى لو شئت لارتد الغنى عقبى ندائك
أو لو أردت لأصبحوا من بين وصّافى ثرائك
أو لو سلكت سبيلهم لتركتهم أسرى عطائك
لكنك اخترت الزهادة لا دنيا هنائك
وشريت كرسىّ الصحافة بالمناصب والأرائك
وأبيت أن تحيا ذليلا مثلما يحيا أولئك

كان الدكتور يترنم بهذه الأبيات ويعجب ثم يقول : « ترى هل يرثينى الحناوى بمثل هذه الأبيات ؟ » .



اللورد كرومر

ولما سألت الدكتور محجوباً رأيه فى اللورد كرومر ، أجاب :

— لقد حاول أن يظهر بمظهر المحسن إلى المصريين فى الوقت الذى كان ينتزع فيه سلطة الخديو ، وسلطة الحكومة المصرية جميعاً . وقد جعل الكلمة العليا على المصريين لأقل موظف بريطانى ، ولو كان مرءوساً للمصرى ، وهو الذى أشار على وزير خارجية انجلترا بأن يوجه إليه تلغرافه المشهور الذى حتم فيه أن يأتمر الوزير المصرى بأمر أقل موظف فى ديوانه « . . . وإلا . . !!!! »

لقد أساء إلينا اللورد كرومر إساءات شتى ، فى سبيل أن يجعل من مصر العربية ومصر الفرعونية مستعمرة بريطانية ، وفى سبيل انتزاع السودان الجزء المتمم لمصر ، منع الحكومة المصرية التى كان يرأسها مصطفى فهمى باشا ، الذى كان آلة صماء فى يده ، من إخماد ثورة (محمد المهدى) فى السودان[1] . كان اللورد فى الوقت الذى يمنع فيه الحكومة من إخماد ثورة السودان ، يغذيها بجميع وسائل التغذية . ومن هذه الوسائل : تشجيع الثائرين ، فلما استفحلت الثورة ، كما كان مقدراً ومفهوماً حسب الخطة المرسومة ، أصدر أوامره بتوجيه تجريدة عسكرية إلى السودان ، بعد أن جعل قوادها وأطباءها من الإنجليز . . .

(١) راجع فصل (الدكتور محجوب والسير لي ستاك باشا) .

ومن العجيب أن اللورد كرومر لم يخبر رئيس الحكومة المصرية بنبأ الأمر الذى أصدره ، مع أن رئيس الحكومة كان ألعوبة فى يده يحركها كيف يشاء ، على أنه أخبر الخديوى والحملة فى طريقها إلى السودان ! . أما رئيس الحكومة ، فقد أحيط علماً فيما بعد ولم يحرك ساكناً ولم يغضب ، وعلى الأقل لم يتأفف ، ولا أدرى يا بنى أى رجل كان . . . . » .

سألت الدكتور محجوباً : « لماذا أجبر اللورد الحكومة المصرية على عدم إخماد ثورة المهدى قبل استفحالها فى أوانها ؟ » .

فأجاب : « ليتيح لانجلترا المساهمة بذلك النصيب التافه فى إخماد الثورة لتتخذها ذريعة لتلك الشركة التى أصبحت اسماً على غير مسمى . . .

ولقد عرّض اللورد كرومر عمداً حياة غردون باشا للخطر بعدم استجابة استغاثته بطلب إمدادات عسكرية ، بل تسبب عمداً فى قتله شر قتلة على يد الدراويش ، لتكون الضحية الإنجليزية دسمة وثمينة بالغة القيمة فى نظر العالم الأوربى ، وذلك أسلوب من أساليب السياسة الإنجليزية » .

ثم أخرج الدكتور من درج مكتبه كتاباً انجليزياً كان يحتفظ به وأخذ يطالعه متوجعاً متهكما على ما جاء فيه . ثم قال :

ــ استمع إلى اللورد كرومر ، بعد أن خرج من مصر مستعفياً أو معزولا بقوة حملات المغفور له مصطفى كامل باشا الذى ملأ سمع الدنيا دوياً وطنيناً ، والذى حرك ضمير العالم المتمدن ، ولفت أنظار رجال السياسة إلى ما تعانيه مصر ، من جبروت انجلترا ، وطغيان معتمدها فى حادثة دنشواى .

فإذا اللورد بعد أن أحرج بالانتقاد فى انجلترا لتصرفه الفظيع فى دنشواى وتعريضه حياة غردون للضياع ، يؤلف كتاباً دفاعاً عن نفسه من جهة ولتبرير موقفه حيال غردون من جهة أخرى ، وفى سبيل محاولة إسكات ذوى الضمائر من أعضاء مجلس النواب من جهة ثالثة . لبث يدافع عن سياسته دفاعاً يزرى بدفاع أعظم محام عن أكبر جان ، وإذا به يحاول ـ فى سبيل الدفاع عن سياسته ـ ينسب إلى ضحيته غردون الغرور ، مصوراً إياه فى صورة الذى لا يقبل النصح .

ولقد حاول كرومر فى كتابه أن يحط من قدر المغفور له الخديو « عباس الثانى » ، فإذا به يرفعه — دون قصد — إلى أعلى درجات الوطنية ، ولو أتيح لى يا بنى أن أضع كتاباً فى تاريخ كرومر لقرأت العجب العجاب .

ثم قال الدكتور بعد أن أغمض عينيه لحظة :

— لو كان اللورد كرومر قد جاء إلى مصر ملاك رحمة ، كما كان يريد أن يزعم ، فإن حادثة دنشواى لتجعله شيطان الظلم الصارخ ، و « نيرون » زمنه . إن هذا الرجل الذى كان يلقب نفسه بصديق ذوى الجلاليب الزرقاء ، قد أمعن فى عقابهم عقاباً جاء فريداً فى قسوته وبشاعته . لماذا ؟ لأن فلاحى قرية دنشواى المنكوبة ، قد اعترضوا على كل من الكابتن (اليوزباشى بول ، والصاغ كوفى ، والملازم بورثر — أو آرثر ، والطبيب الإنجليزى . . . إلخ) هذه الأسماء من ضباط الجيش البريطانى الذين جاءوا لحماية عرش الخديو — كما زعموا — وليحملوا ألوية الحضارة الأوربية ، والمدنية الغربية ، إلى الشرق المتأخر

فى مضمار المدنية ! هذا الشرق المنكوب الذى كان آباء أبنائه وأجدادهم يحملون حقاً ألوية الحضارة الحقيقية ... كان خلفاء الإسلام يوصون جنودهم : (بأن لا يجهزوا على جريح ، وأن لا يتبعوا مهزوماً ، ولا يدوسوا على زرع ... إلخ ...) ولكن جنود انجلترا المتمدنة لم يكتفوا بالدوس على الزرع ، فى سبيل إرضاء شهوة الصيد ، حرّقوا أجران الغلال ، وأصابوا النساء والرجال برصاص بنادقهم ، فلما اعترضهم فلاحو دنشواى ملحّين فى الرجاء أن لا يتسببوا فى سبيل الصيد فى حرق غلالهم ، كَبُر عليهم الرجاء فأصابوا الآدميين فإذا بكرومر « المتمدن » جداً يعاقب المعترضين بالشنق والجلد بطريقة تزرى بوسائل محاكم التفتيش فى القرون الوسطى .

ارتكب اللورد كرومر ما ارتكبه على الرغم من أن أبناء جلدته هم الذين اعتدوا على ذوى الجلاليب الزرقاء ، وعلى الرغم من أن الطبيب الشرعى الانجليزى قرر فى فحصه أن وفاة (اليوزباشى بول) كانت نتيجة إصابته بضربة الشمس ...

على أن اللورد كرومر الذى أراد بفعلته أن يذل المصريين ويدجنهم ، كان بالعكس ، هو الذى أيقظ النائمين ، ونبّه الغافلين ، ثم أعطى سلاحاً ماضياً للمغفور له مصطفى كامل باشا باعث الحركة الوطنية ، الذى استغل حادثة دنشواى أحسن استغلال ، وحرك ضمير العالم .

وإليك قول شوقى بعد مرور عام على حادثة دنشواى :

يادنشوايَ على رُباكِ سلام ذهبتْ بأنس ربوعك الأيام
شهداء حكمِك فى البلادِ تفرقوا هيهات للشمل الشتيت نظام

مرّت عليهم فى اللحود أهلة ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها وبأى حال أصبح الأيتام
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها بعد البشاشة وحشة وظلام
يا ليت شعرى فى البروج حمائم أم فى البروج منَية وحِمام؟
(نيرون) لو أدركت عهد كرومرٍ لعرفت كيف تنفذ الأحكام!
نوحى حمائمَ دنشواى وروّعى شعباً بوادى النيل ليس ينام
إن نامت الأحياء حالت بينه سحراً وبين فراشه الأحلام
متوجعٌ يتمثل اليوم الذى ضجت لشدة هوله الأقدام
السوط يعمل والمشانق أربع متوحدات ، والجنود قيام
والمستشار إلى الفظائع ناظر تُدمى جلود حوله وعظام
فى كل ناحية وكل محـــلة جزعاً من الملأ الأسيف زحام
وعلى وجوه الثاكلين كآبة وعلى وجوه الثاكلات رَغام

من سيئات كرومر

وقال الدكتور محجوب : « وفى مقدمة سيئات كرومر محاربته للتعليم فى مصر بواسطة المستر (دنلوب) المعروف ، الرجل الميت الضمير ، المحدود الذمة الذى حارب التعليم فى مصر ، وحارب ذوى الضمائر من رجال التعليم ، وكان سنده اللورد كرومر ، هذا الرجل الذى لم تنكب أمة بمثله فى أى عصر من العصور » . وما أبلغ قول شوقى موجهاً كلامه إلى كرومر رداً على ما تخرص به فى حفلة وداعه :

أيامكم أم عهد إسماعيلا أم أنت فرعون يسوس النيلا

أم حاكم فى أرض مصر بأمره لا سائلا أبداً ولا مسئولا ؟
يا مالكا رق الرقاب ببأسه هلا اتخذتَ إلى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداء العياء رحيلا
أوسعتنا يوم الوَداع إهانة أدب لعمرك لا يصيب مثيلا
هلا بدا لك أن تجامل بعدما صاغ الرئيس لك الثنا إكليلا
انظر إلى أدب الرئيس ولطفه تجد الرئيس مهذباً ونبيلا

* * *

فى ملعبٍ للمضحكات مشيد مَثَّلْتَ فيه المبكيات فصولا
شهد(الحسين[1])عليه لعنَ أصوله وتصدَّر (الأعمى[2]) به تطفيلا
جبنٌ أقل وحط من قدريهما والمرء إن يجبن يعش مرذولا
لما ذكرتَ به البلاد وأهلَها مثلت دور مماتها تمثيلا
أنذرتنا رقاً يدوم وذلةً تبقى وحالاً لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة ؟ لا يملك التغيير والتبديلا ؟
الله يحكم فى الملوك ولم تكن دول تنازعه القوى لتدولا
فرعون قبلك كان أعظم سطوة وأعز بين العالمين قبيلا
اليوم أخلفتِ الوعود حكومة كنا نظن عهودها الإنجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه مصراً فكانت كالسُّلال دخولا
هدمت معالمها وهدتْ ركنها وأضاعت استقلالها المأمولا
قالوا : جلبت لنا الرفاهة والغنى جحدوا الإله وصنعه والنيلا
وحياة مصر على زمان محمد ونهوضها من عهد إسماعيلا
ومدارساً يبنَى البلاد حوافلاً حظُّ الفقير بهن كان جزيلا

(١) هو الأمير حسين .
(٢) الشيخ عبد الكريم سلمان من حملة العمائم وكان يتودد إلى كرومر .

ومعاقلا لا تمّحى آثارها وجيوش إبراهيم والأسطولا
وجداولا بين الضياع جوارياً تذر اليباب مزارعاً وحقولا
ومدائناً قد خططت وطرائقاً كانت حزوناً فاستحلن سهولا
والقطن مزروعاً بفضل محمد فى مصر محاوجاً بها مغزولا
قد مد إسماعيل قبلك للورى ظل الحضارة فى البلاد ظليلا
إن قيس فى جود وفى سرف إلى ما تنفقون اليوم عُدَّ بخيلا
أو كان قدصرع (المفتش)، مرة فلكم صرعت بدنشواى قتيلا
لا تذكر الكرباج فى أيامه من بعد ما أنبتّ فيه ذيولا
وامدح قصوراً شادهن بواذخاً قد أصبحت مأوى لكم ومقيلا
لو أنه لم يبنها لتخذتمو منها المضارب والخيام بديلا
كم منة موهومة أتبعتها منَّا على القَطن الخبير ثقيلا
فى كل تقرير تقول خلقتكم أفهل ترى تقريرك التنزيلا
هل من نداك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ (الفوتبولا)
أم من صيانتك القضاء بمصر أن تأتى بقاضى (1) دنشواى وكيلا
أم هل يعد لك الإضاعة منة جيش بجيش الهندبات ذليلا
انظر إلى فتيانه ما شأنهم أو ليس شأناً فى الجيوش ضئيلا
حرمتهم أن يبلغوا رتب العلا ورفعت قومك فوقهم تفضيلا
فإذا تطلعت الجيوش وأملت مستقبلا لم يملكوا التأميلا
من بعد ما زفوا لإدوارد العلا فتحاً عريضاً فى البلاد طويلا

---

(1) احمد فتحى باشا الذى عين وكيلا للحقانية وكان من قضاة مأساة دنشواى التى سميت قضية.

لو كنت من حمر الثياب عبدتكم　　من دون عيسى محسناً ومنيلا
أو كنت بعض الإنكليز قبلتكم　　ملكا أقطع كفه تقبيلا
أو كنت عضواً في (الكلوب) ملأته　　أسفاً لفرقتكم بكا وعويلا
أو كنت قسيساً يهيم مبشراً　　رتلت آية مدحكم ترتيلا
أو كنت صرافاً بلندن دائناً　　أعطيتكم عن طيبة تحويلا
أو كنت (تيمسكم) ملأت صحائفي　　مدحاً يردد في الورى موصولا
أو كنت في مصر نزيلا جاهداً　　سبحت باسمك بكرة وأصيلا
أو كنت (سريوناً[1]) حلفت بأنكم　　أنتم حبوتم بالقناة الجيلا
ما كان من عقباتها وصعابها　　ذللتموه بعزمكم تذليلا
عهد الفرنج وأنت تعلم عهدهم　　لا يبخسون المحسنين فتيلا
فارحل بحفظ الله جل صنيعه　　مستعفياً إن شئت أو معزولا
واجمل بساقك ربطة في لندن　　واخلف هناك غراي أو كمبيلا
أو شاطر الملك العظيم بلاده　　وسس الممالك عرضها والطولا
إنَّا تَمَنَّيْنا على الله المُنَى　　والله كان بنيلهِنّ كفيلا
مِنْ سبّ دينَ محمدٍ فمحمدٌ　　مُتَمَكِّنٌ عند الإله رسولا

* * *

ومن سيئات كرومر أنه أيضاً قد أشاع النفاق والرياء، وصغر النفس في صفوف متطلبي المناصب الكبرى، من أمثال ذلك الوزير (أبو ريال) الذى وقف خطيباً فى حفلة افتتاح مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية، فى وجود الخديو، يشيد بحسنات كرومر

(١) مدير قناة السويس.

الموهومة — فى غيابه — مبالغاً فى الرياء والنفاق والتقرب ، وبذلك قضى على تاريخه الوطنى ، وقد كانت له مواقف وطنية لا بأس بها ، وهذا الوزير هو الذى خاطبه صديق شوقى يا بنى بقوله :

كبيرَ السابقين من الكرام   برغمى أن أنالك بالملام
مقامك فوق ما زعموا ولكن   رأيت الحق فوقك والمقام
لقد وجدوك مفتوناً فقالوا   خرجت من الوقار والاحتشام
وقال البعض كيدك غير خاف   وقال رمية من غير رام
وقيل شططت فى الكفران حتى   أردت المنعمين بالانتقام
غمرت القوم إطراءً وحمداً   وهم غمروك بالنّعم الجسام
رأوا بالأمس أنفك فى الثريا   فكيف اليوم أصبح فى الرغام
أما والله ما علموكَ إلا   صغيراً فى ولائك والخِصام
إذا لم تكن للقول أهلاً   فما لك فى المواقف والكلام ؟
خطبتَ فكنتَ خطباً لا خطيباً   أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه   وجرحك منه لو أحسست دام
وما أغناه عمن قال فيه   وما أغناك عن هذا الترامى
أحبتك البلاد طويل دهر   وذا ثمن الولاء والاحترام
حقرت لها زماماً كنت فيه   لعوباً بالحكومة والزمام
محاسنه غراسك والمساوى   لك الثمران من حمد وذام
فهلا قلت للشبان قولا   يليق بحافل الماضى الهمام ؟
يبث تجارب الأيام فيهم   ويدعو الرابضين إلى القيام
خطبت على الشبيبة غير دار   بأنك من مشيبك فى منام

إلى أن قال :

وكيف ينال عون الله قوم سراتهم عوامل الانقسام
إذا الأحلام فى قوم تولت أتى الكبراء أفعال الطغام
فيا تلك الليالى لا تعودى ويا زمن النفاق بلا سلام
أحبك مصر من أعماق قلبي وحبك فى صميم القلب نام
سيجمعنى بك التاريخ يوماً إذا ظهر الكرام على اللئام
لأجلك رحت بالدنيا شقياً أصد الوجه والدنيا أمامى
وأنظر جنة جمعت ذئاباً فيصرفنى الإباء عن الزحام
وهبتك غير هياب يراعاً أشد على العدو من الحسام

وقال الدكتور : « على الرغم من أن اللورد كرومر أشاع النفاق والرياء فى نفوس الكثيرين من متطلبي المناصب الحكومية الكبرى فإنه هو شخصياً كان آية فى نزاهة اليد . . . كان فى استطاعته أن يخرج من مصر وهو أغنى رجل فى العالم، ولكنه خرج منها خالى الوفاض لم يستفد منها دانقاً ولا مليما .

على أنه أفاد أمته . وهل يلام ؟ . . . خرج كرومر من مصر فقيراً ، فكان آية فى الرجال من حيث النزاهة وعدم استغلال المركز الذى كان يشغله ، فأنا معجب به من هذه الناحية وكان صديقى المرحوم مصطفى كامل أيضاً يجاهر بإعجابه به من هذه الناحية ، هو من بناة الأمبراطورية البريطانية ، هو جدير بتقدير أمته ، كما أن رجالنا الذين اتخذهم آلات طيعة فى يده أحرياء أن يكونوا موضع احتقار المصريين ما طلعت شمس وناح قمرى على غصن بان » .

مايلز لمبسون (اللورد كايرن)

هذا رجل ، من حق الإنجليز أن يقيموا له تمثالا من الذهب الخالص وذلك لأنه فى سبيل بلاده خدع أمة ، وهى الأمة المصرية ، ثم كاد أن يقضى على المثل العليا فيها وعلى الوطنية المصرية ، وكاد يجعل الاحتلال الإنجليزى الباطل شرعياً ، حاول ذلك فى مفاوضاته ، لولا يقظة الأمة وحذرها ، ومواقف محمد محمود واسماعيل صدقى واحمد ماهر ، (راجع خطبهم فى مجلس النواب سنة ١٩٣٦ فى أثناء عرض المعاهدة).

ولكن المجرمين المتاجرين بالوطنية هم الذين عاونوه ، وهم الذين ظلوا يعاونون من تعاونوا معه بعد أن جرح كرامتنا جرحاً لا يندمل . . .

وهنا تأثر الدكتور محجوب ، واغرورقت عيناه ، وانهمرت دموعه حتى اخضلت لحيته بالدمع الغزير ، لكنها دموع الغيظ والغضب ، وما أقسى دموع الرجل فانتهزت الفرصة وسألته : « لماذا أراك غاضباً ، وكدت تذهل ؟ »

قال : « إن كان لمصرى أن يجعل الحلم رائده ، والتسامح خطته ، ينبغى أن يزولا . ولكن الغضب يجب أن ينصب على المتاجرين بالوطنية من المصريين الذين تعاونوا مع اللورد كليرن . ويجب أن لا ينسى المصريون أن لمبسون كان يعلم قطعاً ، قبل إقدامه على ما أقدم عليه أن المصريين لم يفضلوا على الإنجليز الألمان أو الطليان كأصدقاء حلفاء أو كخصوم ، كما كان يعلم أن المصريين لا يكرهون الإنجليز لأنهم إنجليز إنما يكرهونهم باعتبارهم محتلين لبلادهم ، وكان لمبسون يعلم أن المصريين

يحترمون الشعب البريطانى كشعب راق ، ولكنهم يمقتون الحكومة الإنجليزية لأنها أضاعت استقلال مصر بسياستها ، سياسة الغدر والمماطلة .
وكان يعلم أن المصريين لن يفضلوا عليهم أية أمة حليفة أو محتلة ، وكان يعلم أيضاً أن من المصريين من كان حينما يسمع أنباء المعارك الحربية التى تدور رحاها بين الإنجليز وبين أعدائهم يقابلون أنباءها بإحساسين هما السرور والخوف فى آن واحد ، أما السرور فكان السفير البريطانى يعلم أن سببه هو أن الإنجليز الذين أذاقوهم عذاب الهون ، وأشبعوهم تنكيلا ، وتقتيلا ، وتحريقاً للقرى الآمنة ، وإراقة لدماء الطلاب المنادين بالاستقلال فى سنة ١٩١٩ ، يلاقون اليوم من أعدائهم بعض ما لاقاه المصريون منهم طوال سنى اغتصابهم استقلال مصر ، أما الخوف فكان سببه خشية أن يجتاح مصر الألمان والطليان الذين يعتبرهم المصريون أقل عدالة ورحمة من الإنجليز . كما أن لمبسون كان يعلم قبل تقديمه التبليغ البريطانى أن أشد المصريين كراهة للإنجليز لم يتمن دخول الألمان والطليان مصر دخول الفاتحين ، وكان يعلم أن المصريين كانوا يجاهرون بقولهم لو نكبت مصر بدخول الإيطاليين لسوّدوا بغاياهم على أحرارهم ، وصناعهم من السمكرية وعمال الطرق بالإسكندرية على سادتهم ، ويعلم أن المصريين كانوا يجاهرون بأن ظلم الإنجليز خير من عدل الإيطاليين ، وصلف الإنجليز أفضل من تواضع الألمان . . . لمبسون الذى كان يعلم كل ذلك ، هو الذى دبّر « مع كويسلنج مصر » (١)

(١) كان الدكتور محجوب اول من لقب مصطفى النحاس باشا بهذا اللقب . وقد نعته احمد ماهر باشا بهذا الوصف فى خطبة ألقاها بكفر ربيع بالمنوفية فى منزل آل أبى حسين .

التبليغ الذى رفعه باسم حكومته إلى جلالة مليكنا ، وفرض بموجب هذا التبليغ عصابة على مصر سماها حكومة ، وظل يسندها طوال مدة وجودها فى الحكم بتبليغات » .

إلى الأمام يا روميل !!

ثم قال : « أقسم أن لمبسون كان يعلم أن الذين نادوا « إلى الأمام يا روميل (١) » إنما كانوا مدسوسين من قِبَل صنائعه الذين جاء بهم إلى الحكم بموجب تبليغه المصحوب بالدبابات كما أنه كان يعلم أن طلاب الجامعة قد انتهروا الذين رددوا هذا النداء ، ولعل مكافأة الشاب الذى نعق بهذا النداء لأصدق شاهد على أن النداء « إلى الأمام يا روميل » جاء من قِبَل الذين جاء بهم إلى الحكم ، كما سيجىء »

قلت : « لِمَ انفعلت ؟ »

قال : « ذلك لأن لمبسون الذى دبّر التبليغ البريطانى فى شهر ديسمبر سنة ١٩٤١ بواسطة أحد كبار موظفى الدار البريطانية فى منزل المستر جيز وكيل الحكمدار الإنجليزى لمدينة الإسكندرية ، وهو التبليغ المعروف بتبليغ ٤ فبراير سنة١٩٤٢ ، حز فى نفسى أن كويسلنج مصر جلب له من يهتف باسمه ومن يحمله على الأعناق » .

قلت : « وكيف كان ذلك يا دكتور !! » .

قال : « غداة مجىء وزارة الدبابات إلى الحكم ، جلبت تلك الوزارة

---

(١) المارشال روميل الذى كان يقود جيوش المحور ووصل بها إلى حدود مصر .

جماعة من عمال المطبعة الأميرية ولفيفاً آخر من العمال المأجورين، ولما حضر لمبسون حملوه على الأكتاف، بعد أن نادوا بحياته حسب الخطة المرسومة، فكانت «الرمية تحتفى بالرامى» ومَن:

مشى على تاريخهم مستهزئاً ولو استطاع مشى على الأهرام

كما قال صديقى أحمد شوقى أمير الشعراء، وكأنه كان يتنبأ».

ثم قال: «أكان يجوز أن يصل الدجل السياسى إلى حد أن يهتف باسم رجل هدد عرشنا، ورمز مجدنا «الفاروق» الذى نشأ وطنياً وترعرع وطنياً، إذا لم يصدر أمره بتأليف وزارة يريدها السفير البريطانى!؟»

وقال: «إن تبليغ ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ كان فى الحقيقة ونفس الأمر، مُحضَّراً منذ أن كان على ماهر باشا رئيساً للوزارة سنة ١٩٣٩» وإليك الدليل:

قال الدكتور: إن محمد محمود قال له: «جاءنى ذات يوم أمين عثمان (١) وقال لى — أى لمحمد محمود — أنت تعلم أنى أحبك يا باشا، لذلك أخشى أن يضايقك أن يصبح النحاس باشا رئيساً للوزارة فى هذه الأيام وذلك فى استطاعتى، الأمر الذى حملنى على إشعارك، فإن رأيت أن أحول بين النحاس باشا وبين الوزارة فعلت، ولكن أريد «آكل عيش (٢)» وليس عندى إيراد بعد أن أُخرِجْتُ من وظيفتى. فقال محمد محمود باشا لأمين: قابلنى اليوم فى

(١) امين عثمان رجل عرف بين المصريين بأنه من صنائع الإنجليز، وأنه يتغالى فى التودد إليهم على حساب الوطن.

(٢) جرى هذا الحديث وكان على ماهر باشا لا يزال رئيساً للوزارة.

الساعة الرابعة أو الخامسة مساء .

وبعد انصراف أمين عثمان من عنده ، خاطب محمد محمود باشا احمد حسنين باشا تليفونياً وطالبه بضرورة الحضور إلى منزله ، وأفهمه أنه لولا مرضه لانتقل إلى السراى بنفسه لخطورة الموضوع الذى سيتحدث معه بشأنه .

فلما حضر أحمد حسنين قال له محمد محمود : « أنصحكم قبل أن تفاجأوا بضغط إنجليزى أن تتفادوه بتكليف حسن صبرى باشا بتأليف الوزارة . وأحب أن تهيئوا لأمين عثمان مصدراً للعيش لأنى فهمت أنه يتلاعب » . ثم استدعى أحمد ماهر بالتليفون ، فلما حضر أفضى إليه بما تقدم وكلفه الاتصال بأحمد حسنين من جانبه أيضاً ، وبالدوائر العليا لإقناعها للأخذ بنصيحته سالفة الذكر .

وفى ذلك اليوم اتصل السفير البريطانى بمحمد محمود باشا تليفونياً راجياً مقابلته ليتناول معه كوباً من الشاى ، وكان محمد محمود فى ذلك اليوم فى حالة تعوقه عن لبس حذائه (لِتَوَرّمٍ فى قدميه) فلما حضر لمبسون إلى منزل محمد محمود ، دارت هذه المحادثة :

لمبسون : أود ياباشا أن تؤلف أنت الوزارة !

محمد محمود : ها أنت ترى أنى مريض إلى حد أنى لم أستطع أن ألبس حذائى . فكيف أشكل الوزارة وأنا فى هذه الحالة الصحية ؟

لمبسون : لك بعد تشكيل الوزارة أن تنيب عنك (قائمقام رئيس وزراء) من تريده ، وفى استطاعتك أن تستبدله بغيره في حالة ما إذا

أساء التصرف ولم يؤد أمانة الوكالة .

محمد محمود : وبأى حق تعرض على مثلى تأليف الوزارة وأنت سفير دولة أجنبية ، والذى يجب أن يكون مفهوماً أن هـذا العرض يصح أن يصدر من قِبـل جلالة الملك صاحب السلطة الشرعية ، ولو كان هذا العرض من قِبَل جلالة الملك لكان ردى الاعتذار بالمرض .

. . . . وانتهت مقابلة لمبسون عند هذا الحد . . . .

وقال : إن أمين عثمان كان يتقرب إلى محمد محمود ويتودد إليـه ليختاره عضواً فى الوزارة ومن ثم يصبح قائمقام رئيس وزراء ! وأن محمد محمود فطن إلى الهدف الذى كان يهدف إليه أمين عثمان .

* * *

كُلِّف حسن صبرى بتأليف الوزارة بناء على نصيحة واقتراح محمد محمود وأحمد ماهر معاً .

ألف حسن صبرى وزارته ، وظل كذلك إلى ما قبـل وفاته بثلاثة أشهر أو أربعة ، وهو محل الشك إلى حد ما لدى أحمد حسنين ، الذى ظن أن نصيحة محمد محمود كانت غِشّاً ، ولـكن قبـل وفاة حسن صبرى عَـرَف أن النصيحة كانت خالصة لوجه الله والوطن ، وأخذ يشيد بها قبل وبعد وفاة محمد محمود .

* * *

ولما توفى حسن صبرى بفجأة فى البرلمان أثنـاء إلقائه خطاب العرش إذا بمحمد محمود باشا يبذل النصح مرة أخرى بأن يُكَلَّف

حسين سرى باشا بتأليف الوزارة ، وبذلك سيتفادى ضغط بريطانى قد يجىء يحتم إسناد الوزارة إلى النحاس باشا . ثم استدعى احمد ماهر كما استدعاه من قبل ، وطالبه بأن يتوجه إلى كثيرين من ذوى الشأن ومن بيدهم توجيه الأمور ، ناصحاً بتكليف حسين سرى تأليف الوزارة وقد كان .

على أن أمين عثمان « لم يأكل عيش » أى لم يلحق بوظيفة لأمر يعلمه أحمد حسنين باشا .

* * *

وقال : « كان التبليغ البريطانى محضراً وقت أن كان على ماهر باشا رئيساً للوزارة للتخلص منه ، لأنه كان ينابذ السفير البريطانى ، وكان عصياً عليه فى إجابة رغباته التى تتنافى مع الوطنية ، متمسكا بنصوص المعاهدة على ما فيها من غبن لمصر .

على أنه كان ينفذ المعاهدة بحرفيتها ، ولما قيل له وبروحها أفهمهم أنه لا يفهم المقصود بروحها ، وجاء النحاس بعد ذلك وأعلن كلمة وروحها ، وقال : قد أعجبتنى كلمة احمد رمزى بك عضو الشيوخ فى أثناء استجواب قدمه : إنى أتشاءم من كلمة روح المعاهدة » .

أين دبر تبليغ ٤ فبراير ؟

قال الدكتور محجوب : « فى شهر ديسمبر سـنة ١٩٤١ دعا المستر جين ، النحاس باشا ، وأمين عثمان ، والمستر ريد ، والمستر سمارت السكرتير الشرقى لدار السفارة البريطانية ، لحضور حفلة إكليل

كريمته بالاسكندرية . . . في هـــذا الحفل يابني دبرت مؤامرة ٤ فبراير ... ابتدر النحاس باشا مستر سمارت بقوله : « الخير كثير في مصر ، ومصر أمة زراعية لا تجوع مطلقاً ، وفي استطاعتها أن تمون جيوش الحليفة الموجودة والتي ستفد ، وفي استطاعتها أن تمون البلاد المتاخمة لها . غير أن الوزارة الماضية ، وزارة حسن صبري ، كانت تضن ، خشية من الرأي العام ، والوزارة الحاضرة هي الأخرى تضن » . فقال مستر سمارت : « إذن إن توليت الحكم أنت ، أفتستطيع أن تكشف لنا عن الخيرات المخبوءة في مصر ، وتستطيع أن تمون الشعب المصري والجيوش الموجودة والتي ستفد كما تقول مع حفظ الأمن والنظام ، ولا سيما في مثل هذه الأوقات الدقيقة ؟ »

فأجاب : « نعم » .

فقال له مستر سمارت : « سنتقابل ، ولا شأن لك بالوسيلة ، عن قريب »

وبعدئذ سافر النحاس باشا من الإسكندرية إلى مصر ، ثم سافر بعدها قاصداً إلى الأقصر ، بعد أن اقترض مبلغاً من المال من مكرم عبيد باشا . على أنه نزل في مدينة قنا ، ووقف أمام ضريح سيدي عبد الرحيم القناوي ، وقال للمجلوبين إليه من العامة : « اقرأوا الفاتحة لسيدي عبد الرحيم القناوي فإنه رجل مبروك » . ثم سافر إلى الأقصر ، وهو يعلم بأنه سيستدعي لإسناد تشكيل الوزارة إليه بموجب الضغط الانجليزي .

فلما حدثت أزمة وزارة حسين سري باشا ، استدعته السراي لاستشارته أسوة برؤساء الأحزاب وذوي الرأي جرياً على السنة

التى استنها المغفور له الملك فؤاد الأول . فتعزز النحاس باشا بادىء ذى بدء ، وأخيراً جاء فى صالون خاص ، ولكن هذا الصالون قد ضاق بحرمه فأصرت على أن تعود على متن باخرة نيلية فخمة من بواخر وزارة الأشغال ...

وقد علق الدكتور محجوب على هذا قائلا : « لو أن وكيل وزارة الأشغال ومن إليه من موظفى الوزارة لم يكونوا عالمين بأن النحاس باشا سيتولى الوزارة لما سمحوا لباخرة حكومية بأن تكون تحت تصرف حرم النحاس باشا » .

ولما جاء إلى القاهرة ، وتوجه إلى القصر للتشرف بمقابلة جلالة الملك ، التفت إلى اسماعيل تيمور بك « باشا » وهو فى حجرة التشريفات وقال له : « حينما سمعنا النبأ جئنا مسرعين ، وكنا فى زيارة ولى الله سيدى عبد الرحيم القناوى » . فرد عليه اسماعيل تيمور قائلا : « نفعنا الله ببركاته (١) » .

واستطرد الدكتور محجوب فقال : « إنى لا أشك فى أن اسماعيل تيمور كان يتهكم على النحاس باشا حينما قال له : « نفعنا الله ببركاته » كما لا أشك — وأنا العارف بعقلية النحاس — أنه تعمد أن يقول ذلك ليدخل فى روع العناصر الجاهلة من الجمهور (أن ولياً ميتاً جاء بولى حى إلى الحكم) ... وقال إن تبليغ ٤ فبراير يا بنى كان

---

(١) وقد نشرت جريدة الأهرام ما قاله النحاس باشا من أنه قال — أى النحاس باشا — انه كان فى زيارة سيدى عبد الرحيم القناوى فى هذه الأيام الخ .

محضراً فى سنة ١٩٣٩ للتخلص من على ماهر باشا كما ذكرت لك وشعر به محمد محمود باشا من حديث أمين عثمان معه كما تقدم. ثم كان السفير البريطانى على وشك تقديمه بعد وفاة حسن صبرى باشا. أقول لك بالاختصار : إن اللذين تداركا الأمر هما : أحمد ماهر، ومحمد محمود. أما ادعاء النحاس باشا بعد ذلك بأنه جاء إنقاذاً للموقف، فهذا عبث بالعقول، وهو ادعاء جرىء يحتاج إلى أكثر من التكذيب. إن النحاس باشا ارتكب جريمة وطنية كبرى لا تغتفر، لو كان القانون الوطنى سارى المفعول لقدم النحاس إلى المحاكمة.

السفير البريطانى وعلى ماهر

لما سألت الدكتور محجوباً لماذا عمل السفير البريطانى على التخلص من على ماهر باشا.

أجاب : هو أن السبب فى ذلك أن على ماهر باشا كان كلما طلب منه السفير شيئاً يتعارض مع نصوص المعاهدة على ما فيها من انتقاص لمصر، كان يرفض رفضاً باتاً النزول على إرادة السفير. وقد نقم هذا السفير على على ماهر باشا لأنه وضع أساس « سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب » تلك السياسة التى لم تستطع أن تحيد عنها الوزارات المصرية التى تولت الحكم بعد وزارة على ماهر، بل أصبح كل رئيس وزارة يتقرب إلى الشعب بجعل برنامجها « تجنيب مصر ويلات الحرب » وتتخذها أساساً لاستدرار ثقة الشعب.

ولما سألته : « لماذا لم يعلن على ماهر باشا الحرب على المحور ؟ ».

أجاب : إن على ماهر باشا رأى بثاقب فكره . لو أن مصر كانت قد أعلنت الحرب على الألمان لاستطاعت بضع طائرات ألمانية أن تخرب المدن المصرية من مصب النيل إلى منبعه فى ساعات معدودة ولأودت بحياة الألوف من أبناء وادى النيل فى وقت لم يكن فى مصر من المدافع المضادة للطائرات فى القاهرة والاسكندرية إلا ما يعد على أصابع اليد ، وفى وقت كانت فيه الأقاليم الأخرى والمرافق العامة ، وجميع مديريات الوجهين القبلى والبحرى وما بها من الكبارى خالية من المدافع المضادة للطائرات .

رأى على ماهر باشا يابنى ذلك ببعد نظره ، وقدّر أن كل ما تطالب به مصر من التعويضات بعد أن تضع الحرب أوزارها بين هذه الدول التى تتنازع على السيادة العالمية ، لم تكن تفى بالخسائر التى تلحق مصر .

فسياسة على ماهر باشا كانت من هذه الناحية سليمة لا غبار عليها ، ثم كانت تتمشى مع الوطنية والمنطق السليم ، فإذا كسبت انجلترا الحرب فيكون موقف مصر سليما بعد أن وفت بعهودها حسب المعاهدة . أما إذا انتصرت ألمانيا فيكون موقف مصر سليما أيضاً ، أى أنها لم تبتدر ألمانيا بالعداء ، وحجتها قائمة فى نفس الوقت ، وهى أنها كانت مضطرة إلى الوفاء بعهودها لانجلترا ، ولكن الإنجليز ظلموا على ماهر ، وعاونهم النحاس الذى كان يتحرق على الحكم ويعرض نفسه عليهم ، ومع أن السفير كان يعلم كما يعلم النحاس أن على ماهر باشا لم يفضل بين سيد يفرض سيادته على مصر بالقوة فعلا وآخر يلتمس هذه السيادة ، على الرغم من علمهما بهذا فقد نسبوا إليه أنه

كان « محورياً » وهو الحر الذى لا يفاضل بين سيد وسيد والوطنى الصارم فى وطنيته .

وإليك الدليل على أن الانجليز قد كانوا استجمعوا قوتهم للوثبة على حقوق مصر ، وفى نفس الوقت للتخلص من على ماهر باشا .

لما كلِّف حسن صبرى بتأليف الوزارة واتصل بالسفارة أنكر السفير وجوده .

قال الدكتور : « إن حسن صبرى قال له فى حديث جرى بينهما : حينما شكلت وزارتى اتصلت بدار السفارة تلفونياً لأبلغها نبأ تأليفى للوزارة فقيل لى إن السفير غير موجود . ولما سألت عن مكان وجوده قيل لى إنه توجه إلى « مينا هاوس » ولما اتصلت بهذا المكان قالوا : إن السفير لم يحضر ، وظللت أتصل من وقت لآخر بالسفارة آناً وبمينا هاوس آنات ، وكانت الإجابة : أن السفير غير موجود وعندئذ اعتقدت أن السفير ينكر وجوده ، وهو موجود بدار السفارة ، لأمر ما . ولما أفضيت بما خامرنى لزميل[1] من أعضاء وزارتى أشار علىّ بأن نتوجه إلى القصر ونؤدى اليمين الدستورية أمام جلالة الملك ، ونعلن تأليف الوزارة ، وبذلك نفاجىء هذا السفير بالأمر الواقع ، وفعلا أخذت بهذا الرأى فاتصلت بعد إعلان تأليف الوزارة وصدور المرسوم الملكى ، بدار السفارة ، وأخبرت المختص بأنى حسن صبرى أود أن أتصل بالسفير بصفتى رئيس الوزارة المصرية ، لذلك أرجو حين حضوره أن يتصل بى على هذا الاعتبار .

(١) هذا الزميل هو العلامة محمد حلمى عيسى باشا .

وبعد مضى ساعة اتصل بى السفير تليفونياً وخيرنى بين أن أتوجه إليه بدار السفارة وبين أن نلتقى بدار الوزارة، وعند المقابلة بادرنى بالتهنئة، وصارحنى بأنه كان متحاشياً مقابلتى بعد أن علم بإسناد تشكيل الوزارة إلىّ، لأن وزارة الخارجية الإنجليزية كانت قد أصدرت إلىّ تعليمات وكلفتنى بتقديمها. فلما فوجئت بنبأ تكليفك بتأليف الوزارة اتصلت بوزارة خارجيتنا أستعلم منها: هل أنفذ التعليمات على الرغم من أن حسن صبرى باشا شكل الوزارة، أم أعدل وأقر الحالة الواقعة. فلأنى لم أك قد تلقيت الرد أنكرت وجودى ريثما يجىء فأهنئك ياعزيزى صبرى باشا لأن وزارة الخارجية لا تعارض فى شخصك. وقال لى حسن صبرى: «إن السفير قال ذلك ليتحاشا عتابى على إنكار وجوده بالسفارة».

وقال: كان حسن صبرى رجلا جريئاً، نزيهاً، شهماً، أدار دفة الحكم بهمة ونشاط. وكان يعمل دائماً لصالح الوطن ورفاهية أبنائه فى أشد أيام المحنة، على الرغم من أنه كان محل الشك يوم توليه رياسة الوزارة، ومات وهو محل إجلال من كل مصرى.

وقد تكلم الدكتور كثيراً فى هذا، ولكننا نوجز ونجتزىء ... وأخيراً قال لى: «يابنى، هذه المعلومات أمانة فى عنقك أذعها بجرأتك، وبثها فى الجماعات، وإن كتبت لك الحياة بعدى أنشرها حينما ترفع الأحكام العرفية وتلك خدمة وطنية تؤديها لأمتك».

مع اسماعيل صدقى باشا

على أنى بناء على إيحاء محجوب بادرت بمقابلة اسماعيل صدقى باشا ، وأفضيت إليه بكل تلك المعلومات ، ولما ذكرت له كل ما حدث فى غرفة مجلس البلاط بقصرعابدين بالتفصيل ـ بقصد أن ينفى ما لا يتفق مع ما حدث ـ قال دولته : « ها أنت تعرف كل شىء » . وفى أثناء وجودى مع دولته فى حديقة قصره ، جاء أحد سعاة رياسة مجلس النواب يحمل صورة الاحتجاج الرسمى الذى أرسله احمد ماهر باشا إلى السفير البريطانى ، فرجوت دولته أن يشرفنى بالاطلاع عليه ، وهذا نصه :

حضرة صاحب السعادة السفير البريطانى .

بمناسبة التبليغ الذى وجهتموه سعادتكم إلى حضرة صاحب الجلالة الملك بوجوب تكليف شخص بعينه اخترتموه لتشكيل الوزارة المصرية ، وهو حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا وما اقترن بهذا التبليغ من التهديد المباشر بالقوة المسلحة البريطانية .

فأتشرف بصفتى رئيساً لمجلس النواب بأن أبلغ سعادتكم بصفتكم ممثلا لدولة بريطانيا العظمى فى مصر شديد احتجاجى على هذا الاعتداء الصارخ على استقلال مصر ، والذى أخل إخلالا شديداً بأحكام المعاهدة بين البلدين ، ومقتضيات الصداقة بين الشعبين ، وعرض علاقتهما للخطر الشديد .

وإنه ليؤسفنى أن يقع هذا الاعتداء وهذا التدخل فى صميم شئوننا

الداخلية فى الوقت الذى تدافع فيه بريطانيا عن الديمقراطية وحريات الأمم فى حرب هى بالنسبة لها حرب حياة أو موت .

وإذ أسجل هذا الاحتجاج .

أتشرف بأن أقدم لسعادتكم وافر الاحترام .

رئيس مجلس النواب

احمد ماهر

فقلت لدولته : « حيا الله أحمد ماهر باشا (١) ، فإنه رجل أخذته

---

(١) أما رئيس مجلس الشيوخ فلم يحرك ساكناً يوم ٤ فبراير ، اللهم إلا التظاهر بالاخلاص بالبقاء فى القصر فى أثناء رفع التبليغ البريطانى إلى القصر انتظاراً للرد البريطانى على رد الزعماء ، قال الدكتور : إن رئيس مجلس الشيوخ ظل فى السراى انتظار صيد يظفر به ، وكرر الدكتور ذلك عقب الموقف المائع الذى وقفه رئيس الشيوخ حينما لجأ على ماهر باشا إلى حرم مجلس الشيوخ الذى كان يرأسه محمد محمود خليل بك ليحميه من الاعتقال بلا مبرر ولا جرم ظاهر أو غير ظاهر ، لا سيما وهو متمتع بالحصانة البرلمانية ، فإذا به يغادر كرسى الرياسة ، ويحبس نفسه فى مكتبه ويمتنع عن مقابلة الشيوخ الذين هالهم الأمر وكان عجبهم مزدوجاً من إصرار حكومة الدبابات على القبض على ماهر باشا ومن تصرف رئيس الشيوخ وهو يتهرب عن القيام بحماية أحد أعضائه . وأى عضو؟ عضو واحد يضارع ألف عضو بل مليوناً من أمثال رئيس المجلس — أى عضو؟ رئيس الحكومة الذى استصدر المرسوم الملكى بتعيين محمد محمود خليل رئيساً للمجلس »

وقال الدكتور : « إن هذا الرجل الذى أعتبره أنه ليس مناً كمصرى قدماً لا النحاس طمعاً فى أن يجدد تعيينه رئيساً للشيوخ ليظل محطوطاً على الكرسى ، كرسياً حاملا شواربه أو هى حاملة إياه ، ولكن النحاس الذى تجمعه بهذا الرئيس جامعة الخلق وجامعة نكران الجميل ، لم يجدد استصدار المرسوم ليظل

الغيرة الوطنية ، فأرسل احتجاجه هذا فى غير مبالاة ، مسجلا تدخل البريطانيين فى شئوننا الداخلية . فشكر الله فضله » .

ثم توجهت إلى الدكتور وقلت له : « إن صدقى باشا قد أيّد مابلغك وما أفضيت إليك به من قبل » .

قال : « اذهب وقابل حلمى عيسى باشا واستفسر عما حدث فى السراى ، وموقف النحاس ، واحضر بعد أن تكتب حديثه » .

فتوجهت إليه وقابلته ، وسألته عما كلِّفت به .

أنبأنى حلمى باشا بما حدث ، وزاد على ما أخبرنى به صدقى باشا أن النحاس ارتبك حينما طُلب إليه أن يوقع على الاحتجاج مع الزعماء ، ثم قال : إن خلاصة القول إن حكم التاريخ سيكون قاسياً ، وعلى النحاس قال :

قائماً أو نائماً على رياسة الكرسى ! ولكن النحاس ، لم يرم إذ رمى ، ولكن الله رمى » .

وقال الدكتور « حيا الله حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى فقد ثار على هذا المحطوط على كرسى الرياسة ، ووجه اليه قوارص الكلم فتدارى وراء شواربه ، على أن حافظاً أقسم أنه سيظل بعيداً عن المجلس ما دام هذا الرجل سيظل محطوطاً على كرسى الرياسة » .

المؤلف : ومن العجب العجاب أن هذا الرئيس جاء بعد أن أقيل النحاس وذهبت وزارته إلى ذمة الشيطان ، ينشر على الناس بطريقة غير كريمة ، محضراً عما حدث فى القصر فى أثناء تقديم التبليغ البريطانى . ماشاء الله أيها المحمد المحمود أبهذه السهولة تنتقد غيرك ، وبهذه الطريقة ؟ ألا إنه يجوز لكل مصرى أن يحمل على النحس ويعيبه من غير بطانته المأجورين المحدودى الوطنية ، والذمة ، أما محمد محمود خليل رئيس الشيوخ الذى نكبت برياسته الحياة النيابية ، فلا . . لقد كان موقف محمد محمود خليل يضارع موقف النحاس باشا .

كان موقفه يتعارض مع الوطنية ، ويتجافى مع الولاء لمليك البلاد » ، وقلت للدكتور : « إن محمد حلمى عيسى باشا كان فى أشد حالات الألم والغضب وهو يروى تفاصيل مأساة عابدين » .

فقال الدكتور : « لا غرابة فإنه شريف المحتد ، كريم المنبت » .

إنقاذ الموقف

ولما سمع الدكتور أن النحاس يزعم أنه بقبوله الحكم قد أنقذ الموقف ، قال : « هذا رجل قد جمع بين الكذب والمغالطة وتسمية الأشياء بغير أسمائها ، إنى أقول : هب أنى أملك عزبة أو مزرعة أو قرية ، وجاء رجل لديه من القوة والسلطان ما يمكنه من انتزاع العزبة منى أو تعطيل وابور المياه ، أو الطحين ، أو أى مرفق من مرافق العزبة . وقال : يادكتور محجوب إذا لم تعين صالحاً ناظراً لعزبتك ، أو وكيلا عنك فإنى سأنتزع منك العزبة ! فهل يستطيع أن يقدّم هذا التهديد ، إلا إذا كان صالحاً متفقاً معه على ذلك مقدماً وقابلا ؟ . فادعاء النحاس أنه قد أنقذ الموقف كلام فى كلام .

أما ادعاؤه وقوله : « شرفتنى شرفاً فوق شرف ، والكرة بعد الكرة . . والمرة بعد المرة » . فهذا قول هراء .

إنى أكتفى يا بنى بنص التبليغ البريطانى الذى يقول :

« إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فإن الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعة ما يحدث » .

راجع أيها المصرى ما حدث فى منزل المستر جين (وقد سبقت الإشارة إليه) .

أبَعدَ هذا يتكلم النحاس ومَن إليه عن الوطنية وعن الاستقلال ألا فليغ الناس عقولهم . . ألا فليسموا الخيانة أمانة . .

* * *

لا شك فى أن يوم ٤ فبراير هـذا ، يوم التبليغ البريطانى ، كان يوماً مؤلماً على الشعب المصرى الـكريم بأجمعه . وإننا ننشر المحضر الرسمى للجلستان التاريخيتان اللتان عقدتا فى سراى عابدين العامرة وإليك هذا النص :

محضر جلستى اجتماع ٤ فبراير

فى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ اجتمع بسراى عابدين العامرة بناء على دعوة معالى رئيس الديوان العالى بعض ذوى الرأى من كبار رجال الدولة هم حضرات أصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالى والسعادة والعزة :

حسين سرى باشا ، شريف صبرى باشا ، مصطفى النحاس باشا ، على ماهر باشا ، محمد محمود خليل بك . أحمد ماهر باشا ، أحمد زيور باشا اسماعيل صدقى باشا ، عبد الفتاح يحيي باشا ، محمد حسين هيكل باشا محمد توفيق رفعت باشا ، على الشمسى باشا ، محمد حلمى عيسى باشا حافظ عفيفى باشا ، محمد حافظ رمضان باشا ، بهى الدين بركات باشا أحمد حسنين باشا ، محمود حسن باشا .

« وحوالى الساعة الرابعة بعد الظهر انتظم عقد الاجتماع وبعد فترة قصيرة تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك بتشريفه ، يرافقه

صاحب المعالى أحمد حسنين باشا فوقف الحاضرون إجلالا ثم جلس وتفضل فأذن لحضراتهم بالجلوس، ثم وقف صاحب المعالى أحمد حسنين باشا، وتلا بإذن جلالته المذكرة الآتية:

« عندما واجهت البلاد هذه الساعات الخطيرة التى يجتازها العالم ناديت، ونادى الشعب معى بوجوب اتحاد الجميع لمواجهة الصعوبات التى تقوم فى طريقنا، وكنت أرى أن أوقات الشدة يجب أن تعلمنا أن ننسى أشخاصنا وندفن الماضى لنبدأ عهداً جديداً نكون فيه كتلة واحدة، ورأياً واحداً، وأمة واحدة.

« ذلك لأنى أعلم أن ما من خير أصاب هذا البلد إلا وهو متحد، وما من شر أحاق به إلا وهو متفرق الكلمة.

« وهكذا بدأت منذ أمس أستدعى بعضكم، وكنت عازماً على أن استدعى البعض الآخر اليوم لأشرح لكم وجهة نظرى، ولأدعو الجميع إلى تأليف وزارة قومية، كنت أعتقد أن كلا منكم يضحى شيئاً قليلا ليكسب البلد شيئاً كثيراً، وكنت على ثقة أنكم ستلبون دعوتى، ففى الساعات الخطيرة يجب أن ننسى أشخاصنا ولا نذكر إلا بلادنا.

« ولكن قبل أن تبدأ مشاورات أمس طلب السفير البريطانى أن أستدعى النحاس باشا، وأكلفه بتشكيل الوزارة، أو أن أقبل من يقترحه النحاس باشا رئيساً للوزارة، وحدد السفير البريطانى الساعة الثانية عشرة ظهر الثلاثاء (أمس) موعداً استقبل فيه النحاس باشا فأجبت السفير على ذلك بأنى كنت قد قررت فعلا — وقبل وصول

هذا الطلب ــ أن استدعى النحاس باشا ورؤساء الأحزاب لاستشارتهم في تأليف وزارة قومية تواجه صعوبات البلاد الداخلية والخارجية وبذلك تحقق رغبة الشعب وتجمع مصر في وزارة واحدة وكتلة واحدة .

« وانتهت مشاورات أمس ، وعلى إثرها مباشرة طلب السفير البريطاني مقابلة رئيس الديوان وأخبره أنه علم أن النحاس باشا رفض فكرة الوزارة القومية وطلب السفير من رئيس الديوان أن يرفع إليّ نصيحة السفير أن أكاف النحاس باشا بتأليف وزارة ، وفدية ، فرد عليه رئيس الديوان بأن المسألة بين الملك ورؤساء الأحزاب.

« واليوم طلب السفير مقابلة رئيس الديوان ، وأعطاه إنذاراً ، هذا نصه :

« إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساء اليوم أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة ، فان الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعة ما يحدث »

« إنني دعوتكم لأستشيركم في هذا الموقف ، وإنني واثق أن رأيكم ستمليه الوطنية والحكمة ، وأنكم ستجلسون هنا كمصريين ، ترجون الخير والكرامة لهذه البلاد » .

عند ذلك وجم الحاضرون وبدا على وجوههم الكدر والألم ، ومضت فترة من السكون قطعها حضرة صاحب الجلالة بقوله :

« لقد دعوتكم وكلكم من ذوى الرأى لأستنير برأيكم في الموقف ، وكل رجائي أن تضعوا نصب أعينكم مصلحة البلاد والوطن دون سواها فلا يعنيكم شخصي ولا مصلحتي وإني مستعد لأحتمل كل مسئولية مهما عظمت في سبيل بلادي ، وأعتقد أنه لن يصيبني أذى بفضل الله

وهذا الكتاب (ورفع كتيباً صغيراً علم لنا أنه القرآن الكريم) وإنى سأترككم لتبادل الرأى وعندما تتفقون على وجهة نظر معينة تخطروننى بها . فقط أرجو ملاحظة أن الرد مطلوب منا قبل الساعة السادسة » .

ثم وقف ، فوقف الجميع تعظيما لجلالته ، وترك الجلسة تشيعه القلوب بالمحبة والإجلال ، وترمقه العيون بنظرات الإعجاب والتقدير على هدوئه وثباته واطمئنانه وصدق إيمانه .

وبعد انصراف جلالته خيم السكون على الجلسة حوالى دقيقة ، والحاضرون مذهولون من خطورة الموقف ، معجبون بشجاعة مليكهم وحبه لبلاده . ثم قطع هذا السكون أحمد ماهر باشا بقوله : الكلمة الآن لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا .

فقال رفعته فى حركة عصبية مانصه : « إنى فوجئت بالتبليغ البريطانى . ولكنى أقرر أن الذى أوصلنا إلى هذه الحال هو نظام العهد الحاضر وما جره على البلاد من أضرار ومفاسد » !!! .

وأخذ يطعن فى هذا النظام بقوله : « إنه نظام أشاع الفساد فى البلاد وأجاع العباد ، فإنى أينما سرت وحللت ، تقدم إلىّ الأهالى بالشكوى من الجوع والعرى » !؟ .

وأخذ يضرب على هذه النغمة حتى قاطعه حسين سرى باشا ، إذ كان وقتئذ لايزال رئيساً للوزارة لأن استقالته لم تكن قبلت بقوله : « يا باشا إنى أسلم لك بأن النظام الحاضر نظام فاسد ، وأن أسوأ عهوده العهد الذى قمت فيه أنا بالحكم ، فارجو ترك الكلام فى ذلك ، وإفادتنا عن رأيك فى

الموقف السياسى بعد التبليغ البريطانى ».

فأجاب على الفور : « إنكم أنتم الذين وصلتم بنا إلى هذه الحال ، ولست مسئولا عنها ، وإنى أقرر أنه إذا عرضت علىّ الوزارة فإنى أقبل تشكيلها وزارة وفدية » .

عندئذ تدخل الحاضرون ، فمنهم من طلب إليه أن يشكلها وزارة قومية ، فرفض بتاتاً .

فطلب آخرون أن يشكلها قومية وله الحرية المطلقة فى اختيار من يشاء من رجال الأحزاب الأخرى بغير تدخل من رؤساء أحزابهم ، فأبى .

وطلب غيرهم أن يقبل تشكيل وزارة قومية لإجراء الانتخابات ، ثم يشكل بعد الانتخابات وزارة وفدية ، فلم يقبل .

ثم اقترح آخرون تشكيل وزارة محايدة لإجراء الانتخابات وبعدها تشكل وزارة وفدية ، وغير ذلك من العروض والحلول التى رفضها كلها رفضاً باتاً ، وأصر على أن تكون وزارته وفدية لحماً ودما .

وقد كان يشايعه فى هذا الرأى دولة زيور باشا الذى رأى من بادىء الأمر قبول التبليغ البريطانى بلا قيد ولا شرط رغماً من احتجاج باقى الحاضرين عليه احتجاجاً مراً .

وهنا قام أحد الحاضرين وقال : « إنى أظن أن حضرات الأعضاء أرادوا بهذه الاقتراحات المختلفة اجتناب التبليغ البريطانى كما هو . ولكنى أعتقد أن فى تكليف النحاس باشا بتأليف الوزارة وقبوله لها مهما كان لونها يعد قبولا للتبليغ البريطانى . وإننى أرى أن وطنية النحاس باشا تقتضى منه أن يتقدم هو إلى جلالة الملك ويطلب إليه ألا يكلفه بتشكيل

الوزارة لأن فى تكليفه بذلك بعد التبليغ البريطانى هدماً لاستقلال البلاد وعدواناً على معاهدة الشرف والاستقلال . فانه بهذا وحده يسقط التبليغ ، لأنى لا أظن أن الانجليز يريدون فرض الوزارة على النحاس باشافرضاً ، إلا إذا كانوا على علم مقدماً بأن رفعته سيقبل تشكيل الوزارة مع هذا التبليغ » .

فلم يحر رفعته على ذلك جواباً .

ولما طال الجدل ، والنحاس باشا مصرّ على موقفه لايتزحزح عنه ، وقد اقتربت الساعة السادسة . رئى وضع حد للجدال والمناقشة ، فعرض دولة صدقى باشا على الحاضرين هذا الاقتراح :

« إن فى قبول التبليغ البريطانى اعتداء على استقلال البلاد ومساساً بمعاهدة الصداقة ولا يسع جلالة الملك أن يقبل ما يمس استقلال البلاد ويخل بأحكام المعاهدة »

فوافق الحاضرون على ذلك بعد أن عدل صدر الاقتراح بما يأتى « إن فى توجيه التبليغ البريطانى . . . إلخ » .

وقد وافق النحاس باشا بعد تردد على هذا الاقتراح ، ووقّع عليه هو وزيور باشا مع باقى المجتمعين .

خرج أحمد حسنين باشا ليبلغ جلالة الملك ما انتهى إليه رأى الجماعة . فعاد جلالته ، وشرف الاجتماع مرة ثانية حيث عرض على جلالته حسين سرى باشا ما دار من المناقشة ، ولخص لجلالته أقوال النحاس باشا .

فقال النحاس باشا : « إن هؤلاء الناس (يقصد الانجليز) محرجون ،

وأخشى إذا رفضت قبول الوزارة أن يلجأوا إلى تصرفات خطيرة قد يكون فيها ضرر كبير » .

فرد عليه جلالة الملك : « نحن شخصياً مستعدون لاحتمال المسئولية » .

نخفقت لهذا النطق السامى قلوب الحاضرين ، وبدا على وجوههم علامات الإكبار والإعظام لجلالته ، ولكن النحاس ـ رغماً مما تضمنه هذا التصريح الكريم من مغزى لايخفى ـ أصر على موقفه ، عندئذ وافق جلالته على اقتراح الهيئة ، وأمر بأن يبلغ للسفير البريطانى رداً على هذا التبليغ .

انفرط بعد ذلك عقد الاجتماع ، بعد أن قال جلالة الملك للحاضرين : « إنه يحتمل أن يُدعوا للاجتماع مرة أخرى » .

وفعلا حصلت هذه الدعوة الساعة التاسعة من مساء يوم ٤ فبراير وحوالى الساعة العاشرة تكامل الجمع ، وانعقد الاجتماع فى جو مكهرب ، ومشبع بالحزن والألم ، ولا حديث للمجتمعين إلا فيما جرى من الأحداث بين الساعة السادسة والساعة التاسعة .

وبعد برهة قصيرة شرف جلالة الملك ، تحيط به المهابة والعظمة ثم قال : « أرجو أن تنسوا ما دار بينكم من الحديث ، وما قررتموه بعد ظهر اليوم ، وإنى أكلف النحاس باشا بأن يشكل الوزارة ، ويعرض علىّ أسماء الوزراء لصدور الأمر بذلك ، وأطلب إليه عند انصرافه من هنا أن يمر على دار السفير البريطانى ويبلغه أنه كُلِّفَ بتشكيل الوزارة لأنه طلب إلىّ ذلك ، وكل ما أرجوه من النحاس باشا أن يسير فى حكمه سيرة قومية بعيدة عن الأغراض الحزبية ، وله

أن يعتمد عليّ لتسهيل الأمور إليه ، كما له أن يعتمد على مساعدة السفير البريطانى الذى وعد بذلك » .

وقد كانت هذه الأقوال كحراب مسمومة لمن يفهم معنى القول ويدركه . فتقبل النحاس باشا هذا العطف السامى بالشكر والامتنان وأنه يقبل تأليف الوزارة بأمر جلالة الملك ورضائه . فابتسم الحاضرون ابتسامة لها مغزاها .

عندئذ طلب احمد ماهر الكلمة فأذن له جلالة الملك فقال : « كنت أظن أن النحاس باشا ، وهو كما يقول عن نفسه زعيم البلاد ، وصاحب معاهدة الشرف والاستقلال ، أن يرفض تشكيل الوزارة ، أما وقد قبلها ، فإنى أعلن فى هذا المكان المقدس ، وفى حضرة مليك البلاد ، وسأقول للناس إن النحاس باشا يتولى الحكم الليلة مستنداً إلى أسنة الرماح البريطانية » .

فسرى بذلك عن نفوس الحاضرين ، وترجم بهذه العبارة القوية عما يجيش فى صدورهم .

وهنا قال النحاس باشا : « لست أنا الذى يستند إلى أسنة الرماح البريطانية » .

فرد عليه دولة اسماعيل صدقى باشا بقوله : « أظن أن رفعتكم وصلتم إلى هنا بعد انصراف الدبابات ؟ »

وهنا وقف جلالة الملك ، وخرج مرموقاً بعين التعظيم والمحبة والإجلال ، وانصرف الحاضرون دون أن يوجه واحد منهم كلمة تهنئة إلى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا .

وهكذا انتهت مأساة عابدين حيث عملت فى صرح استقلال البلاد معاول الهدم والاعتداء ، وللكنانة رب يحميها ، ولمليكها الحب والاحترام وحسن الجزاء والفداء .

* * *

هكذا تمت مأساة ٤ فبراير ، وهكذا كلِّف مصطفى النحاس باشا بتأليف الوزارة . وقد تم ذلك فى ظروف صعبة كانت ستقع فيها البلاد بسبب الضغط الأجنبي لو لم يعين مصطفى النحاس رئيساً للوزارة ؟ ؟ .

* * *

كان حسين سرى باشا عندما كان رئيساً للوزارة قد أمر باعتقال الشاب « عبد السلام وفا » الذى كان يقود المظاهرة التى كانت تنادى بقولها : « إلى الأمام ياروميل ! » ، وظل هذا الشاب معتقلا إلى أن تولى فؤاد سراج الدين باشا وزارة الداخلية فى عهد مصطفى النحاس باشا ، فعينه استثناء بمرتب قدره ١٥ جنيهاً فى وظيفة على ربط ميزانية مجلس مديرية الشرقية ، وهو لا يحمل الشهادة الابتدائية . ثم انتدبه سكرتيراً سياسياً له بوزارة الشئون الاجتماعية إلى أن أقيلت الوزارة .

وكان هذا الشاب فى عهد وزارة حسين سرى باشا موظفاً بمصلحة الضرائب فى الدرجة التاسعة بمرتب قدره ثلاثة جنيهات ، وكان قبل ذلك عاملا للأسانسير بمستشفى قصر العينى !

فماذا يفهم المؤرخ من ذلك ؟ . . .

* * *

بعد أن انحط النحاس على كرسى الحكم بموجب ذلك التبليغ البريطانى

أطلق مأجوريه يرددون كالببغاوات : « لقد أنقذ النحاس الموقف » .

قال الدكتور ، وقال المؤلف ، وقال كل مصرى وطنى شريف : « إن هذا كذب وادعاء » .

وإليك ما قاله النحاس باشا مدافعاً به عن نفسه : « إنه لم يكن يعلم أن هناك إنذاراً بريطانياً قد زج باسمه فيه ، وإنه فوجىء به ! ولم يكن يعلم عنه شيئاً قبل تلك اللحظة ، وإنه أبدى دهشته منه وإنه كان فى رحلة بالصعيد ، وإنه استدعى من قنا ، وإنه بصر المجتمعين بنتائج الاحتجاج إذا لم يكن مقترناً بحل للخروج من المأزق » .

ماشاء الله ! أى مأزق ؟ والإنذار البريطانى يحتم أن تكلف أنت بتأليف الوزارة .

* * *

ثم قال بعد ذلك ليبرر موقفه : « إن جلالة الملك أمره أن يتوجه إلى دار السفارة وأن يبلغ السفير أنه كاف بتشكيل الوزارة الخ . . . وأنه كان معارضاً فى الذهاب ليلا إلى دار السفارة ، ولكن جلالته أمره بذلك ، فقد كان من المتعين معالجة الموقف » .

ما شاء الله ! أيها الزعيم الوطنى ، دعنا نتألم من هذا ، ونسخر ونبكى فى نفس الوقت .

وقد حاول بعد ذلك أن يهون من وقع النطق الكريم (أنه ـ أى النحاس ـ يستطيع أن يعتمد على جلالته فى تسهيل الأمور ، وأن يعتمد أيضاً على مساعدة السفير البريطانى الذى وعد بذلك » .

ما معنى هذا ؟

قال حلمى عيسى باشا : « لو تمهل النحاس باشا قليلا .. لـكان له شأن آخر » .

وعندما سمع الدكتور حديث حلمى عيسى قال : « لـكنه لم يدخل القصر الملـكى إلا بوجه رمى صاحبه نقاب الحياء » .

والمدهش المصحوب بابتسامة الغيظ ، أن النحاس يزعم أنه كان يعتذر عن قبول الوزارة ، وأنه كان يلح فى الإعتـذار . . !

فيـا للمنطق العجيب ! . . .

أفبعد كل ما تقدم يتحدث النحاس باشا عن الوطنية المصرية ، والـكرامة القومية ؟!

ألا فليتكلم الجانى عن البراءة ، والخائن عن الأمانة إذا تمشدق النحاس بكلمات الوطنية بعد ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .

موقف النحاس بعد اعتقال على ماهر

لعل مما يدعو إلى أكثر من العجب ، أنه حينما علم النحاس شدة استنكار أبناء الأمة ولاسيما طلاب الجامعة من اعتقال على ماهر ، أراد أن يقلل من أهمية فعلته ، ثم حاول جاهداً فى نفس الوقت أن يصرف نظر الرأى العام عن على ماهر فكلف مأجوريه من فلول ذوى القمصان الزرق ومن إليهم من أشباه الطلاب الذين تمكن من شراء ذممهم بعد إفساد أخلاقهم عن طريق الإغراء والمادة مضافاً إلى هؤلاء لفيف من بعض المائعين الذين يسمون أنفسهم « حزب مصر ؟ » . أوعز

إلى هؤلاء أن يذيعوا فى المنتديات أن النحاس إنما اعتقل على ماهر شفقة عليه وحفظاً لكرامته ! مدعياً بأنه أصيب بمرض عصبى وقد توجهت بعد ذلك إلى الدكتور وأفضيت إليه بما يذيعه المأجورون . فقال لى : « من الآن تفرغ لدحض هذه المفتريات ومقاومة هذا الإفك ، ولا تقابلنى بعد اليوم حتى تؤدى هذه المأمورية . . انتشر فى البلد . . كن أكثر انتشاراً من الجرائد . . بل كن جريدة ناطقة متنقلة فى المدينة . جس خلال الديار اغش المنتديات . . سافر عند الاقتضاء إلى الأقاليم — كما كنا وكنت تفعل فى سنى ١٩١٩ و١٩٢٠ و١٩٢١ و١٩٢٢ . . ابدأ اليوم بالطواف والجلوس فى مقاهى (العتبة الخضراء) ، ميدان الملكة فريدة التى يتردد عليها أبناء القطر من الإسكندرية ، ورشيد ودمياط ، وأسوان ، وحلفا والخرطوم فكل تكذيب لمأجورى النحاس سينتشر فى البلاد . . ادحض بقوة الحجة ، وسلاح الحق كل ما قيل ويقال عن على ماهر ، وارتقب الأجر والثواب من الله ، والجزاء من هذا الوطن الذى أخلص ويخلص له على ماهر » .

وبينما أنا فى مهمتى قد هذه عثرت على موظف ينشر الدعاية النحاسية بمقهى الانجلو ، فألقيت عليه درساً قاسياً . ولما أخبرت الدكتور بذلك قال : « ما أشد كذب هذا الموظف ، وما أكثر شعوذته وخداعه إن النحاس ينسب إلى غيره ما هو غارق فيه يتهم الوطنيين فى وطنيتهم وهو الممسوس فى وطنيته ، ويمس ذوى النزاهة فى نزاهتهم وهو المحدود النزاهة . فإذا جابهه الناس بما فيه سرعان ماينكبهم بسيل من الادعاءات وطوفان من الأكاذيب حتى إذا أراد الإنسان أن يرد عليه ، ويعيد الحق

إلى نصابه يحتاج إلى مجلد فييأس ذو اللب « والطهى العقلى » فيسكت ، إنه يستغل ذلك أبعد استغلال » .

النحاس باشا والأحكام العرفية

قال الدكتور : « إن هذا الرجل الذى قفز إلى الحكم على أجنحة الدبابات الانجليزية يستغل سلطة الحاكم العسكرى استغلالاً غير كريم ، بطريقة لم يسبق لها مثيل . هو يستغل الحكم العرفى ضد « على ماهر » بمنع الصحف عن طريق الرقابة عن ذكر اسم على ماهر ، وكتابة كلمة دفاع عنه ؛ ويستغل الحكم العرفى فى شراء السيارات من كوتسكا ثم فى تكميم أفواه الوطنيين ، واستغلال النفوذ الحكومى للثراء . كما بينه زميله . بل موجده ، مكرم عبيد صاحب الكتاب الأسود .

ويستغل سلطة الحاكم العسكرى أيضاً ضد خادمه » .

المؤلف : لا بد لنا أن نذكر هنا ما بعث به النحاس باشا إلى جريدة الأهرام محاولا به الدفاع عن نفسه ، بعد أن عرف المصريون حقيقة جريمة ٤ فبراير التى ارتكبت فى الظلام الدامس . قال :

« لم يكن لى بعد الحقائق الدامغة التى ضمنتها بيانى الأخير بشأن حوادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ أن أعود إلى تناول هذا الموضوع مهما كابر المكابرون ، وادعى المدعون ، لولا أنكم نشرتم فى عدد أمس كلاماً (لقانونى كبير) سماه محضراً لجلستى اجتماع ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وبديهى أن القانونى الكبير المذكور كان من بين المجتمعين ، ولعله كان يطمع فى أن يشترك فى الوزارة القومية التى ألحوا علىّ فى

قبول تأليفها . وقد تضمن هذا الكلام تشويهاً لكثير من الحقائق يضطرني إلى تصحيحها ، وضعاً للأمر في نصابه ، ودفعاً لكل خطأ مقصود أو غير مقصود في هذا الموضوع الخطير ، خاصة وقد نسب القانوني الكبير في كلامه عبارات معينة إلى أسمى مقام .

١ - ذكر القانوني الكبير « أن المجتمعين بعد أن انتهى رفعة حسنين باشا من تلاوة المذكرة التي أمر جلالة الملك بتلاوتها ، وبعد انصراف جلالته ، خيم عليهم السكون نحو دقيقة ، ثم قطع هذا السكون المرحوم احمد ماهر باشابقوله : الكلمة الآن لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا » .

وليس صحيحاً أن المرحوم احمد ماهر باشا كان أول المتكلمين ولكني أنا الذي بدأت الكلام عقب انصراف جلالة الملك . وقلت إنه قد ظهر لي من البيان الذي تلاه رفعة حسنين باشا أن هناك إنذاراً بريطانياً زج فيه باسمي ، وأن من واجبي أن أبين حقيقة موقفي من هذا الإنذار الذي فوجئت به ، ولم أكن أعلم شيئاً عنه قبل تلك اللحظة . وأبديت دهشتي منه ، ثم أوضحت لهم أني كنت في رحلة بالصعيد ، واستدعيت منها وأنا في قنا ، ولم يخبرني جلالة الملك عند ما تشرفت بمقابلته في اليوم السابق « أي في يوم ٣ فبراير » ، بأي شيء من ناحية الإنجليز .

ثم دار الحديث بعد ذلك عن الحل الذي نراه للخروج من المأزق ورأيي فيه معروف .

٢ - ذكر القانوني الكبير أني وافقت بعد تردد على الاقتراح

الخاص بالاحتجاج على الانذار، وهذا أيضاً غير صحيح، إذ أنى وافقت عليه بلا تردد، وكنت أول الموقعين على الاحتجاج. وكل ما حصل هو كما أوضحت فى خطاب «١٣ نوفمبر» وفى بيانى السابق أنى بصرت المجتمعين بنتائج هذا الاحتجاج إذا لم يكن مقروناً بحل للخروج من المأزق.

٣ - وذكر القانونى الكبير أنى قلت: إن هؤلاء (أى الإنجليز) محرجون، وأخشى إذا رفضت قبول الوزارة أن يلجأوا إلى تصرفات خطيرة قد يكون فيها ضرر كبير، فرد علىّ جلالة الملك قائلا: «نحن شخصياً مستعدون لاحتمال المسئولية».

وقد تعمد القانونى الكبير أن يغفل ما قلته على الفور تعقيباً على كلام جلالته وهو: «إن جلالتك لست ملكا لنفسك ولكنك ملك للأمة، فأنت تاجها ورمزها، وهى تفديك بأرواحها ولا زالت، أطال الله بقاءك فى مقتبل العمر، أما الوزارات فليست تخليداً وعليها وحدها أن تتحمل التبعات والمسئوليات».

٤ - وذكر القانونى الكبير فيما أورده عن الاجتماع الثانى «أن جلالة الملك طلب إلىّ أن أمُرَّ بعد انصرافى من القصر على دار السفير البريطانى، وأبلغه أنى كُلِّفت تشكيل الوزارة لأنه طلب ذلك إلى جلالته».

وهذا أيضاً لا يطابق الواقع، إذ لم يقل جلالة الملك أن السفير البريطانى طلب ذلك إليه. وقد كنت معارضاً فى الذهاب ليلا إلى دار السفارة. ولكن جلالته أمرنى بذلك، فقد كان من المتعين كما

أوضحت فى بيانى معالجة الموقف مع الإنجليز .

٥ ـ وذكر القانونى الكبير أن جلالة الملك قال لى عند ما كلفنى تشكيل الوزارة : « إنى أستطيع أن أعتمد على جلالته فى تسهيل الأمور ، وأن أعتمد أيضاً على مساعدة السفير البريطانى الذى وعد بذلك » .

أما الشطر الأول من هذه العبارة فصحيح ومفهوم ، لأنى كنت أعتذر من عدم قبول الوزارة وألح فى الاعتذار ، وانتهى الأمر بأن أصر جلالته على تكليفى تشكيلها . وطبيعى والحالة هذه أن يتفضل فيذكر لى أنى أستطيع الاعتماد على معونته السامية . ولكن الشطر الثانى من العبارة لا أصل له بتاتاً إذ لم يقل جلالة الملك إنى أستطيع أن أعتمد أيضاً على مساعدة السفير البريطانى .

هذا ما يستحق التصحيح من كلام القانونى الكبير . وقد أتاح لى أن أنشر مفاخر أخرى لم أذكرها فى خطابى وبيانى السابقين .

أما ما ورد فى كلامه من قبيل التعقيب والتعليق فلا أحسبه جديراً بعنايتى .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

مصطفى النحاس

* * *

وقد رد اسماعيل صدقى باشا فى جريدة الأهرام على النحاس باشا مفنداً ومجابهاً له بالحقائق فقال :

إن مأساة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ التى ارتكبت فى ليلة ظلماء حالكة

السواد ، والتى حرصت الوزارة التى خرجت منها والسلطة الأجنبية التى أمرت بها على أن يبقى أمرها مكتوماً ، مسدلة عليه الأستار ، كان جديراً أن تترك ليخيم عليها النسيان ، إذ لا خير فى استعراض سقطات الرجال إن لم يكن لاستخلاص بعض العبر منها . والقوم مع الأسف فى حالة من التنابذ والتطاحن ، ومن تحكيم الهوى والشهوة فى شئونهم السياسية ما تمتنع معه أية استفادة من عبر الأيام .

لذلك عجبت لتصدى رفعة النحاس باشا ، وقد كان الحريص على كتمان حوادث ٤ فبراير وإخفائها حتى على البرلمان ، عجبت لتصديه لهذا الموضوع مما كان محتما معه ، لتبرير موقفه ، أن يلجأ إلى الكثير من ضروب الخيال ، ولا أقول الكثير من التشويه ، لأن التعبير به لا يتفق مع المركز الممتاز الذى يشغله الرجل فى المجتمع المصرى .

نعم ، كان النحاس باشا فى غنى عن هذا « النبش » الذى لا يخرج منه إلا ما يسوءه ، كان فى غنى عن أن يتصنع فى بيانه الأخير الجهل بكل شىء ، وأنه لم يعلم بالإنذار البريطانى إلا فى الجلسة التى دعانا إليها المليك . وقد فاته أن الحكومة البريطانية لم تكن لتفرض تعيينه بالذات ، ولم تكن لتشترط منحه كامل الحرية فى اختيار نوع الحكم الذى يرتضيه ، وأشخاص الزملاء الذين يطلبهم لمعاونته ، إلا وهى متفقة معه من قبل ، وخصوصاً بعد أن علمت ـ وما كان يمكن أن تعلم إلا منه ـ أن ميل المليك يتجه لتأليف وزارة قومية دون الحزبية ، وأن النحاس باشا لا يقبل إلا وزارة من حزبه .

وما من شك فى أن الحكومة البريطانية ما كانت لتتعرض لرفض

قبول النحاس باشا للوزارة ، بعد أن تكون قد أنذرت المليك من أجله . والحكومة البريطانية كما هو معروف حريصة دائماً على تحقيق وسائل النجاح والتوفيق لسياستها .

نعم كان النحاس باشا فى غنى عن أن يبدىء ويعيد فى أمر اتجاه المليك إلى وطنيته المعروفة ليحمله على قبول الوزارة ، وفى الدعوى بأنه لم يقبل الوزارة إلا نزولا على الرغبة السامية . . إلخ . . وهى دعاوى لا تتفق إطلاقاً وظروف الموقف وملابساته ، ولا تلتئم مع قعقعة السلاح تحت نوافذ القصر وضخامة وسائل القسر والقهر من حوله .

نعم كان فى غنى عن أن يطعن الزملاء المجتمعين فى عابدين فى صميم شعورهم الوطنى بأن ينسب إليهم فى « بيانه المنتظر » أنهم كانوا يتوقون إلى أن يشتركوا معه فى الحكم فى وزارة قومية ، فلما رفض الفكرة ويئسوا من إقناعه بالعدول عن الرفض فكروا فى الاحتجاج على الإنذار البريطانى إلخ . . . وقد نسى رفعة الباشا أو تناسى أن الإلحاح عليه فى تأليف وزارة قومية ما كان إلا للخروج من مأزق الإنذار وإزالة كل أثر له . وربما يذكر الباشا أن الاقتراحات فى هذا المعنى أخذت تنهال عليه وكلها ترمى إلى محو الأثر السىء للإنذار ، ولكنه كان يقابلها جميعاً بالرفض حتى ذلك الاقتراح المتواضع الذى تضمن تعيين وزير واحد غير وفدى لإيجاد مظهر ولو ضعيف للقومية ! فأين ذلك من دعواه الظالمة بأن مستشارى الملك لم يفكروا فى الاحتجاج على الإنذار البريطانى إلا بعد أن تولاهم اليأس والكمد تحرقاً على الوزارة ؟ .

والحقيقة يا رفعة الباشا ، أن المجتمعين فى القصر لم تكن تسودهم فى الظرف الرهيب الذى اجتمعوا من أجله أية رغبة فى الاشتراك فى حكم يأتى من طريق الضغط الأجنبي . وإنما الذى كان يسودهم هو الشعور بالألم العميق من تدخل لم يحسب للعهود حساباً ، ولم يقدر للكرامة قدراً . إنما الذى كان يسودهم هو شعور إشفاق لا على البلاد وحسب ، ولكن على خليفة سعد الذى كانوا يودون أن يكونوا إلى جانبه فى مواقف الذود عن حقوق مصر لا فى مواقف الإذلال .

إننى إذا نسيت فلن أنسى أن رفعة النحاس باشا لم يفز يوم مأساة ٤ فبراير بأى تأييد من أحد المجتمعين ، وكلهم ممن لهم فى تاريخ النهضة المصرية كبير الأثر ، وبعضهم ممن تربطهم به أواصر الصداقة من قديم ، اللهم إلا إذا اعتبر من ضروب المعاونة والتأييد الكلمة التى قالها المرحوم زيور باشا فى أثناء الاجتماع وقوبلت فى صمت كصمت القبور وهى : اعلموا أيها السادة أن انجلترا قوية ومن الخرق فى الرأى أن لا نذعن لقوتها ...

اسماعيل صدقى

تلك جريمة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، نذكرها للحقيقة والتاريخ . أما الإفاضة فإلى كتابنا « حوادث مصر السياسية » .

المؤلف : قال أحد الكبراء حينما رويت له مضمون هذا الفصل شفوياً أن السفير البريطانى كان يصيد البط فى أوشيم فلما قيل له إن على ماهر يؤلف الوزارة . قال متعضاً : « هذا رجل متعب » وحسبى أن أقول إن الرجل الذى يوصف بالمتعب هو الوطنى . ولما سألت الكبير عن اسم الذى أخبر السفير البريطانى نبأ تشكيل على ماهر للوزارة ، أجاب : هو مأمور مركز سنورس وقتئذ .

مداعبات أمير الشعراء

كان شوقى أمير الشعراء، الغزير شعره، القليل كلامه، كثير المقالب يخلقها بقصد الدعابة مع الدكتور محجوب. ومما يدعو إلى العجب أن شوقى كان مغرماً باستثارة كامن الغضب فى قلب الدكتور! ولطالما كان يدبر المؤامرات الخفية الحبيبة ضده، مستعيناً بغيره على معاكسته معاكسة «حبية». . . كان أمير الشعراء يجد فيها نشوة تضارع النشوة التى كانت تنتابه عقب وضعه إحدى قصائده الحسان وخرائده الغاليات الخالدات . . .

وكأن شوقى ـ رحمه الله ـ كان يعمل على استثارة الدكتور محجوب متعمداً، ليستوحى من غضباته شعراً، بل ليتخذ من تلك الغضبات المضرية والانفعالات الثائرة «شيطاناً» لشعره . . . وكيف لا أقول ذلك وقد رأيت شوقى ينفق مبالغ ليست بالقليلة فى جمع الأصدقاء الذين كان يستعين بهم على إثارة الدكتور محجوب واستفزازه فاذا ما أصابت رميته، راح مبرود الغليل، مستريح الضمير، هادىء البال. وحينئذ، يحضره «شيطان الشعر» فيذهب ملتمساً خلوته يفيض وجدانه شعراً.

وإنى أذكر أن شوقى عندما علم بأنى أحبط المؤمرات الحبية التى كان يدبرها أصدقاء الدكتور، جاءنى ذات مرة ودفع إلىّ من الجنيهات خمسة لأتغيب عن (مقهى الشيشة) حيث كان يجلس

الدكتور محجوب . وكان معلوماً لأمير الشعراء أنى كنت أنصب نفسى لإحباط تلك المؤامرات والمداعبات . أليس هذا بدليل على أن شوقى كان يجد اللذة فى معاكسة الدكتور على هذا الأسلوب ؟ ولطالما كنت أرى بريق الارتياح يلمع فى عينى شوقى عندما كانت تنجح هذه المؤامرات الخفية التى يدبرها ، ثم يجىء ويقف من بعيد أحياناً ، ويشرف على مشاهدة الرواية التى وضعها وأحكم فصولها ، فكان الدكتور محجوب يفطن إلى ما هنالك ويعود متظاهراً بالغضب إذا لم يكن منتصراً على شوقى وصحبه . أما إذا آب متغلباً عليهم فكان يروح منشرح الصدر ضاحكاً مسروراً .

وفى هذه الحالة التى يكون فيها منتصراً - وكثيراً ما يتغلب على شوقى عفو الخاطر - فإنه كان يعود مغتبطاً فرحاً ، تعلو ثغره ابتسامة عريضة وهو يكرر القول : « مرحى مرحى . . لقد أدميت كبد شوقى وأضعت عليه غرضه ! لقد فاته القطار ، وطاش سهمه . لقد أعلنته بالمقاطعة وقلت إنى سأقاطعه ، ولن أكلمه مطلقاً . ويقينا يا ولدى لن يقدر على مقاطعتى . . سيقابلنى غداً ، سيجىء إلى العيادة ولن يصبر على المقاطعة مطلقاً . إنى أقطع أن شوقى سيتناول القهوة عندى هنا . . هنا . . ألا تصدقنى يا ولدى ؟ فإذا لم أوافق ، سيوسط نقرش . . سيقابلنى فى . . صولت » . .

وفى خلال هذا الزهو البرىء بانتصاره على شوقى تسمعه يترنم - وهو يقطع حجرات العيادة جيئة وذهوباً ، بقول القائل :

إذا ما الخليل أحدث لى صر ماً وملَّ الصفاء أو قطعا
لا أحتسى ماءه على رنق ولا يرانى لبينه جزعا

أهجره ثم ينقضى زمن الـــــهجران ولم أقل قـذعا
احـذر وصال اللئيم إن له عضهاً إذا حيل وصله انقطعا

إلا أنه كان يراجع نفسه بقوله : « لـكن أصدقائى ليسوا لئاماً ، بل لاينفـكون كراماً ، غير أنهم يهزلون مداعبين . . . كان شوقى يريد أن يضحك منى فضحكت أنا منه وقهقهت . أقسم أن شيطان شعره قد أبق منه ، وفى ظنى أنه لن يقرب منه اليوم ، فشوقى اليوم غير شوقى بالأمس القريب » . . .



كان لكلا الصاحبين : شوقى ومحجوب ، غرام بأمنية خاصة تطمح إليها نفسه . فشوقى مغرم برتبة (الباشوية) ومحجوب يرجو (وزارة الصحة) . وإذن فلتـكن بينهما مداعبات حلوة مرحة ، وليهيء كل منهما لصاحبه « مقالب » المزاح المهذب الطروب .

هذا هو الدكتور محجوب فى ندوته بالعيادة وإذا بشوقى أمير الشعراء قد أقبل . . . فما باله مكفهر الوجه ، منقبض الأسارير ! وعهدنا به دائماً مشرق المحيا ، لاتفارق ثغره الابتسامة الوديعة . لقد جاء إلى صاحبه محجوب مهموماً آسفاً ، لأنه يحمل إليه أنباء لاتسره ، وينظر إلى الدكتور محجوب هزاً رأسه متألماً ، ثم يقول له : « كم أنت ضائع الحق يا محجوب فى هذا البلد ، حتى ليحاربك خلانك فى السر والعلانية . فهذا صاحبك النقراشى يعترض على تعيينك وزيراً للصحة ، وقد وُضع اسمك مرشحها الأول . فلم يهدأ للنقراشى بال إلا بعد أن حذف اسمك من قائمة الوزارة » .

فإذا حدث أن عاتب الدكتور محجوب صاحبه النقراشى ، لا يرد

العتاب بأنها رواية مختلقة، بل يحاول إلقاء ذلك على أحد غيره، وآخر الأمر تنكشف الحقيقة، وتظهر أنها كانت مؤامرة مدبرة .

وما تكاد ذكرى تلك المؤامرة تفتر أو تختفى حتى يرجع شوقى إلى صاحبه الدكتور محجوب متصنعاً الجد الخالص الذى لاتظن فيه ريبة ، فيروى للدكتور أن السراى قد اعترضت على تعيينه وزيراً للصحة . . لماذا ؟ لأنه لم يذهب فى التشريفات فى عيد (كذا) . . . ثم يؤكد شوقى روايته بقوله : «إن الذى أثار عليك غضب السراى هو (فلان . . .) لأنك أغفلت اسم جده فى مقال لك عن السودان، وكان له بتاريخه صلة وله بالسراى قربى . فأنت يادكتور متهم بأنك تجاهلت شأن عائلة (فلان) فاتخذ من عدم حضورك بالتشريفة ذريعة وانتقم لنفسه بحذف اسمك من قائمة المرشحين للوزارة» .

وهكذا تتكرر المداعبات والمقالب الحبية، يقحم فيها رجال هم بعيدون عن شوقى وعن محجوب . وهذه المؤامرات يكون لها غالبا (رد فعل . .) مستملح طريف، كما حدث حينما استفز أمير الشعراء الدكتور ضد كبير موظف بالسراى فاذا بالدكتور محجوب يستقل سيارته ويقابل ذلك الكبير المنسوبة إليه رواية شوقى . . . فيعاتبه مفنداً مانسب إليه . . فيجد ذلك الكبير نفسه خالى الذهن مما يحاسبه عليه الدكتور وتنكشف الحقيقة ويتضح أنه (مقلب) من مقالب أمير الشعراء، فيعود الدكتور محجوب وهو منشغل التفكير فى تدبير مقلب أو دعابة مماثلة يثأر بها لنفسه من صاحبه .

* * *

ثأر بثار

تمضى أيام كافية للنسيان ... وإذا بالدكتور محجوب يتعمد القدوم على شوقى فى مجلس تعودا أن يضمهما وبعض الرفاق والخلان وقبل أن يأخذ الدكتور محجوب مجالسه إلى جوار صاحبه شوقى يخاطبه : «أنت هنا فى مرحك وخيالك جالس تمرح والدسائس تعمل لك فى الخفاء ...» . فيرتاع شوقى ويعتدل التماساً للتفصيل ، فيستطرد الدكتور محجوب فى حديثه : « لقد كنت قاب قوسين ياشوقى من الباشوية ، وقد كادت البراءة بها تصدر بالأمس ، لولا أن صاحبك يا سيدى ... » يقول شوقى متهجما : « من صاحبي هذا يا دكتور ؟ » فيقول محجوب : « صاحبك حافظ إبراهيم ، يدس عليك وصمة قاتلة ، قاتلة يقيناً . فقد كتب إلى السراى يتهمك بأنك ممسوس الولاء فأضاعت هذه الوشاية منك رتبة الباشوية » .

هذه رواية خلقها الدكتور محجوب فآمن بصحتها شوقى وصدق كما آمن الدكتور محجوب برواية شوقى من قبل . وهكذا يهاجم كل منهما صاحبه بالرواية والمقلب وهو خالى الذهن . فيجىء شوقى إلى محجوب وهو منصرف إلى مشروعاته ومشاغله العامة ، كما يجىء محجوب إلى شوقى ، وهو مشغول بشعره ، مستغرق فى خياله . وهكذا كما كان يقول محجوب : « دقة بدقة ، وواحدة بواحدة والبادى أظلم ... »

بعثة من البراغيث

تخلف أمير الشعراء عن زيارة الدكتور محجوب فى العيادة أياماً طالت خلافاً للعادة ، فلما التقى الدكتور بصاحبه شوقى فى ناد من الأندية ، عاتبه الدكتور لانقطاعه عن العيادة ، فاعتذر شوقى بأنه فى آخر مرة كان فيها بالعيادة ، هاجمته كتيبة من البراغيث أدمت جسمه وامتصت دمه . ولم يقبل الدكتور محجوب هذه التهمة ولم يرض بهذا الافتراء ، فرد على شوقى بأن هذه البراغيث إنما حملتها سيارته ، فنقلها شوقى فى طيات ملابسه وألقى بها فى العيادة — قاتل الله سواقك لأنه لم ينظف لك السيارة — ويصر شوقى على أن البراغيث من زرع العيادة وحصادها ، ويطول بينهما النزاع حول « إثبات ملكية » البراغيث ، وكادا يطلبان الاحتكام إلى علماء (الحشرات) لتعرف البيئة التى نبتت فيها هذه البراغيث ، أهى عيادة الدكتور محجوب ، أم سيارة أمير الشعراء شوقى . وآخر الأمر يعلن شوقى صحيفة الاتهام تحملها قصيدة من شعره المستملح وهى الدعابة بين الحبيبين الصافيين فى الود والوفاء :

براغيث محجوب لم أنسها ... ولم أنس ما شربت من دمى
تشق خراطيمها جوربى ... وتنفذ فى اللحم والأعظم
إذا ما ابن سينا [1] رمى بلغها ... رأيت البراغيث فى البلغم
وتنظرها حول بيب الرئيس ... وفى شاربيه وحول الفم

(١) ابن سينا ، هو الدكتور محجوب تشبيهاً له بالرئيس ابن سينا .

بواكير تطلع قبل الشتـاء فتحمل ألوية الموسم
قد انتشرت جوقة جوقة كما رشت الأرض بالسمسم
ترحب بالضيف عند الطريق فبـاب العيادة فالسـلم

أثار نشر قصيدة البراغيث غضب الدكتور وآلم نفسه ، وكان غضبه فى هذه المرة شديداً ، رغم ما قصد بها من مداعبة . وكانت غضبة الدكتور تحمل معانى كثيرة ، منها : النظر إلى عقلية كثيرين من الناس الذين قد لا يفرقون بين المزاح العابر الذى يذهب بمضى وقته .

وإلى هنا أستطيع أن أقول مرتكناً على آراء الدكتور نفسه : إن سبب غضبته ومؤاخذته لشوقى ، أن شوقى لم يراع عقلية الجمهور الذى يصدق كل مايقرأه . ولو كان مجافياً للعقل ومنافياً للمنطق . ومما ضاعف فى غضب الدكتور وزاد فى ألمه . أن بعض الماجنين ، وبعض الثقلاء المتظرفين كانوا يتصلون بالدكتور مداعبين ومتندرين ، ينشدونه قصيدة البراغيث ، وحينئذ نفد صبره ، وضاق صدره ، فصمم على أن يثأر لنفسه من شوقى بأن ينقد شعره .

لقد اتصل الدكتور بشوقى « تليفونياً » ، وهو فى ثورة الغضب ، وخاطبه قائلاً : « ما هذا ؟ ألكى ترضى شاعريتك على حسابى ، تعمل على هدمى ؟ تالله ، إنى لقدير على نقد شعرك ، ومستطيع أن أغذى النقاد وإنى لجد قادر على أن أجد لكل بيت من شعرك نظيراً من نظم القدامى ، وفى متناول يدى المصادر ، وفى تلافيف ذهنى الموارد » . ثم ترك التليفون ، واستدعى كاتم سره ، وأخذ يملى عليه نقداً لشعر شوقى . ثم بعث بالرسالة الأولى إلى الطيب الذكر داود بركات بك شيخ الصحافة

ورئيس تحرير « الأهرام » وهو الصديق الحميم للصاحبين : شوقى ومحجوب وما أن أقبل مساء ذلك اليوم حتى عاودت الدكتور محجوب أريحية الوفاء وصدق الإخلاص وراجعته ذكريات الصداقة . فقال لأمين سره وكاتبه : « كيف أرضى أن يمس شوقى فى عظمته من جانبى . وكيف أنال منه فأكون السبب فى شماتة الحاسدين الحاقدين .. لا .. لا .. أنا لا أرضى بهذا أبداً .. اطلب الأهرام « هات داود بركات » . ولما طلب الدكتور من صديقه بركات العدول عن نشر نقده أراد رئيس تحرير الأهرام استغلال الموقف للدعابة فأكد للدكتور أن نقده قد نزل إلى المطبعة ، وأن الحروف قد جمعت ، وأن عملية سبكها قد انتهى العمال منها ، فهذه استحالة مادية تحول بينه وبين العدول عن النشر ، لقد سبق السيف العذل .

إلى هنا انقلب الدكتور ثائراً غاضباً ، على شيخ الصحافة لتسرعه بالموافقة على النشر . ثم طالبه بأن يعدل مهما تكن الظروف .. ثم اتصل بالطيب الذكر صاحب الأهرام جبرائيل تكلا باشا ، وأخذ يذكره بالصداقة ويطالبه باسم هذه الصداقة بأن يصدر أمره بعدم نشر نقده لشعر شوقى . وكان شيخ الصحافة قد اتصل بصاحب الأهرام وأفهمه بأنه يستغل التظاهر بعدم استطاعته العدول عن النشر . ولما رد صاحب الأهرام على الدكتور قائلا : بأنه سيعمل كل جهده فى سبيل عدم النشر إذا كان ذلك فى الإمكان . فإذا بالدكتور يعلن بأنه سيتوجه إلى المطبعة بنفسه ليمنع صدور الجريدة ، لأن كلمة « إذا كان فى الإمكان » . لا أطمئن لها ، إنما أريد أن تصدر أمراً حاسماً نافذاً بما أرجوه منك . وإذا بالتليفون

يهتف وهو فى هذه الحالة من منزل المغفور له محمد محمود باشا يطلب الدكتور لقضاء السهرة معه وفاء لسابق اتفاق بينهما . ولكن الدكتور قد أصرّ على التخلص من إجابة دعوة محمد محمود باشا لأنه لا بد من ذهابه إلى الأهرام ليمنع النشر .

وقد كان ، وصرف الدكتور محجوب سهرته فى بار اللواء ، وقد أجمل القدر بالتوفيق فى تلك السهرة إذ أقبل شوقى ، فكملت الندوة ، وطاب الحديث الجميل ، وعاد الصفاء والإخاء ، والتسامر الحلو بين الأحباء الأوفياء .

تلك ناحية من نواحى الدكتور محجوب ثابت اللطيف العشرة ، الظريف الحديث ، الطريف المحاضرة ، الذى لم يغتب خصما ولا صديقاً ولم يحسد أحداً ، ولم يحقد على جماعة أو فرد أبداً .

أرأيت كيف كان ، وهو فى ساعة غضبه ينقد شعر شوقى ، وكيف راجع نفسه فعزّ عليه أن ينال من صديقه ؟ .. أرأيت هذا الوفاء .. انظر إليه حينما يغضب على صاحبه ثم يراجع نفسه ويعدل عن النيل منه استبقاء للود . ثم انظر إليه كيف يجاهد فى سبيل منع الأهرام عن نشر نقده قائلا : « إذا أساء مرة ، هل يجدر بى أن أنسى إحسانه مراراً ؟ » .

إنى أربأ بنفسى أن أنسى قصيدته التى ترنم بها :

« محجوب » إن جئت الحجا ز ، وفى جوانحك الهوى له
شوقاً وحبّا بالرسو ل وآله أزكى سلاله
فلمحت نضرة « بانه » وشممت كالريحان « ضاله »

وعلى «العتيق» مشيت تن ظر فيه دمعك وانهماله
ومضى السرى بك حيث كا ن الروح يسرى والرساله
وبلغت «بيتاً» بالحجا ز يبارك البارى حياله
الله فيه جلا الحرا م لخلقه وجلا جلاله
فهناك طب الروح . ط ب العالمين من الجهاله
وهناك أطلال الفصا احة والبلاغة والنباله
وهناك أزكى مسجد أزكى البرية قد مشى له
وهناك عذرى الهوى وحديث «قيس» والغزاله
وهناك مجرى الخيل يُجرى فى أعنتها خياله
وهناك من جمع السماحة والرجاحة والبساله
وهناك خيمت النهى والعلم قد ألقى رحاله
وهناك سرح حضارة الله فيأنا ظلاله
إن الحسين ابن الحسـ ين أمير مكة والايالة
قمر الحجيج إذا بدا دار الحجيج عليه هاله
أنت العليل فلذ به مستشفياً واغنم نواله
لا طب إلا جده شافى العقول من الضلاله
قبّل ثراه وقل له عنى وبالغ فى المقاله
أنا ياابن أحمد بعد مد حى فى أبيك بخير حاله
أنا فى حمى الهادى أبيـ ك أحبه وأجل آله
شوقى إليك على النوى شوق الضرير إلى الغزاله
ياابن الملوك الراشد ين الصالحين أولى العداله

إن كان بالملك الجـلا لة فالنبي لـكم جـلاله
أو ليس جـدكم الذى بلغ الوجـود به كماله

* * *

كان شوقى لا يعلم الجهد الذى بذله الدكتور فى سبيل منع نشر نقده الذى دبجه يراعه . فلما علم بما تقدم بعد انقضاء السهرة ، زار صاحبه فى الصباح الباكر شاكراً ، ومقدراً ، بعد أن أيقظه ثم استسمحه معتذراً . ورضى محجوب مبتسما متناسياً .

وسرعان ما كان يرضى عند الاعتذار .

وبعدئذ قال شوقى : « عجل يادكتور بارتداء ملابسك ، لأن الرجل الطيب الأصل ، والكريم المنبت السيد وحيد الأيوبى ينتظرنا فى « صولت » ليصلح بينى وبينك . وقد قال لى إن عينيه لم تتفاهما مع سلطان الكرى ، لأنه ظن أننا قد تخاصمنا ، وإنك لتعلم رقة إحساسه ومدى حبه لكلينا » .

سرور وحيد بك

وما أن رأى وحيد بك صاحبيه ينزلان من السيارة ، حتى بادرهما بالعناق ، ولم يكد يستقر بهم الجلوس حتى قال محجوب لشوقى : أنت قلت بلسانى دون إذنى :

أيشتمنى سليمان بن فوزى وبيبى فى يدى ومعى طباقى
بقارعة الطريق يسب عرضى ويوسعنى عناقاً فى الزقاق

وعلى أية حال فإن العيهور سليمان فوزى يختلق علىّ كثيراً ،

وإذا لم يجد ما يقوله فإنكم تغذونه . وأنت بالذات ياشوقى الذى تغذيه ، وها هو القدر قد سخَّر لى من يقول لك بلسانى دون علمى ، ليثأر لى منك :

أمير الشعر يقرؤك السلاما   أبو عبده ويهدى الاحتراما
أما بعد فاعلم يا عزيزى   بأن لى وياك يا ولدى كلاما
يقيناً أن فى المكوى هدومى   وعار إن أتيتك بالبيجاما
بلغنى أن شعرك بات قدحاً   وتقطيبا وقفشاً واتهاما

فضحكا ، وضحك وحيد بك ، واغتبط ، ثم أولم لهما وليمة أنيقة احتفالا بعودة الصفاء ، وانقشاع سحب الغيم التى كانت تلبدت فى سماء الصاحبين الحميمين وكان فى صحبتهما المؤلف .

لابد من المقالب !

وبحكم العادة لم يستطع شوقى إلا أن يداعب ، وإلا أن يدبر مقلباً من نوع آخر فبعد أيام قد أوعز بعد انتهاء السهرة إلى سائق سيارته بالانصراف وكان يفضل المشى على الأقدام ليلا . وإذا به يروى للدكتور رواية تاريخية متعمداً المغالطة فى وقائعها . ولما صحح له الدكتور الوقائع ظل شوقى يغالط والدكتور يأتى بالحجج والمصادر ، وينتقل الموضوع إلى جدال ومناظرة . . وشوقى ينسب إلى الدكتور ضعف الذاكرة واختلاط الأمر فيمعن الدكتور فى الاستشهاد بأقوال المؤرخين الموثوق بهم ، وشوقى يغلو فى تنفيذ كلام الدكتور ، حتى وصلا إلى كرمة ابن هانىء « منزل شوقى » والدكتور فى تيه من نفسه ، منهمك فى تصحيح الرواية

التاريخية ، وكان الناس من حولهما يسيرون ، مستمعين ، مستفيدين من استفاضة الدكتور .

الثأر

وبعد أيام مضت بينا هما يغادران مقهى « الشيشة » كان الدكتور ينشد إحدى خرائد شوقى الخالدة ، واغتبط شوقى وسر ، وإذا بالدكتور يهاجمه بفجأة بقوله : « هذا البيت مسروق من قصيدة قديمة » وشوقى يدافع عن قصيدته ، ومحجوب يصر على رأيه ويطعن فى نسب القصيدة ، وظلا كذلك فى جدال ، ودفع ، ودحض ، حتى وصلا إلى العيادة ، وهنا قهقه الدكتور ضاحكا ، واعترف لشوقى بأن البيت غير مسروق ولا مقتبس . غير أنى أتعمد معاكستك لتوصلنى إلى دارى ، كما أوصلتك من أيام .

سأل محجوب صاحبه شوقيًّا فى بعض مجالسهما الدعابية : « لماذا تتحرق على رتبة الباشوية ، وأنت خالد بشعرك ما بقيت لغة القرآن الكريم ؟! لماذا تهتم برتبة الباشوية مع أنك ستخلد خلود اللغة العربية ، بينما حملة هذه الباشوية سيذهبون بموتهم إلى مجاهل النسيان ؟ فقال شوقى : « فقط ، لأشعر بأن أمتى قد قدرتنى وأنا عندليبها ، والرافع للواء الشعر فيها » .

وسأل شوقى محجوباً : « وأنت مالى أراك تتحرق على كرسى الوزارة ، مع أنك غنى بمشروعاتك وعلمك وجهادك وماضيك ؟ » فأجاب : « لأستطيع عن طريق الوزارة تنفيذ مشروعاتى ، والمناداة برأيى داخل مجلس الوزراء ، بدل صفحات الجرائد وأعواد المنابر » .

هذا نوع من المداعبات التى كثيراً ما كانت تتبادل بين الصاحبين الكريمين شوقى ومحجوب . رحمهما الله وأكرمهما فى جواره الكريم .

لماذا لم يتزوج محجوب ..؟؟

كان السبب الأول فى عزوف الدكتور محجوب عن الزواج ، مراد سيد أحمد باشا صديق الصبا الوفى ، ولهذا قصة تفصيلها : أن محجوباً — وهو طالب بإحدى جامعات سويسرا — تعرف بطالبة روسية حسناء ، كانت معه فى كلية الطب هناك . وكانت ثرية من طبقة رفيعة تتصل بوشيجة النسب إلى أسرة الأمراء ، وكانت تجمع بين الجمال الرائع والعقل الرصين ، فامتزجت روح محجوب ثابت الطالب بروح زميلته الروسية . فأحبته وأحبها ، ورضيت به خطيباً ، ورضى بها زوجاً .

وكان محجوب وقتئذ يستعد للامتحان فى علمين فى آن واحد . ولم يكن مناص من سفره إلى باريس ، مدينة العلم والنور ، مدينة الجد والمجون ، مدينة العقل والجنون ، مدينة الاجتهاد والخمود ، كما كان يقول الدكتور محجوب .

وطلبت الغادة الروسية من محجوب أن يقول كلمته قبل مغادرته سويسرا إلى باريس . فلما استشار صديقه الطالب مراد سيد أحمد (١) فى الاقتران بالروسية الحسناء ، نصحه بعدم التأهل بأفرنجية (ولو أنها فى الحقيقة شرقية) ولكنهم سيقولون فى مصر ، إذا تأهلت بها : إن

---

(١) هو مرادسيد أحمد باشا الذى صار بعد ذلك وزيراً للمعارف فوزيراً مفوضاً لمصر فى أوروبا .

محجوباً الطالب المصرى السودانى قد فضل الأجنبية على المصرية ، وهو الذى يتكلم عن الوطن والوطنية ، وعن الكرامة القومية . فلما سمع محجوب ذلك من مراد تعجل بالسفر إلى باريس دون أن يخبر خطيبته ، أو يستأذنها ، وطالت غيبته فى باريس دون أن يتصل بها أو يعتذر إليها .

وهنا يقول محجوب : « إن خطيبتى ، وغادتى الحسناء ، فهمت أنى قد عدلت عنها ، فخطبها بلغارى يدعى « جورجيكوف » فكان مراد سيد أحمد ، الزميل الصديق ، هو السبب الذى جعل الروسية الحسناء تفلت من يدى بعد أن ظفرت بها — سامحه الله — ولو أنى اقترنت بتلك الروسية . ربما كانت قد غيرت مجرى حياتى » .

قال لى الدكتور النطاسى « حلمى يعقوب مكارى » خريج جامعات سويسرا ومدرس الثقافة والدعاية الصحية بوزارة المعارف :

— قابلت الدكتور محجوباً فى سويسرا عام سنة ١٩٣٧ حينما كنت طالباً ، وهو يدرس الشئون العمالية . وكان قد اشتعل رأسه شيباً ، وأصبح شيخاً وقوراً . فلما أخذنا نتجاذب أطراف الحديث قص علىّ قصة الفتاة الروسية ، قلت له : بأنى أعرف هذه السيدة الروسية ، وقد تأهل بها بلغارى أنجبت منه ابنة هى آية فى الجمال ، وهى زميلتى فى الكلية الآن ، كما كانت أمها زميلتك ، والأسرة هنا تقيم » .

وهنا قال محجوب : « هيا بنا لزيارة من كادت تكون شريكة حياتى ، لأمتع ناظرى بجمال شيبها ، كما تمتعت بجمال شعرها العسجدى ولأرى تلك الابنة التى كان من المحتمل أن تكون ابنتى ، لو أنى

تأهلت بأمها . . . هيا بنا . هيا بنا . إنها الذكريات الحلوة . . . إنها قمينة أن تثير شجونى » .

وقال الدكتور فى معرض حديثه عن ذكرياته فى محاولات الزواج : « أما السبب الثانى فى عدم اقترانى ، فهو الصديق اللدود (. . . . .) وذلك أنه اختطف مصرية كنت قد اعتزمت التأهل بها من أسرة مجيدة عريقة . . عندئذ تراءى لى حظى فى محاولات الزواج قد تعثر ، ثم أقلع ، ولذلك ظللت بغير زواج ، حتى فاتت فرصة الشباب وأدركنى الكبر » .

* * *

وقد استغل شاعر النيل المرحوم حافظ ابراهيم بك قصة خِطبته ومحاولاته غير الموفقة للزواج — وأراد أن يداعبه مداعبة شعرية طريفة ، فأنشأ قصيدته المعروفة ، التى جعلها شاعر النيل إحدى درر ديوانه المطبوع وهى :

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها ... قصف المدافع فى أفق البساتين[1]
من كل قاف كأن الله صورها ... من مارج النار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يعلكها ... واختص سبحانه بالكاف والنون
يغيب عنه الحجا حيناً ويحضره ... حيناً فيخلط مختلا بموزون
لا يأمن السامع المسكين وثبته ... من (كردفان) إلى أعلى فلسطين
بينا تراه ينادى الناس فى حلب ... إذا به يتحدى القوم فى الصين
ولم يكن ذاك عن طيش ولا خبل ... لكنها عبقريات الأساطين

---

(١) بساتين فتح الله بركات حيث قضى الدكتور أياماً فى صحبة سعد زغلول .

يبيت ينسج أحلاماً مذهبة تغنى تفاسيرها عن علم ابن سيرين
طوراً وزيراً مشاعاً فى وزارته يصرف الأمر فى كل الدواوين
وتارة زوج عطبول خدلجة حسناء تملك آلاف الفدادين
يعفى من المهر إكراماً للحيته وما أظلته من دنيا ومن دين

وقد كانت بين حافظ ابراهيم ومحجوب مداعبات كثيرة مستملحة ولكن إذا أغرق حافظ فى المداعبة ، انبرى له الدكتور محجوب معنفاً مهدداً . ومن قبيل ذلك ماحدث بعد أن نشر حافظ ابراهيم قصيدته التى أتينا بها ، فقد التقى به الدكتور محجوب وأخذ يهدده بأنه سينقد شعره ، وسيملى على أصحاب المجلات الأدبية ، ويلفت نظرهم إلى القصائد التى أغار عليها من شعر القدامى وسرق معانيها وقوافيها . ثم يقول له : « أتريد أن تنتزع لنفسك معنى ماتزعم أنه من قولك فى مثل :

خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى ليل عرس

إنى أعرف صاحب البيت ، ومن هو ، ومن أى قبيلة ، وفى أى كتاب »

وأخيراً تنتهى المعركة إلى تصفية وترضية يتقدم بها شاعر النيل فى إجلال لمحجوب ، وتقدير لعلمه ، وسعة اطلاعه ، وطول باعه فى فهم فنون الأدب .

قصيدة

الاستاذ محمد أحمد الحناوى

فى رثاء المغفــــور له الدكتور « محجوب ثابت »

كنت فى الأزهر والثو　　رة تزداد لهيبا
والجهاد الحق قد ألـ　　ـفى من الشعب مجيبا
ضمت الراية رمزيـ　　ـنا هـــلالا وصليبا
والتقى القسيس بالشيـ　　ـخ حبيباً وحبيبا
وعلى المنبر ألفيْـ　　ـت من القـــوم خطيبا
مرسل اللحيـــة يبـ　　ـدو ثابت العزم مهيبا
قلت من هذا : فكا　　ن الرد من قلبى وجيبا
صاح فى الناس منا　　د ملأ الجـــو نحيبا
الجنود الحمر قد قا　　موا على الدرب رقيبا
ولدى البـاب رموا　　بالنـار شيخاً فأصيبا
فإذا القـوم وجـوم　　وبدا اليوم عصيبا
وإذا صوت يشق الصمـ　　ـت كالرعد رهيبا
أيها الصائح خـذنى　　إن تـكن تبغى طبيبا
واحبس الدمـع فقد　　جئت من الأمر معيبا
نحن لاندمع إن　　نلق دماً سال صبيبا
فالدم المسفوك فى الميدا　　ن لا يبدو غريبا

إنما ندمع إن خبنا وحاشا أن نخيبا
كان « محجوب » الذى نرثيه ذياك الخطيبا
وهو من كان من الصا ع ذياك الطبيبا
كان يبرى القول سهماً لاينى حتى يصيبا
وينادى القوم أن جـ ـدّوا نجد فوزاً قريبا
واصطلينا بعدها الثو رة شباناً وشيبا
لم أجده مادعا الوا جب إلا مستجيبا
يفتدى مصر وإن لم ينتهب منها نصيبا
ويرى السودان لا يـ ـكن عنها أن يغيبا
فهو منها لم يكن إلا شقيقا أو نسيبا
وهو ليلاه وكم غنى له كى يستطيبا
وهو لايرضى بأن نبنى من رمل كثيبا
بل يناجى وحدة الوا دى عساها أن تجيبا
ويناجى فيه شعـ ـباً اتخذ المجد ربيبا
ذاك من دب إليه المو ت بالأمس دبيبا
ففقدنا إذ فقدنا ه سياسياً أريبا
وطبيباً لم يلد من مثـ ـله الدهر ضريبا
وخطيباً عالماً حراً ومنطيقاً أديبا
أيها الراحل قد خلفـ ـت من ذكراك طيبا
خالداً كالنيل لا يعـ ـرف عن مصر مغيبا
فاقطف الآن جنى الجـ ـنة فى الخلد رطيبا
واسترح إن الليالى موشكات أن تطيبا

وفاء وتقدير

تقدير للوفىّ المسرف فى وفائه ، ووفاء المخلص الصادق فى إخلاصه . .

هو تقدير منى لصاحبى الأستاذ « صالح على عيسى السودانى » . ثم هو وفاء من صاحبى للشهيد الوطنى « محجوب ثابت » . وكلانا مدين له بهذا الوفاء . لأنه كان الرجل الذى أدى لمصر أجمل الأداء ، وبذل لوادى النيل أسخى البذل وأكرم العطاء . . . احتواه الموت فى زمن سرعان ما ينهال فيه ستار النسيان على الأبطال والفدائيين الشهداء .

كنت فى موقف الوداع ، وفى موكب الرحيل ، تقلنى عربة الموتى ألازم التابوت الذى احتوى جثمان « محجوب » ، لا أملك غير الدمع يتساقط فوق التابوت طيّعاً سخيناً . وقد تراءت لى خيالات الأسى فى الجموع الحاشدة ، لأنها آخر عهد « محجوب » بزحام الجماهير . وتراءى لى ساعتئذ أن « محجوباً » سينزل إلى محراب الموت منسياً فى المنكورين المجهولين . ومر بخاطرى وأنا فى رجفة البكاء ما لأمير الشعراء من حكمة فى قوله :

نسيت روعته فى بلد   كل شىء فيه ينسى بعد حين

وإذا بى - والموكب يتهيأ للسير - ألمح صاحبى « صالحاً السودانى » وكبار من رجال مصر يعزونه يداً بيد فى فقيد يومنا الباكى ، ثم

إذا به متجه ناحيتي يطوف حول « عربة الجثمان » كالمأخوذ الذاهل نال منه المصاب الفاجع المرير . . حاولت أن أجد له مكاناً ليرافق معى جثمان فقيدى وفقيده وفقيد وادى النيل . ولكن ضاق عما أردت له ما شغله المصانعون المراءون من مقاعد حول تابوت الفقيد .

* * *

التقينا وكلانا الباكى الموجع الحزين . . . و « صالح » الأمين على العشرة ، الحريص على الوفاء . . . هو « صالح » الذى رافق « محجوباً » ولازمه ملازمة الصفى لأطهار الرجال . . . ثم هو مؤرخ المعاصرين . . . وللفقيد « محجوب ثابت » صفحة من المجد ، بل له فى غمار الأحداث تاريخ حافل بالبطولة . . .

التقينا فى مساء ذلك اليوم . فإذا هو يفضى إلىّ بما اعتزم . . . سيضع كتاباً لمحجوب . . . سيؤرخ الرجل الذى توارى عن دنيا الأحياء .

وها هو قد فعل . . . ها هو قد أدى ما دفع به عن نفسه دين العشرة ووفاء الصحبة وإرضاء الضمير ! . . أرخ « محجوباً » فأنصف تاريخه . وصدّق العزم فأحيا ذكراه ، وكشف عما نسى المعاصرون من جهاده فمحا عن اسمه الغبار .

بعث «محجوباً» بعثاً جديداً محصناً بالخلود والبقاء لأنه أحياه تاريخاً لهذا الجيل ولمن سيتعاقب مع مسير الزمن من أجيال يقرأها المستقبل وأهلوه صفحات من التوجيه الوطنى ، والتربية السياسية ، والوعظ الاجتماعى . . . دروس كلها عظات وعبر ، وإنشاء للرجال يحتويها كتاب « الأسرار السياسية وأبطال الثورة المصرية وآراء الدكتور محجوب ثابت » لأن

محجوباً كان ـ حقاً وصدقاً ـ مثالا ندر أن يجود الزمان بنظيره في الرجال .

* * *

صحبت الأستاذ « صالح على عيسى السوداني » خلال أشهر ستة وهو دائب جاهد صابر في أداء واجبه لذكرى « محجوب » .

وصالح الشموس العيوف المقل المعدم . . . يعطى من وقته أشهراً ستة ضاقت به أيامها عن السعي حتى في سبيل قوته إلا الكفاف ، وأمضته لياليها احتجاباً عن سهراته ومجالسه ، حتى التمسه محبوه فلم يجدوه إلا لماما . واشتاقه أصحابه وسماره لا يرونه إلا في لمحات طارئة . . . لأنه مشغول في أحشاء الذكريات يستخلص من أغوارها أيام محجوب ، وجهاد محجوب ، ومواقف محجوب ، ومآثر محجوب ، ليخرج إلى الناس من احتواه الموت حيًّا مسطوراً في كتاب منشور .

التقيت بصاحبي « صالح » في الاسكندرية . . وأجزم موقناً أنه كان ذاهلا عن الإسكندرية ، وعن كل شيء مما يلتمسه طلاب الاستجمام في المصيف . . . ثم رأيته بعد ذلك في بيته في القاهرة . فكان وهو منكب على تدوين كتابه ذاهلا حتى طعامه فلا يتنبه إلى نداء معدته إلا حين يطرق عليه بابه بعض الضيوف ، وقد يلازم هؤلاء الضيوف ضيفن أو ضيافن . فكنت أشهد صوراً تبعث على الإعجاب والعجب حين لا يحنو على معدته بالطعام إلا تابعاً لمن نزل في ضيافته ، وقد تضيق به الحال ، فيتحمل من أجل رواده ما فوق طاقته حين يرجونه على ما به من إقلال ، فيجردونه من كل شيء وكأنما صورة هذه الحالة تنطبق على ما قرأته في كتاب « البخلاء » لشاعر يقول :

إذا جاء ضيف جاء للضيف ضيفن

فأودى بما يقرى الضيوف الضيافن (١)

وكثير من هؤلاء ما كانوا يترفقون بصاحبنا « صالح » فمنهم من يأتيه طالباً رفده ، ومنهم من يأتيه طامعاً فى ملابسه — وهى ثروته فيلصّها — إن لم ينلها اختياراً — ومنهم من يطمع فى كتبه ، ومنهم من يسرق حتى أوراقه البيضاء وهى بضاعة عمله . . . بل هناك ما هو أعجب فى ابتلاء القدر لصاحبنا صالح ، فقد أصيب بجارة مصابة بالهستيريا النسائية ، لاتنى عن تعكير صفوه كلما التمس أداء عمله أو اختلاس فرصة للراحة . وهو صابر على هذا البلاء يجتاز فى ضجيجه سبيله فى أداء واجبه الذى عكف عليه فى سبيل محجوب .

وصالح المحبب إلى قلوب من فهموا نفسيته ، قد أحدث اختفاؤه فى « كتاب محجوب » فراغاً يباباً فى نفوسهم ، فتعقبوا خطواته مشتاقين وتطلعوا لحديثه ظامئين . . .

وقد لمح أحمد عاصم بك المربى « صالحاً » مرة فى « الكنتننتال » وهو حائر فى تنقله بين المقاعد والأركان ، شارد الخطى عابث الانتباه إلى من حوله من البشر ، حال الفلاسفة الزاهدين . . . فأشار عاصم بك إلى خادم الفندق للحاق بصاحبنا « صالح » ولكنه كان قد هبط من « الكنتننتال » إلى سبيله الذى لا يعلمه من التمس أوبته ، واختفى طلباً للاختلاء بنفسه . فكتب إليه عاصم بك فى دعابة ظريفة مستملحة يقول :

(١) الضيفن هو رجل يجىء مع الضيف الأصيل دون أن يكون له بالمضيف معرفة وهو فيما تطابق صفته شبيه بالطفيلى أو هو الطفيلى .

رأيتك من بُعْد فقلت لخادمى علىّ به من قبل أن يتهربا
فصالح عندى مثل زئبق متجر تناثر فوق الأرض يطلب مسربا

وأذكر ما كان لهذا الاعتكاف الكادح من أثر فى نفس أستاذنا الشاعر المحجب حسن حمدى بك ، حين غاب عنه الأستاذ صالح السودانى ، وانقطع عن لقائه بما شغله فى وضع هذا الكتاب فأرسل إليه يستدعيه للقائه بهذا الرجز :

إلى (عزيزْنا) صالح السودانى يا صالح يا أبيض السواد
ويا نقيض الفاسد الوداد متى أرى شخصك فى سهادى
كما أرى طيفك فى رقادى عدنى ولا تنم عن الميعاد
أنام عنك ربك العوادى ودام فيك خلق الأمجاد

ولكن « صالحاً » ذاهل فى وضع « كتاب محجوب » وشاعرنا الفيلسوف مشوق إلى السمير الوفىّ ، والخليل الصادق ، والنديم الأمين يلتمسه فى صديقنا الأستاذ صالح السودانى . فانتظره وارتجاه والتمسه وناداه . . . وأخيراً . . . بعث إليه معاتباً ومداعباً يقول :

أصالح يا شبيه الليث بأسا ويا من كان يشبهه حياء
أراك جفوتنى حيناً طويلا بلا ذنب يجيز لك الجفاء
أهـذا ما تسميه إخاء أهـذا ما تسميه وفاء ؟
فسمّ طلاح فرعون صلاحا وسمّ غباء مروان ذكاء

وهكذا يضيق بالمؤلف وقته عن أداء حقوق الصحبة لأصدقائه وإخوانه ، فإذا التمس فسحة من الوقت يستجم فيها لمواصلة عمله فى « تاريخ محجوب » تراه ينطلق متموج المسير بين « لونابارك ، وبار اللواء

والكنتننتال ، والنيوبار ، والانجلو ، ونادى المحفل الماسونى » وهو يتأبط بضاعته ، أكداساً من الورق تحوى كل خفى ومستور ، أو منسى ومنكور من ذكريات لمحجوب فى تاريخ حياته ، وأيام الحركة الوطنية .

وكم اعترضه بعض الذين حملتهم الدنيا إمعات يعيشون فى غمرة من الحظ المقبل ، والدنيا المواتية ، أعداءً للكريم ، ولو فى عداد الموتى ، وحساداً لكل عظيم ولو فى الراحلين .

وإنى لأذكر يوماً كنت فيه جالساً ببار اللواء عن كثب من صاحبنا « صالح السودانى » وهو منهمك فى استيحاء ذكريات محجوب وتاريخ جهاده . وإذا به يجالس رجلا يهش له ويبش لحديثه ، وهو الكاتب العبقرى ، والأديب العميق ، المحجب السرى ، محمد الصادق حسين بك . وأخذ « صالح » يتلو عليه بعض فصول الكتاب ، فإذا بطبيب انبرى متحاملا فى حسد اللئيم يريد أن ينتقص من قدر « محجوب » ويزرى بذكراه محاولا ـ فى زعمه الخاسر ـ أن يثنى المؤلف عن المضى فى سبيله . وإذا بصالح المتشبع برأيه وفكرته ، وصواب ما هو متجه إلى أدائه ، يثور فى وجه ذلك الطبيب صائحاً بقوله : « خسئت أيها المجرم ! أين أنت من محجوب !! أين الميوعة من الرجولة ، وأين النفاق من الصراحة ، وأين التجسس من الوطنية العفة الطاهرة ! .. إن شسع نعل محجوب ليساوى آلافاً من أمثالك . . . » (١)

وأراد ذلك الطبيب أن يتفادى الصدمة القاسية فحاول أن يقول

---

(١) هذه عبارات صاحبنا الأستاذ صالح كما سمعتها نصا فى هذه المعركة التى قام بها فى وجه ذلك الطبيب المهاجم المخذول .

لصاحبنا « صالح » : « إن الدكتور محجوباً كان أستاذى ! » فإذا هو دفاع اللئيم ، ضاعف من ضخامة الجرم ، إذ يعطى ذلك الطبيب دليلا على لؤم النفس والعقوق ، ونكران فضل الأستاذية ، وجميل التربية .

وهنا يوغل « صالح » الشجاع فى إعطاء ذلك الطبيب درساً فى الأدب والتهذيب الاجتماعى لطلاب العبرة والعظة ، فيقول له : « إن مجرد المقارنة بينك وبين محجوب ، بمثابة خدش لعظمته . فأنت أيها الطبيب تستقبل كل وزارة آتية بالمدح والثناء فى المجالس بصوت عال رغبة فى أن ينالك خير منها لذاتك أو لأولادك . فإذا لم تنل مأرباً ، تنقلب طاعناً فى همس المضطغنين وطعن الجبناء الخائفين . . . أما محجوب الذى كان يواجه أصدقاءه من الزعماء بما فيهم من ضعف وبما يراه موضعاً للانتقاد ومحلا للمؤاخذة ، فإنه كان يحفظ غيبتهم . »

ويحاول الطبيب أن يفلت من الموقف الذى تورط فيه ، فيكرر عبارته قائلا : « إنه كان أستاذى » . . ولكن صالحاً يضيق عليه الخناق للنهاية إذ يرد عليه بقوله : « أبعد أن غلبت على أمرك وألجمت وهجنت وأزريت وسجنت فى محبس لؤمك ونكرانك للجميل تزعم أنك تلميذ محجوب لتسكتنى ؟! لا . . . لست بتلميذه ، ولكنك ناكر للجميل » .

وأخيراً . . . كان المؤلف فى هذه المعركة الدفاعية النبيلة هو الشجاع الجرىء ، يدفع بالحزم تندر هؤلاء الذين يحسدون « محجوباً » ميتاً كما حسدوه حيًّا ، وأنكروه وتنكروا له وهو فى أشد مواقفه الفدائية الباسلة .

وبعد — فهأ قد أدى الأستاذ « صالح على عيسى السودانى » واجبه ، وأرضى روح « محجوب » ، بل أضاف إلى التاريخ « سفراً » جديداً ، فيه للقارئين ثروة من ذكريات الوطنية العفة والجهاد الصابر والكفاح الكريم الذى كان يتخلل « حياة محجوب » العامرة بالمجد الذى احتواه كتاب : « الأسرار السياسية وأبطال الثورة المصرية وآراء الدكتور محجوب ثابت » وهو كما يقول المؤلف فى مقدمته : إن تاريخ محجوب هو تاريخ الحركة الوطنية والجهاد المرير ، هو صفحة الوطنية الناصعة ، هو الكرامة ، هو الرجولة ، هو التضحية . . » وهو كما يقول :

« كأنه قد فصد عرق الوتين واتخذ من دمه مداداً لليراع »

وإنى لأراها صورة صادقة فى التعبير عن حقيقة هذا الكتاب وعن الروح المخلصة التى كتب بها ، فقد جاء الكتاب لأبطال الوطنية إحياء ولذكراهم إبقاء ، ولاسم « محجوب ثابت » فى عظماء التاريخ تخليداً راسخ البقاء والوجود ؟

م . ى . د

استدراك

— ١ —

فى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدما تولت حكومة النحاس الحكم بموجب تبليغات بريطانية، وظلت بناء على انذارات قابضة على أزمة الأمور، كان السكرتير الإدارى لحكومة السودان قد أدلى بتصريح جرىء نشرته جريدة «الاهرام» بلسان مكاتبها فى الخرطوم بعددها الصادر بتاريخ ١٩ يناير سنة ١٩٤٣ وهو التصريح الذى أعلن فيه أن حكومة السودان أنشأت مجلساً استشاريا لشمال السودان فقط دون الجنوب — وقد رد السكرتير مقدماً على مَن يعترض على إنشاء برلمان أو شبه برلمان للشمال دون الجنوب، أو يقول: إن الإنجليز قد أنشأوا هذا المجلس توطئة لفصل الشمال عن الجنوب (راجع بين لى ستاك ومحجوب) ثم حاول أن ينفى هذه الفكرة، ثم زعم أن حكومة السودان لم تفكر فى هذا. وسكتت حكومة النحاس ولم تحرك ساكناً، ولم تكتف بالسكوت بل أصدت أمراً إلى مراقبى الجرائد بعدم السماح بنشر أى نقد يوجه إلى حكومة السودان.. عندئذ أرسل المؤلف تلغراف احتجاج إلى النحاس باشا، وصورة أخرى إلى معالى كبير الأمناء وإلى جميع الزعماء وفيه احتجاج على سكوت النحاس على ذلك التصريح، وقد قابل الزعماء وطالبهم بعدم السكوت.

وإليك نص هذا التلغراف :

إن تصريح السكرتير الإدارى لحكومة السودان المنشور بأهرام ١٩ يناير سنة ١٩٤٣ الذى يخاطب فيه السودانيين كأنهم يدينون بالولاء للتاج البريطانى لهو اعتداء صريح على مصر مصحوب بالقحة والاستهتار والتبجح فى وقت يتغنون فيه بميثاق الإطلانطى كما ترنموا فى الحرب الماضية بمبادى ولسون .

إن إنشاء مجلس استشارى لشمال السودان دون الجنوب مقصود به فصل الشمال عن الجنوب لتسهيل مهمة المبشرين فى الجنوب تنفيذاً لوصايا رئيس مؤتمر المبشرين الذى عقد فى لندن سنة ١٩٠٩

وبما أنكم تدافعون عن لبنان فنطالبكم بالدفاع عن السودان الشطر المتمم لمصر .

إنى كمجاهد قديم أحتج بشدة على التصريح البغيض وأطالبكم بالقيام بعمل جدى لدفع هذا العدوان .

ألا إن برلمان مصر هو برلمان السودان ولو كان مزيفاً ؟

صالح على عيسى السودانى

عندئذ قال الدكتور : إذا لم تتدارك انجلترا الأمر بعد هذه الحرب مباشرة وتسلم بحقوق مصر طواعية فانها ستسلم بها مكرهة مجبرة مضطرة .

إنها لا تستطيع أن تخدع مصر أو تخضعها فى حرب ثالثة ..

لقد أنجبت مصر شباباً لن تستطيع الأحزاب أن تؤثر على وطنيتهم أو تكبت مشاعرهم فى حرب ثالثة .

أما حزب الأمة فى السودان فلن يستطيع أعضاؤه الوقوف أمام هذا التيار الذى سيجرفهم .

إن أعضاء هـذا الحزب هم صنائع الإنجليز ، وهم نوع لا تخلو من أمثالهم أمة تنكب بالنفوذ الأجنبى فى أى بلد بالغـة ما بلغت من الوطنية والرقى . ألَمْ تصب ألمـانيا بأمثال هؤلاء عقب انهزامها فى حرب سنة ١٩١٤ فاستخدمتهم فرنسا ضد الألمان ؟

وفى هذه الحرب ألم تجد ألمانيا فى فرنسا بعد أن ضعفت مقاومتها فرنسيين نظروا إلى الدنيا بعيون ألمانيا المحتلة ؟

* * *

ألم تصب مصرنا فى عهـد كرومر بأمثـال الشيخ الدمرداش والبكرى وعبدالكريم سلمان وأمثالهم ، وهم من رجال التصوف المزيف ؟

وقال : أنا لست باليائس .

* * *

— ٢ —

لقد دونت رأى الدكتور محجوب فى التراجم حسب سياق الحديث الذى دار بينه وبينى فى فترات شتى ومناسبات مختلفة ، وحرصت على أن لا أقدم أو أؤخر فى الأسماء والسرد . ولم يدر فى خلدى أن أضع ترجمة أى شخص فى الصدارة أو المؤخرة للقبه أو مكانته .

* * *

— ٣ —

قد يختلف رأيي مع رأى الدكتور فى كثير من الشخصيات التى ذكرها الدكتور فى أحاديثى معه فى كثير أو قليل، على أنى قد تحريت الأمانة فى النقل ، والدقة فى السرد .

ولربما يختلف رأيي مع رأى الدكتور فى على الشمسى أو مكرم عبيد وغيرهما ، إذاً فلأذكر رأى الدكتور مصحوباً بالاحترام ولأضف رأيي فى كتابى: الحوادث السياسية الكبرى والأسرار المطوية « تحت الطبع » .

تلك هى أمانة القلم .

* * *

ولعلى بعد كتاب حوادث مصر السياسية ، والأسرار المطوية . قد أطلق القلم ، ولكن بعد أن أبين للناس مدى عبث الزعماء ، والمتصدرين للسياسة ، وقيادة الفكر .

ولعلى بعد ذلك أعيش ساخراً ومترهباً — ولكن وطنياً .

هل أستطيع ؟

أبتهل إلى الله أن يوفقنى وأن يجنبنى مواطن الذلل ومواقف الغرض .



كلمة حق وتقدير

كاتب هذه الكلمة الأستاذ محمود فتحى عمر هو أحد الشبان الذين عاصروا النهضة المصرية ، واشتغل عاملا مع الرجل الصريح الجرىء الشهيد الوطنى أحمد ماهر .

وهو من الذين عملوا لهذا الوطن فى خفاء وبلا إعلان عن النفس .

المؤلف



هذا كتاب طابعه الصدق والصراحة . بدأ كاتبه فى تسجيل حياة رجل عاش للوطن ، ومات فى سبيل الوطن . لكن هذه السيرة ما كانت لتتم صورتها الكاملة فى ذهن الشباب من القراء لولا أن اختلطت بصورة الوطن المجاهد فى سبيل حريته واستقلاله .

من أجل ذلك رأيت من واجبى أن أوجه زملائى الشباب — شباب الجيل الجديد — أن يكون فى قراءتهم لهذا السفر الجليل بعث لهذه الروح النبيلة العالية التى عاشت فيها مصر منذ عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٢ .

إن مصر فى هذه الفترة العصيبة من حياتها تحتاج إلى مثل هذه الروح الذى استطاع أن يصورها المؤلف فى كتابه ، فأدى بذلك واجبه نحو الشباب : جند الوطن .

ولعلى لا أعدو الحقيقة حين أقول : إن أخى المؤلف قد استطاع أن ينزع شعوره الشخصى ، وأن يتقمص روح المؤلف المنصف عند وصفه للحوادث ، وعند ذكره للأشخاص .

من أجل هذا فإنى أشكر باسم الشباب هذا المجهود وأباركه ، ومن أجل هذا أيضاً فإنى أدعو الشباب إلى دراسته وإلى العمل الصامت الدائم من أجل مصر ، وإنى أعلم أن « صالحاً » يجمع بين الشجاعة الأدبية والجرأة فى الحق .

محمود فهمى عمر



الأسرار السياسية !..

لا يسعنى بعد اطلاعى على كتاب « الأسرار السياسية » إلا أن أدوّن ما أملاه علىّ ضميرى ، لأظهر ما قام به زميلنا الأستاذ « صالح السودانى » من تضحية فى الوقت ، وهو فى منأى عن أصدقائه وخلانه ، أثناء جمعه تلك المعلومات الهامة التى حواها كتابه القيم ، الفريد من نوعه .

جاء فى أول فصوله ما قام به الدكتور محجوب ثابت من تضحية فى سبيل الحركة الوطنية ، داعياً مع الزعماء والأقطاب إلى النهضة المباركة التى نهض بها الشعب المصرى الكريم سنة ١٩١٩ ، فكان خطيباً لبقاً ، وكان وطنياً حقاً ، وكان داعياً للنشاط والحركة دون الخمول والجمود . بل شارك من قاموا بتلك الدعوة بالجهد والمال . فكان عضداً هاماً ، وكان سنداً ضليعاً .

وجاء فى فصل ثان مادعا إليه الدكتور محجوب من رفع مستوى العمال ، وتشريع القوانين الخاصة بمستقبلهم ، فكان العامل بين العمال ، الخطيب بين الخطباء ، الداعى إلى اتحادهم وجمع صفوفهم ، فتلك مفخرة تفخر بها العمال ، ودعوة حقة للذين جاءوا من بعده .

ولا يسعنى أن أصف ماقام به الدكتور محجوب من دعوة وطنية وإصلاح وغيره . وإنما يجب أن أسجل ما قام به زميلنا الأستاذ « صالح السودانى » من جهد ومشاق ومتاعب فى جمع تلك الوثائق

المكبوتة ، والدرر الغالية ، ينشرها بين الناس ، ليقتدوا بمن هم أولى بالاقتداء ، ولينسجوا على منوال ما نسج عليه السلف .

وإنى أذكر : أن الأستاذ « صالح السودانى » ، السودانى المنبت ، المصرى الإقامة ، الصحفى الجرىء ، البرىء ، الذى لا يتراجع أمام المعضلات .. خدم الصحافة فى أوجها ، فدبج يراعه المقالات الحماسية أيام الحركة الوطنية فى الجرائد التى كانت تصدر وقتئذ ، نذكر منها : الكشكول ، والثغر ، والسياسة ، والأخبار .. فكانت مقالاته هذه ناراً حامية متأججة ، تبعث فى النفوس حمية الوطنية ، وتدعوهم إلى التضامن والإخاء .

لقد جاء هذا الكتاب سجلا للحركة الوطنية التى قام بها محجوب ثابت ، وتاريخ لأبطالها الزعماء الذين ضحوا بالنفيسين : الجهد والمال .

فإلى الأستاذ الجليل أتقدم بالقليل عما أعرفه عنه ، فهو الفريد الأوحد ، الذى قام بهذا المجهود المضنى ، وكشف الستار عن خبايا الأسرار السياسية .

وإليه كذلك تقديرى الذى يفوق كل تقدير ، وأدعو الله أن يمد حياته ، حتى يخرج لنا الخبايا التى فى مجاهل النسيان .. أكثر الله من أمثال ذلك الوطنى الغيور ، وجعله قدوة لغيره ..

ع . ا .

الختـــام

أما بعـد فقد وجدتنى فى أثنـاء وضع كتـاب (الأسرار السياسية ، وأبطال الثورة المصرية ، وآراء الدكتور محجوب ثابت) — قد توغلت فى ذكريات الماضى بحلوه ومره ، ولم يفتنى مواضع العبر والعظات . وإلى هنا أستطيع أن أقول : إن هذا الكتاب قد جاء سجلا للحركة الوطنية ، وتسجيلا دقيقاً للعصر الذى عاش فيـه محجوب ، وإنصافاً للذين أخلصوا لله وللوطن المقدس من رجالات مصر ، ونقداً بريئاً وجريئاً للذين انحرفوا عن الجـادة فى صراحة كاملة ، ووضوح شامل ، وقلت لنفسى : فليغضب من يغضب ، وليرض من يرضى .

لقد بدأت فى وضع هذا الكتاب فى نفس اليوم الذى غادر فيه الدكتور محجوب ، الطبيب ، الأديب ، الوطنى ، المؤرخ ، العالم : رحاب الدنيا وموكب الحياة .

ولما كنت من أكثر الناس معرفة مصحوبة بالإيمان أنه عاش مغبوناً فى هذا الوطن ، أردت ألا يطارده الغبن والجحود إلى رمسه ، وكذلك غيره من الذين ذكرتهم منصفاً ، فإذا بالكتاب يصبح وصفاً دقيقاً للعصر ولكل ما مر فيـه من حوادث جسام . وإذا الكتاب تاريخ مصر والتطور الوطنى والاجتماعى والثقافى والخلقى . وأستطيع أن أقول : إن الحركة الوطنية المصرية لم تجد قبل كتابى هذا كتاباً جامعاً لتاريخها من حيث الصدق فى الرواية ، والدقة فى العرض ، والنزاهة فى الغرض ، وشرف القصد والهدف ، وفى وصف الرجال مقروناً بآثارهم ، مصحوباً بحسناتهم وسيئاتهم .

فهرس

الجزء الأول

الجزء الثانى

جلالة الملك ـ وتراجم بعض الشخصيات

شكر واجب

إنى أتقدم إلى حضرات رؤساء وعمال شركة فن الطباعة بجزيل الشكر وعلى رأسهم الأستاذ الفاضل « أمين الجزيرى » مدير القسم العربى ، على معاونتهم إياى فى طبع وترقيم هذا الكتاب وإخراجه فى هذه الصورة .

كما وأنى أعترف كذلك أنها أعظم دار فى الشرق العربى كله من حيث الإتقان فى الطبع ، والسرعة فى إنجاز العمل .

المؤلف

شركة فن الطباعة
صندوق بوستة ٤ شبرامصر - تليفون ٥٨١٤٩

وقعت أخطاء طفيفة سيدركها القارئ

